

توم سوير

تأليف
مَارِك تَوِين

ترجمه
ماهر نسيم

رابعه
فريد عبد الرحمن

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

توم سوير
قصة حياة طفل!

تأليف
مارك توين

مراجعة
فريد عبد الرحمن

تعريب
ماهر نسيم

هذه ترجمة كتاب

TOM SAWYER

By
Mark Twain

Published by (Public Domain)

توم سوير
قصة حياة طفل!

(٤٦)

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
وزارة التعليم العالي

دار
الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر النخلة - النخلة
تلفون: ٤١٢٩٦

مارك توين

- ولد عام ١٨٣٥ ووافته منيته عام ١٩١٠ بعد أن عاش خمسة وسبعين عاماً .
- وضع عدة كتب أشهرها « توم سوير » ، و « هاكلبرى فين » ، و « أخذ الأمور كما هي » ، . . . ، و « الحياة على نهر المسيسيبي » .
- كاتب عصامي ، أحرر ما أحرزه من نجاح بفضل ما بذله من جهد مرير ، فقد اشتغل عاملاً في المناجم ومراسلاً صحفياً ومحاضراً .
- تغلب على كتابته الدعابة الحلوة والفكاهة المرححة . بيد أن هذه الفكاهة وتلك الدعابة لم تكونا مجرد وسيلة من وسائل الترفيه عن القراء أو التسرية عن المحزونين ، بقدر ما كانت طريقة من طرائق معالجة أكثر مشاكل الحياة جدية .
- ترجمت قصصه إلى معظم اللغات الأجنبية ، ونالت تقدير النقاد في كل مكان .

تقديم

تعالج هذه القصة « توم سوير » حياة غلام تهفو نفسه إلى المغامرة والمخاطرة ، وينبض قلبه بما تنبض به قلوب البشر عادة من حب وبغض ، وقلق وارتياح ، وألم ومرح ، وخذلان وانتصار ، وثورة على النفس ورضاء بالواقع ... وهي قصة كل صبي تتجاذبه عوامل المراهقة بكل ما تحمله معها من شعور بالتطلع إلى الأمام والرجولة المبكرة وحب الارتقاء بالذات . ولعل كل واحد منا قد صرت به مرحلة شبيهة بتلك التي اجتازها « توم سوير » . بل لعلنا جميعاً قد لعبت بنفوسنا نفس الخيالات والرؤى والأوهام التي لعبت برأس ذلك الصبي .

وعلى الرغم من أن قصة « توم سوير » هي قصة صبي لم يكتمل نضجه العقلي والنفسى ، إلا أن « مارك توين » قد أودع القصة تجارب ومفاهيم ينبغي أن نقف عندها متأملين دارسين . فالصراع الذي صورده لنا المؤلف في هذه القصة بين انطلاقات الطفولة ممثلة في « توم سوير » ، و « هاكبرى فين » ، و « ماري » ، و « إيمي » من جانب ، وبين الواقع المرير الذي يطحن الكبار ممثلين في « العمة بولي » وأسرة « ماري » وشقى رجال القرية اليافعين ونسائها الساذجات الطيبات من جانب آخر ، صراع دقيق يستأهل التحليل والدراسة .

ولو أننا ألقينا نظرة أعمق وأشمل على تلك القصة ، لوجدناها أشبه بمسرح كبير تتعاقب عليه شخصيات عدة يحفل بها كل مجتمع في العالم سواء كان هذا المجتمع غربياً أم شرقياً ... فالعمة « بولي » قد تكون أشبه بأية أم في مصر أو غير مصر ، « وتوم سوير » قد يكون أى صبي في الشرق أو الغرب ، و « هاكبرى فن » الفتى الضائع الذي ذهب ضحية المجتمع يشبه فتية كثيرين نراهم في كل مكان ... كما أن مشاعر الحب والبغض ، والسعادة

والتعاسة ، والانتصار والخذلان ، التي تحفل بها هذه القصة هي نفس المشاعر التي تصطبغ بها الحياة في كل مكان وفي كل زمان .

ولقد وقع اختيار إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم على هذه القصة بالذات ، لأنها تصوّر شتى ضروب الحياة الإنسانية تصويراً رائعاً لا يخلو من دعابة حلوة وتوجيه مفيد للشباب ، ولما تتضمنه القصة من مبادئ ومثل تستهدف الارتقاء بالذات ، والتطلع إلى الأمام ، وتغليب الخير على الشر مهما اشتدت قوة المؤثرات والمغريات .

ولا شك أن القارئ الكريم سوف يلاحظ أن « هاكبرى فن » الفتي الشريد الضائع قد اقتسم بطولة القصة مع « توم سوير » . ولقد أراد « مارك توين » ذلك ، لأنه أحب أن يجعل من شخصيتي « توم سوير » و « هاكبرى فن » وحدة متماسكة تؤدي غرضاً واحداً ؛ هو معالجة مشاكل المجتمع معالجة صادقة ، ونقدها نقداً صارماً في وقت واحد .

وفي الختام ، هذه لمحة خاطفة عن « مارك توين » مؤلف القصة ، وإلمامة عابرة بالقصة ذاتها التي نضعها بين أيدي القراء الكرام ، سائلين الله تعالى أن يلهمنا جميعاً ما فيه الخير والتوفيق ، والسلام .

ماهر نسيم
(مترجم القصة)

فريد عمر الرمحم
عميد معهد المعلمين بالزيتون
(مراجع الكتاب)
(الطبعة الثانية في مايو ١٩٦٣)

الفصل الأول

« توم » يلعب ويقا تل ويختفى

... « توم » !

— « توم » !

ولم يجب « توم » .

— لشد ما أعجب ماذا أصاب هذا الغلام ا يا ولد يا « توم » !

ولم يجب « توم » للمرة الثالثة .

وجذبت السيدة العجوز عويناتها إلى أسفل ، ثم تطلعت من فوق حاقها في أنحاء الغرفة ، وعادت رفعت عويناتها مرة أخرى ونظرت من تحتها ، لأنها قلما كانت تتطلع من خلالها لترموق بنظراتها شيئاً تافها مثل الصبي توم — وبدت الحيرة على وجهها لحظة ، ثم ما لبثت أن قالت بصوت لا أثر للشراسة فيه وإن كان مرتفعاً إلى الدرجة التي تكفل لآثاث الغرفة أن يسمعه :

— حسناً .. لكم أود أن أظفر بك .. فعندئذ ...

ولم تكمل عبارتها ، إذ سرعان ما انحنيت إلى الأمام وراحت تدفع مكنتها هنا وهناك تحت الفراش ، وقد احتفظت بأنفاسها حتى تستطيع أن تنظم ضرباتها التي كان يخيل إليها أنها سوف تصيب « توم » ولكنها لم تصب إلا الهرة .

— إنني لم أستطع أن أعرف حتى الآن أين يختفى هذا الغلام !

وتقدمت من الباب المفتوح ، ووقفت عند مدخله ، وتطلعت إلى الخارج عبر مزرعة الطماطم وأعشاب الداتورة التي كانت تملأ الحديقة . ولكنها

لم تر أثرا لتوم ، ومن ثم فقد رفعت صوتها إلى الدرجة التي تجعله مسموعاً
من بعد ، وصاحت :

— أين أنت يا ولد يا « توم » !

وارتفعت من خلفها ضوضاء خفيفة ، فاستدارت في الوقت الملائم
لتمسك بـغلام صغير من ياقته فتمنعه من الفرار . .

وهتفت : هناك ا كان ينبغي أن أفكر في هذا (المطبخ) . . انظر
إلى فك . . ما هذه الآثار ؟

— لست أدري يا عمتي !

— حسناً . . أما أنا فأدري . إنها مربى — نعم ، مربى . . لقد قلت
لك أربعين مرة أنك إذا لم تدع هذه المربى وشأنها فساأسلخ جلدك . . .
هات هذه العصا .

ورفرت العصا في الهواء — كان الخطر داهماً . .

وصاح الفتى : يا إلهي ! انظري خلفك يا عمتي !

واستدارت السيدة العجوز على عقبيها ، وجذبت ثوبها بعيداً عن الخطر .
وفي التو لاذ الغلام بالفرار ، وتسلق السياج المرتفع العريض ، ثم اختفى
خلفه .

وجمدت عمته « بوني » في مكانها لحظة وقد استبدت بها الدهشة ،
ولكنها لم تلبث أن انفجرت ضاحكة بلطف . ثم قالت :

— يا للـغلام اللعين . ا ألا أستطيع أن أتعلم شيئاً ؟ ألم يخدعني كثيراً
على هذا المنوال بحيث كان يجدر بي أن اكون منه على حذر الآن ؟ ولكن
قدامى الحقى هم أكبر الحقى . . فأنت لا تستطيع أن تعلم الكلب العجوز
الحيل الجديدة كما يقول المثل . لكن يا إلهي ، أن هذا الغلام لا يكرر الحيلة
مرتين ، فكيف يستطيع الإنسان أن يعرف ما يخبئه له ؟ يبدو أنه يعرف .

إلى أى مدى يستطيع أن يعذبني قبل أن يشور غضبي ، ويعرف أنه إذا استطاع أن يأخذني على غرة أو يشير ضحكى ، انتهى كل شيء وانحسرت عنى الرغبة فى ضربه . . لأننى لا أودى واجبى حياال هذا الغلام ، تلك حقيقة يعلمها الله . . لأننى أرتكب إثماً وأزرع العذاب لكينا . . إن هذا الغلام شقى ، ولكنه ابن أختى الميتة . . ولهذا فإننى لا أجد من نفسى الشجاعة الكافية لكي أضربه . . حسناً ، يقول الكتاب المقدس أن « أيام ابن حواء قليلة كلها متاعب » ، وكبر ظنى أن هذا صحيح . . إنه سيلعب الهوكى بعد ظهر اليوم ، ولكنى مضطرة إلى إرغامه على العمل غداً عقاباً له . . من المؤلم حقاً أن أجعله يعمل فى أيام الآحاد والأطفال جميعاً يستمتعون بالعطلة ، ولكنه يكره العمل أكثر مما يكره أى شيء آخر ، ولا بد لي من أن أودى بعض الواجب على نحوه ، وإلا فساد كون السبب فى ضياع مستقبل هذا الغلام .

ولم يلعب « توم » الهوكى فى يومه هذا ، ولكنه قضى وقتاً طيباً فى اللهو ، ولم يعد إلى المنزل إلا فى الوقت الذى كان يجب عليه أن يعود فيه لمعاونة « جيم » . . وهو غلام زنجى صغير - فى « نشر » الخشب اللازم للغد وإشعال النار فى الموقد قبل موعد العشاء - ولقد وجد « جيم » من وقته متسعاً ليحدث « توم » عن مغامراته فى هذا اليوم ، بينما انصرف « توم » إلى العمل حتى أتم ثلاثة أرباعه أما « سيدنى » أخ « توم » (أو بالأحرى أخيه لأبيه) ، فكان قد فرغ من أداء نصيبه من العمل (جمع قطع الخشب) إذ كان غلاماً هادئاً لا يعرف معنى المغامرات ولا يسلك سبلاً ملتوية .

وبينما كان « توم » يتناول عشاءه ، ويسرق قطع السكر كلما واتته الفرصة ، راحت عمته « بولى » تلقى عليه أسئلة ، مفعمة بالدهاء إذ كانت تسعى إلى استدراجه ليفضى إليها بما يصلح ذريعة لعقابه ، فقد كانت كأترابها من النساء الساذجات طبيبات القلب تعتقد أنها تتمتع بموهبة تمكنها من

إيجاد سياسة الاستدراج والإيقاع ، وكانت تحب أن تعتبر وسائلها الواضحة
أكثر الوسائل إعجازاً ودهاء .

قالت : لقد كان الجو دافئاً في المدرسة يا « توم » .. أليس كذلك ؟

— نعم يا عمتي .

— أ كان شديد الدفء ؟ .

— نعم يا عمتي .

— ألم تفكر في الذهاب للسباحة يا « توم » ؟

وبهت « توم » ، وتولاه شعور من الشك غير المريح . فراح يتأمل وجه
العمة « بولي » ، ولكنه لم يستطع أن يستشف منه ما يدور بخلد ها . ومن
ثم قال :

— كلا يا عمتي . . . لم أفكر كثيراً في ذلك .

ومدت السيدة العجوز ذراعها وتحسست قميص « توم » ثم قالت :

— ولكنك لست شديد الدفء الآن رغم ذلك .

وسرها أن اكتشفت أن القميص كان جافاً بغير أن يعرف أحد أن
ذلك هو ما كان يدور بخلد ها ؛ إلا أن « توم » استطاع ، رغم ذلك أن يفطن
إلى مهب الريح في تلك اللحظة ، ومن ثم فقد تكهن بما ستكون عليه
الخطوة التالية .

قال : لقد غسل بعضنا رأسه بالماء ، وما زال رأسي مبتلاً حتى الآن . . .

أنظري !

واغتازت العمة « بولي » حين أدركت أنها غفلت عن مثل هذه الأدلة
الظاهرة ، وبذلك ذهبت خدعتها أدرج الرياح ، بيد أنه لم يلبث أن هبط
بمئذها وحي جديد .

قالت: لم يكن هناك ما يدعوك وأنت تغسل رأسك أن تمزق ياقة القميص...
التي حكمتها لك من قبل؟ كان يكفي أن « تفك » أزرار سترتك !
وانحسرت علامات القلق عن وجه « توم » ، وفتح سترته ، فإذا بجياكة
قيصه متماسكة تماماً .

هتفت : يا لعنة ! حسناً ، لقد نجوت هذه المرة . . كان يجب أن أستوثق
من أنك لعبت الهوكي وسبحت . . . ولكني سأصفح عنك يا « توم » ،
فأ كبر ظني أنك كقط مست النار ذيله كما يقول المثل .

كانت تتنازعا عوامل الأسف لأن فطنتها خابت ، وعوامل الرضا
لأن « توم » تعثر لأول مرة وسلك سلوك الولد المطيع .
ولكن « سيدني » قال : حسناً . كنت أظن يا عمتي أنك حكمت ياقته -
بخيط أبيض لا أسود !

— نعم . . لقد حكته فعلا بالخيط الأبيض يا « سيدني »

ولم يتريث « توم » ، حتى يبلغ الموقف ذروته ، فانطلق خارجا من الباب.
وهو يقول :

— سوف أنتقم منك « يا سيدني »

وإذ أصبح « توم » في مكان أمين ، راح يفحص الإبرتين الكبيرتين
المثبتتين في طرف ياقته ، وقد لف الخيط حولهما — كانت إحداهما تحمل
خيطاً أبيض ، والأخرى تحمل خيطاً أسود . قال :

إنها ما كانت لتفطن إلى الحقيقة لولا « سيدني » . . لعنة الله عليه ! إنها
تحيك قيصي أحياناً بالخيط الأبيض ، وأحياناً أخرى بالخيط الأسود
ولكم أود لو أنها داومت على استعمال أحد الخيطين — إنني لا أستطيع
أن أتبعهما بدقة . . ولكني أراهن على أنني سوف ألقن « سيدني » درساً
لا ينساه على ما فعل .

وما أن مضت دقيقتان ، وربما أقل ، حتى كان « توم » قد نسي كل متاعبه ، ولم يكن ذلك لأن متاعبه كانت أقل عبثاً ومرارة عليه من تلك التي يعانها الرجال ، ولكن لأن شيئاً جديداً أقوى وأدعى للاهتمام استطاع أن يبيد هذه المتاعب ويجعلها تتلاشى من عقله في هذه اللحظة — مثلما ينسى الرجل نكباته حينما يستبد به الانفعال في غمرة تطالعهِ إلى شيء جديد . أما هذا الشيء الذي استأثر باهتمامه ، فكان لحناً جديداً من الصغير تعلمه حديثاً من غلام زنجي صغير . وكان « توم » يبذل قصارى جهده ليتدرب عليه بغير أن يزججه أحد . وكانت في هذا اللحن نغمة أشبه بتغريد الطير ، تستلزم ممن يريد إحداثها أن يجعل لسانه يلمس سقف حلقه في فترات قصيرة أثناء الصغير — ولعل القارئ يتذكر كيف يمكنه إحداثها إذا كان قد مر بمرحلة كتلك التي كان « توم » يجتازها — وسرعان ما استطاع بالمثابرة والاهتمام أن يسيطر على اللحن ويجيد النغمة ، ومن ثم فقد انطلق في طريقه وفه منتفخ باللحن المنسجم وروحه مفعمة بالشكر وعرفان الجميل . . لقد كان يستشعر تلك النشوة التي يحس بها فلنكي اكتشف كوكباً جديداً — كان شعوراً قوياً عميقاً ، صافياً من السرور والبهجة . ولكن لا شك في أن الغلام ، لا الفلنكي ، هو الذي كان يستمتع بهذا الشعور في تلك اللحظة !

كانت ليالي الصيف الطويلة . ولم يكن الظلام قد أسدل ستاره بعد ، ومن ثم فسرعان ما كف « توم » عن صغيره . وحينئذ رأى أمامه غلاماً غريباً يفوقه ضخامة في البنية فاستبدت به الدهشة ، إذ كان أي وافد جديد في أي سن ومن أي من الجنسين يعتبر حدثاً عجبياً في قرية «سانت بترسبرج» الصغيرة القذرة . . وكان هذا الغلام حسن الهندام -- نعم ، كان حسن الهندام في يوم من أيام الأسبوع العادية ، الأمر الذي أذهل « توم » الغلام القروي الصغير . فقد كانت قبعة الوافد الجديد شيئاً أنيقاً ، أما سترته الزرقاء متقاربة الأزرار فكانت جديدة ، وكذلك كان سرواله (بنطلونه) . وكان هذا الغلام يلبس حذاء — رغم أنه وفد يوم الجمعة وهو يوم من

أيام الأسبوع العادية . بل لقد كان يرتدى ربطة عنق أشبه ما تكون بشريط
براق . وكانت سنياء المدينة بادية عليه ، مما جعل الغيرة تنهش قلب « توم » .
وكلما أطال توم النظر إلى هذه الأعجوبة الفاخرة ، ازداد شعوراً بالازدراء
للأسمال التي كان يرتديها . . ولم يتكلم أى من الغلامين ، ولكن كان كل
منهما يتحرك كلما تحرك الآخر ، ولكن في اتجاه جانبي . وظلا يواجهان
أحدهما الآخر ، وقد تلاقى عيونهما طوال الوقت :

وأخيراً قال « توم » ، فى استطاعتي أن (أمسح بك الأرض) !

- لكمأ ودلو تحاول ذلك .

- حسناً . . فى استطاعتي أن أفعل ذلك

- كلا . . إنك ان تستطيعه

- نعم . . أستطيع

- لا أستطيع !

- أستطيع !

- لا أستطيع !

وتلت ذلك فترة صمت حرجة . ثم قال « توم » :

- ما اسمك ؟

- لعل ذلك ليس من شئونك .

-- ولكننى سأجعله من شئونى

- حسناً . . لماذا لا تفعل ؟

- إذا أكثرت من الكلام فسأفعل

- ها أنذا أكثر من الكلام يا هذا . .

- أوه - إنك تظن أنك شديد الحذق . . أليس كذلك ؟ فى

استطاعتي أن أصرعك وإحدى يدي مربوطة خائف ظهري إن شئت ذلك . . .

— حسناً . لماذا لا تفعل ذلك ؟ إنك تقول أنك تستطيع أن تفعله

— حسناً . . سأفعله إذا أثرت ثائرتي

... أوه نعم . . لقد رأيت أسرات برمتها في مثل هذا المأزق الذي أنت .

واقع فيه !

— أتظن نفسك حاذقاً ما كرا . ؟ أوه . . يا لها من قبعة !

— تستطيع أن تهشم هذه القبعة إذا لم تعجبك . . إنني أتحدّثك أن

تسقطها من فوق رأسي — بل إن أي شخص يجرو على ذلك سوف أجعله

يلعق التراب .

— أنت كاذب !

— وأنت كاذب أيضاً

— أنت مقاتل دعي لا تجرو على المبادأة بالقتال

— آه انصرف !

— اصغ إلى . . إذا تماديت في سخافاتك ، فسأنقض عليك وأحطم

رأسك .

— أوه . . بالطبع ستفعل ذلك . ١١

— حسناً . . نعم ، سأفعل .

— حسناً . . إذن لماذا لا تفعل ذلك ؟ ما الذي يدعوك إلى تكرار كلمة

« سأفعل » ، لماذا لا تفعل ؟

— أليس ذلك دليلاً على أنك خائف ؟

— لست خائفاً

— بل إنك خائف

— كلا . . لست خائفا

— لا شك أنك خائف

وساد الصمت بين الغلامين ، واستمررا يتراشقان بالنظرات ويدوران
أحدهما حول الآخر ، وسرعان ما وقفا كتيفا إلى كتف

وقال « توم » : امض من هنا !

— بل امض أنت

— لن أغادر هذا المكان

— وأنا أيضاً انصرف

وهكذا وقفا وقد جعل كل منهما ساقيه على شكل زاوية في وضع
تحفزي . ثم راح كلاهما يدفع الآخر بكتفه في عنف وعزم ، وهما يتبادلان
نظرات الحقد والكراهية . ولكن أحداً منهما لم يستطع أن يزحزح صاحبه
قيده أمثلة من مكانه . واستمررا يناضلان حتى احتقن وجهاهما ولهثت
أنفاسهما ، وأخيراً بدأ كل منهما يتراخى في حذر . ثم قال « توم » :

— إنك نذل و كلب . سأحدث أخى الأكبر عنك ، فإن في استطاعته

أن يضربك بأصبعه ، وسأجعله يفعل ذلك .

— ماذا يخيفني من أخيك الأكبر ؟ إن لي أخاً أكبر من أخيك —

وما هو أكثر من ذلك ، إن في استطاعته أن يقذف بأخيك من فوق

السياج (قالوا ذلك وهما يعلمان أن ما قالاه كذب في كذب ا) .

— هذا كذب .

— إن قولك هذا لن يجعل من الحقيقة كذبا .

ورسم « توم » خطأ على الأرض بأصبع قدمه ، وقال :

— إنني أتحدثك أن تتجاوز هذا الخط ، فإن فعلت فسا ضربك حتى لا

تقوى على الوقوف .

وتخطى الواقد الجديد الخط فجأة وقال :

- سمعتك تقول إنك ستضربني ، فلماذا لا تفعل !
-- لا تستفزني أكثر من ذلك . . فمن الخير لك أن تحشر غضبي .
-- حسناً لقد قلت إنك ستضربني — فلماذا لا تفعل ذلك ؟
يا للجنة ! سأفعل ذلك مقابل سنتين .

وأخرج الوافد الجديد قطعتين من ذات السنن من جيبيه ، وقدمهما
تتوم بعزم « فأطارهما هذا من يد الغلام بضربة سريعة ، وفي اللحظة التالية
كان الغلامان يتدحرجان على الأرض فوق القاذورات وقد أنشب كل
منهما أظفاره في الآخر كالقط ، وراح كل منهما يمزق شعر الآخر وثيابه
ويلطمه ويركبه ، ويشد أنفه بعنف حتى لطخا نفسيهما بالتراب ومجد المعركة !
وسرعان ما ساد عرا كهما الاضطراب ، وعندما انحسر ضباب المعركة ؛ كان
« توم » يجلس فوق الغلام الغريب كما يمتطي المرء الجواد ، وهو يلكمه
بقبضتي يديه !

ثم هتف : أظن أن في ذلك الكفاية !

وجاهد الغلام الغريب ليخلص نفسه . . كان يبكي — ولكن بكاء
الغاضب المحنق !

وأخيراً قال الغريب بلهجة محتنقة : كفى !

وتركه « توم » لينهض وقال .

— أظن أن في هذا الدرس الكفاية . فيحسن بك أن تكون على
حذر عندما تحاول أن تسخر مني مرة أخرى .

ومضى الغلام الغريب لشأنه وهو يزيل التراب من فوق ثيابه ، وكان
لا يفتأ يتطلع خلفه بين الحين والحين ، ويهز رأسه ويتوعد « توم » بما
سيكمله له من لكمات عندما « يلتقي به مرة أخرى » ، ولكن « توم » ،
قابل تهديداته بالسخرية ، ثم لم يلبث أن استدار على عقبيه ومضى في طريقه
وهو يشعر بنشوة الانتصار . ولكنه ما كاد يدير ظهره إلى الغلام الغريب ،

حتى التقط هذا حجرا من على الأرض وقذف به « توم » فأصاب ما بين كتفيه ، ثم أطلق لساقيه الريح ، وراح يركض كالغزال . وطارده « توم » الغلام الهارب إلى أن بلغ منزله ، فعرف أين يقيم . ووقف عند الباب وأخذ يتحدى عدوه أن يخرج من مكانه ، ولكن العدو اكتفى بالتطلع إليه من خلف زجاج النافذة ، ورفض أن يقبل التحدى . وأخيرا ظهرت أم الغلام وراحت تصف « توم » بأنه طفل شرير آثم سافل ، وأمرته بالانصراف . فاضطر إلى الإذعان وهو يتوعد عدوه بالقصاص .

وعاد « توم » إلى المنزل متأخرا في تلك الليلة ، ولكنه ما كاد يتساق النافذة بحذر حتى ألقي عمته « بول » قد أعدت له كميناً ، وما كادت ترى حالة ثيابه السيئة حتى ازدادت إصراراً على حرمانه من عطائه في يوم السبت وتأديبه بإرغامه على أداء عمل شاق !

الباب الثاني

الطلاء البارع

أقبل صباح يوم السبت ، وكانت دنيا الصيف كلها متألقة نضرة ؛ تنبض بالحياة ... كانت في كل قلب أغنية ، فإذا كان القلب صغيراً ، انسابت الموسيقى من خلال الشفتين . . وكان البشر بادياً على كل وجه ، والنشاط ممثلاً في كل خطوة . وكانت أشجار الخرنوب زاهية المنظر ، يعطر أريج زهورها المتفتحة الهواء . وفيما وراء القرية ، كان ينهض مرتفع كارديف هيل ، وقد غطته طبقة من السندس الأخضر الجميل الذي يسر مرآه الناظرين ويذكرم بالراحة البدنية والهدوء النفسى .

وظهر « توم » فى عمر جانبي وهو يحمل دلواملوء بالطلاء الأبيض وفرشاة ذات يد طويلة . وراح يتأمل السياج ، ولم يلبث أن فارقه مرحة ، وارتسمت على وجهه علامات العبوس وطغت على روحه موجة من الحزن . فقد كان طول السياج ثلاثين ياردة وارتفاعه تسعاً . . وفى تلك اللحظة خيل إليه أن الحياة جوفاء ، وأن الاستمساك بها عبء ثقيل . .

وتنهذ الغلام ، وغمس الفرشاة فى الطلاء ثم جرى بها فوق اللوح العلوى ، وأعاد العملية مشى وثلاثاً ، وراح يقارن بين اللوح الذى طلاه وبين طلاء سياج آخر قريب . ولم يلبث أن جلس فوق جذع شجرة وقد غمره اليأس . . وفى تلك اللحظة أقبل « جيم » خارجاً من باب الحديقة وهو يحمل دلوامن الصفيح ويردد أغنية كانت ذاتة وقتذاك . ومع أن « توم » كان يعتبر حمل الماء من مضخة المدينة عملاً ممقوتاً ، إلا أنه لم يشعر بأنه كذلك فى تلك اللحظة . وتذكر أن منطقة المضخة ملتحق جمع من البيض والزوج والملونين .

بنين وبنات ، كل منهم ينتظر دوره ليلاً وعاءه . وهم عادة ينتهزون هذه الفرصة ليستريحوا أو يتاجروا في اللعب أو يتشاجروا أو يتعاركوا ، أو ليسبحوا في الخيال . . . وتذكر أنه رغم أن المضخة لا تبعد عن المنزل بأكثر من مائة وخمسين ياردة فإن « جيم » قلما عاد بدلو من الماء قبل انقضاء ساعة - وحتى في هذه الأحوال كان لا بد من أن يذهب أحد للبحث عنه وإحضاره .

قال « توم » : اصغ إلى يا « جيم » . . سأذهب لإحضار الماء إذا قت أنت ببعض الطلاب .

وهز « جيم » رأسه سلباً وقال : لا أستطيع أيها السيد « توم » ، فقد عهدت إلى سيدتي العجوز أن أذهب وأحضر الماء وحذرتني من التسكع أو التحدث مع أحد ، كما قالت لي أنها تتوقع أن يحاول السيد « توم » استدراجي للاشتراك معه في الطلاب ، وأن عليّ أن أؤدي عملي فقط ، وأردفت قائلة إنها ستأتي لتراقب عملية الطلاب بنفسها !

- أوه . . دعنا بما قالته يا « جيم » ، فنلك طريقتهما في الكلام . . . أعطني الدلو - فلن أغيب عنك أكثر من دقيقة . . وهي لن تعرف شيئاً عما حدث .

- كلا . . لا أستطيع أيها السيد « توم » ، فقد هددتني سيدتي بالعذاب إن عصيت أمرها ، ولا شك في أنها منفذة وعيدها إن خالفت هذا الأمر .

لا تخف يا « جيم » ، فإنها لم تعذب أحداً من قبل . إنها لا تفعل أكثر من أن تنقر على الرأس عدة مرات بقمع الخياطة ! وأظن أن ذلك لا يؤدي أحداً . . صحيح إنها تكثر من التهديد والوعيد ولكن الكلام لا يؤدي . . هيا يا « جيم » . سأعطيك شيئاً مدهشاً . . سأعطيك هذه الكرة الجميلة من الرخام الأبيض :

وبدت عاملات التردد على وجه « جيم » . فأسرع « توم » يقول :
- رخام أبيض يا « جيم » ! يا لها من كرة جميلة !
- إنها بلا شك كرة مدهشة ! ولكنني خائف أشد الخوف من سيدتي .
أيها السيد « توم » . . .

- وإذا قبلت فسأريك أصبع قدمي المقترح
كان « جيم » ، زنجياً طيب القلب - وكان هذا القول أكثر مما يحتمله .
ومن ثم فقد وضع دلوه على الأرض واقترب من « توم » . وراح يتأملها
وهو يفك الرباط من حول أصبعه المقترح . وفي اللحظة التالية كان الغلام
الأسود يركض بأسرع ما يستطيع والدلو يتأرجح في يده ، بينما راح « توم »
يطلق السياج بقوة ونشاط ، فقد كانت العمة « بولي » مقبلة من الحقل وهي
تحمل خفا في يدها بينما لمعت عيناها بيريق النصر ..

ولكن نشاط « توم » لم يستمر طويلاً . لقد بدأ يفكر في اللهو الذي
أعدده لهذا اليوم فتضاعف حزنه . إذ عما قريب ، سوف يأتي الصبية السعداء .
في طريقهم إلى مختلف أنواع المغامرات اللذيذة ، وسوف يسخرون منه
لأنه مضطر إلى العمل - وأحس بقسوة هذه الفكرة وكأنها النار الحامية .
وأخرج من جيبه كل ما يملك من ثروة وراح يتأملها - قطع من اللعب ،
وكرات صغيرة من الرخام ... وأدرك أنها قد تكفي ليدفعها ثمناً لتبادل
العمل مع أي صبي آخر ، ولكنها لا تكفي لشراء نصف ساعة من الحرية
الخالصة . ومن ثم أعاد ثروته إلى جيبه ، وتخلي عن فكرة محاولة
استئجار الغلمان . وفي تلك اللحظة القائمة هبط عليه الوحي ا وحي عظيم .
رائع ...

التقط فرشاته ، وانصرف إلى العمل بهدوء . . . إذ سرعان ما أقبل
« بن روجرز » - وكان هو الغلام المنشود من بين جميع الغلمان رغم أن
« توم » كان يضيق أشد الضيق بأسلوبه الساخر . . وكانت مشية

« بن روجرز » الشبيهة بالوثب أكبر دليل على ما كان يشعر به من سعادة..
وكان « بن » يقضم تفاحة ، وهو لا يفتأ يشهق شهقة عميقة طويلة بين
الحين والحين ، ثم لا يلبث أن يتبع الشهقة بصوت متلاحق متناسق على
النحو والتسالي « دنج - دونج - دونج ، دنج - دونج - دونج ،
ذلك أنه كان يقلد القارب البخارى . وعندما اقترب من « توم » ، أبطأ من
سيره ، ووقف فى منتصف الطريق ، ثم مال فوق حافة الجانب الأيمن
من القارب الوهمى واستدار ببطء وصعوبة ، ولا عجب فقد كان يقلد
القارب « ميسورى الكبير » . وكان يعتبر القارب يقترب فى تلك اللحظة
من منطقة عمق مائتا تسعة أقدام . وكان الغلام يلعب دور الربان ، وأجراس
القارب معاً ، ومن ثم كان عليه أن يتخيل نفسه واقفاً فوق سطح القارب
يصدر الأوامر وينفذها فى وقت واحد .

-- أوقف المحرك يا سيدى ! تنج -- لنج -- لنج !

وأوشك القارب أن ينتهى من سيره . وأخذ الغلام يقترب ببطء من
الممر الجانبى المحاذى للسياج ، ثم مضى بعد ذلك يصدر التعليمات اللازمة
للإرساء النهائى ، وهو لا يفتأ بين الحين والحين يردد أصواتاً يظنها تشبه
الأصوات التى تنبعث من محرك القارب ، إلى أن ثبت القارب فى مرساه .
واستمر « توم » فى الطلاء غير عابئ بالقارب البخارى . . . فصدق
« بن » فيه لحظة . ثم قال :

— أوه ! إنك غارق فى العمل المضى . . أليس كذلك ؟

ولم يجب « توم » . وإنما راح يتأمل لمسة الفرشاة الأخيرة بعين الفنان .
ثم جرى بفرشاته مرة أخرى على اللوح . وتأمل النتيجة كما فعل من قبل . .
فتقدم « بن » ، حتى وقف بجواره . . وسأل لعاب « توم » حينما رأى التفاحة
فى يد « بن » ، ولكنه استمر فى عمله . فقال « بن » :

-- هل أنت مرغم على العمل يا صديقى ؟

وانثنى « توم » إليه فجأة . . وقال :

— أهذا أنت يا د بن ، الإنى لم أرك ا
أصغ إلى . . . إننى ذاهب للسباحة . . أفلا تود لو أنك استطعت أن
تسبح ؟ ولكن لا ائخيل إلى أنك تفضل العمل . . أليس كذلك ؟ بالطبع
أنت تفضله ا

وتأمل د توم ، الغلام قليلا . ثم قال :

— ما الذى تقصده بكلمة د العمل ، ؟

— أليس هذا الذى تفعله عملا ؟

واستأنف د توم ، الطلاء . ثم أجاب بغير مبالاة .

— حسناً . . ربما كان كذلك ، وربما لم يكنه . . كل ما أعليه أنه

يلائم د توم سوير ، ا

— أوه . . . لا أحسبك تريد أن تدخل فى روعى أنك تحب هذاالعمل ا

واستمرت الفرشاة فى الحركة . .

— أحبه ؟ حسناً . . لست أدرى لماذا يجب ألا أحبه . . هل تناح

لغلام مثلى فرصة طلاء سياج كل يوم ؟

ولقد خلعت هذه العبارة على الموقف طابعاً جديداً . . فكف د بن ،

عن قضم تفاحته ، بينما راح د توم ، يحرك فرشاته جيئة وذهابا فى حركات

أنيقة . . ثم تراجع إلى الورا ليتأمل التأثير — وأضاف لمسة هنا وأخرى

هناك — وعاد فتأمل النتيجة . . وكان د بن ، يراقب كل حركة من حركات

د توم ، فيزداد اهتماما ، ثم لم يلبث أن قال :

— اصغ إلى يا د توم ، . . . دعنى أشترك معك فى الطلاء .

وفكر د توم ، . وكان على وشك الموافقة ولكنه عدل عن

رأيه فجأة .

وقال : كلا . . . كلا . . . لا أظن أن ذلك ممكن يا د بن ، . . . إن عمى
« بولى » مهتمة أشد الاهتمام بهذا السياج - لأنه يشرف على الطريق
الرئيسى كما ترى - ولو كان هذا هو السياج الخلفى لما رفضت طلبك ولما
اهتمت هى بمن يطليه . . . نعم ، إنها شديدة الاهتمام بهذا السياج . . .
ولهذا يجب أن يطلى بمنتهى العناية . وأكبر ظنى أنه لا يوجد غلام من بين
كل ألف غلام ، وربما من بين كل ألفين يستطيع أن يطليه بالطريقة التى
ينبغى أن يطلى بها .

- أحقا؟ أوه . . . اصغ إلى . . . دعنى أحاول . . . دعنى أحاول قليلا . .
لو كنت مكانك لجعلتك تحاول يا د توم ، ا

- لكم أود لو استطعت يا د بن ، . . . ولكنها العمة « بولى » - لقد
أراد « جيم » أن يطلى السياج ، فرفضت أن تسمح له بذلك . كذلك أراد
« سيدنى » ، ولكنها رفضت أيضاً . . . أفلا ترى حرج مركزى لو أنك طليت
هذا السياج وحدث له شيء . . .

- أوه . . . كلا . . . إن يحدث شيء ، فسألزم جانب الحذر الشديد . . .
دعنى أحاول ، وإنى مستعد لا عطائك قلب تفاحتى مقابل ذلك ا

... كلا يا د بن ، إننى خائف . . .

- إذن فسأعطيك التفاحة كلها ا

وترك « توم » الفرشاة للغلام وهو يتظاهر بالإحجام ، وإن كان قلبه
قد أضعف بالسرور . . . وبينما كان الغلام الذى فرغ من تمثيل دور « القارب
ميسورى » يعمل تحت أشعة الشمس المحرقة وقد انسال العرق فوق جبهته ،
جلس الفنان المعتزل فوق برميل فى ظل قريب وراح يؤرجح ساقيه ويقضم
التفاحة ، وهو يرسم الخطوط التى تمكنه من اصطليان أرباب آخرين . ولم
تكن هناك حاجة لاستعمال المغريات ، إذ سرعان ما بدأ الغلمان يقبلون ،
وكانوا يسخرون أول الأمر ، فلا تمضى لحظات إلا وبينهمكون فى الطلاء .

وعندما تعب « بن » كان « توم » قد انتهى من مساومة « بيلى فيشر » فأخذ منه طائرة من الورق فى حالة جيدة مقابل السماح له بالطلاق . وعندما فرغ « بيلى » من الطلاء قدم « جونى ميلر » فأراً ممتاً برجله خيط رفيع للعب به ثمناً للسماح له بالاشتراك فى عملية الطلاء . . . وهلم جرا ، ساعة بعد أخرى . وعندما انتصف العصر ، انقلب « توم » من غلام فقير لا يملك شيئاً فى الصباح إلى غلام ينعم بالثراء . . . فقد حصل علاوة على ما سبق ذكره ، على اثنتى عشرة كرة صغيرة من الرخام وآلة تحدث صوتاً موسيقياً ، وقطعة من زجاجة زرقاء للتطلع من خلالها ، ومفتاح غير صالح للاستعمال وقطعة من الطباشير ، وسدادة زجاجة ، وجندى من القصدير ، وضفدعتين وست كبسولات ، وقطة صغيرة بعين واحدة فقط ، ومقبض باب من النحاس ، وطوق كلب — رغم أنه لم يكن يملك كلباً — ويد سكين ، وأربع قطع من قشر البرتقال ، ومزلاج نافذة محطم .

قضى « توم » يومه هذا فى الراحة والمتعة والكسل ، فضلاً عن زمالة الكثيرين — وعلاوة على ذلك فقد طلى السياج ثلاث مرات ولولا نفاذ الطلاء لأشهر إفلاس كل غلام فى القرية .

وقال « توم » لنفسه أن الدنيا ليست جوفاء كما تصور فى أول النهار . . . لقد اكتشف قانوناً عظيماً من قوانين النشاط الإنسانى بغير أن يدرك ذلك — وهذا القانون هو أنك إذا أردت أن تجعل رجلاً أو غلاماً يشتمى شيئاً فيكفى أن تجعل هذا الشيء صعب المنال . . . ولو كان « توم » فيلسوفاً عظيماً حكيماً ، كمؤلف هذا الكتاب ، لأدرك أن العمل يتكون من أى شيء يضطر الجسم إلى أدائه ، وأن اللعب يتكون من أى شيء لا يريد الجسم أن يعمل ، وإذن لمساعدته على هذه المعرفة على أن يفهم لماذا كانت صناعة الزهور الصناعية أو إدارة الطاحون عملاً ، على حين أن تسلق جبل « مونت بلان » تسلية فقط . . . فى إنجلترا أثرياء يروق لهم قيادة المركبات التى تجرها

الجياذ لمسافة عشرين أو ثلاثين ميلا كل يوم من أيام الصيف معتبرين ذلك امتيازاً وإن كلفهم مالا كثيراً .

ولكنهم إذا عرض عليهم أجر في مقابل ذلك ، اعتبروا هذه التسلية عملاً واستقالوا من هذا العمل !

وفكر الغلام قليلاً في التغير الهام الذي طرأ على ظروفه الدنيوية . ثم مضى إلى القيادة العامة ، ليقدم تقريره إلى العمة بولي !

الباب الثالث

مشغول بالحب والحرب !

قدم « توم » نفسه للعممة « بولى » التى كانت تجلس بجوار نافذة مفتوحة
بغرفة لطيفة فى مؤخرة المنزل ، وكانت هذه الغرفة بمثابة غرفة النوم ، وغرفة
الانتظار ، وغرفة المائدة ، وغرفة المكتبة ، جميعاً . ولقد أحدث هواء
الصيف العليل ، والهدوء المريح ، وأريج الزهور ، وطنين النحل الذى يجلب
النعاس .. أحدث كل هذا أثره فى العممة « بولى » إذ راحت تنكس رأسها
وهى تتظاهر بالحياكة .. فلم يكن معها أحد غير الهرة التى كانت مستسلمة
للنعاس فى حجرها . أما عويناتها فكانت مرفوعة فوق رأسها الأشيب
بطريقة توحى بالاطمئنان . . كان قد دار بخلدتها أن « توم » لا بد قد هجر
العمل منذ أمد طويل ، فما كادت تراه حتى أخذت تعجب لماذا وضع نفسه
تحت رحمتها مرة أخرى بهذه الطريقة التى تنطوى على بسالة .

قال : هل أستطيع أن أذهب لألعب الآن يا عمتى ؟

— ماذا تقول ؟ أهكذا سريعاً .. ؟ ما مدى العمل الذى أتممته ؟

— لقد فرغت من طلاء السياج كله يا عمتى

— « توم » .. لا تكذب على .. لأننى لا أستطيع احتمال الكذب .

— ولكنى لا أكذب يا عمتى .. لقد فرغت من طلاء السياج .

ولم تصدق العممة « بولى » ذلك . ونهضت لتستوثق من الأمر بنفسها ..
واقدمت على استعداد لأن تشعر بالارتياح والرضا لو أن عشرين فى المائة
فقط من كلام توم كان صحيحاً . ولكنها وجدت السياج كله مطلياً ، ولم يكن

قد طلى مرة واحدة ، وإنما طلى مرات ومرات من أعلاه حتى ملتقاه
بالأرض . فتملكتها دهشة شديدة كادت تعقد لسانها .

قالت : أكاد لا أصدق عيني مهما يكن من أمر ، فلا بد من
التسليم بالواقع .. إنك تستطيع أن تعمل حينما تحزم أمرك على العمل .
يا « توم » . .

وبادرت تخفف أطرافها ، فأردفت : ولكنك قلنا تحزم أمرك . .
حسناً ، يمكنك أن تذهب لتلعب ، ولكن حذار من التأخير ، وإلا
سلخت جلدك !

كان اتقان طلاء السور قد أفعم قلبها بالسور ، فلم تتمالك أن قادت
الغلام إلى (المطبخ) وانتقت له تفاحة ممتازة ، وبينما كانت تقدمها له راحت
تلقى عليه محاضرة تستهدف إصلاح أخلاقه ، عن مدى ما يشعر به الإنسان
من متعة ولذة وهو يأكل مثل هذه التفاحة بعد أن يحصل عليها بغير خطيئة ،
وعن طريق العمل الشريف . وبينما كانت العمة « بولى » تنهى محاضرتها انتهز
« توم » الفرصة و « سرق » إحدى الفطائر اللذيذة !!

وعندما كان « توم » يهجم بمغادرة المنزل ، رأى « سيدنى » يتسرع في
ارتقاء الدرج الخارجى المؤدى إلى الغرفة الخلفية بالطابق الثانى .. فالتقط
بعض قطع الوحل الجاف القريبة منه وقذف بها « سيدنى » . وقبل أن تتمكن
العمة « بولى » من التغلب على دهشتها والمبادرة إلى إنقاذ « سيدنى » كانت
سبت أو سبع قطع من الوحل قد أصابته . وفي اللحظة التالية تساق « توم »
السياج وغاب عن الأنظار . . . لقد كانت هناك « بوابة » ولكن القاعدة
العامية عند « توم » كانت تقتضى ألا يستعملها عندما يضيق الوقت عن
استعمالها . وأحس « توم » بالراحة والطمأنينة بعد أن فرغ من تصفية حسابه
مع « سيدنى » الذى وجه نظر العمة « بولى » إلى الخيط الأسود الذى حاك
به القميص المتطوع ، فأثار له بذلك المتاعب !

وانتهى «توم» من بلوغ طرف الشارع، ثم انثنى في ممر موحل يؤدي إلى مؤخرة الحظيرة التي تحتفظ فيها عتمته بأبقارها. وهكذا أصبح بمأمن من أن يلحق به أحد. وأسرع خطاه إلى ساحة القرية العامة حيث التأم شمل فرقتين «عسكريتين»، من الغلمان استعداداً للقتال بناء على موعد سابق. وكان «توم» قائد إحدى هاتين الفرقتين. أما الجيش الثاني فكان قائده «جو هاربر» (وهو صديق حميم لتوم). ولم يتنازل القائدان العظيمان بالاشتراك في القتال — فقد كان ذلك أكثر ملاءمة للغلمان الصغار فسبب — وإنما اكتفيا بالجلوس معاً، في تعاظم، وراحا يديران رحى العمليات الحربية في الميدان بأوامر يصدرانها عن طريق أركان حربهما. ولقد أحرز جيش «توم» نصراً باهراً بعد معركة رهيبية. ثم تم إحصاء القتلى، وتبادل الأسرى، ووضعت شروط المعركة القادمة وحدد اليوم الذي ستجرى فيه، وبعد ذلك اصطف الجيشان وانصرفا بينها كر «توم» عائداً إلى المنزل وحده !!

وبينما كان يمر بالمنزل الذي يقطنه «جيف تاتشر» رأى فتاة غريبة في الحديقة. ولقد كانت مخلوقة صغيرة جميلة ذات عينان زرقاوين وشعر ذهبي ينتهي بصفيرتين طويلتين، وترتدى ثوباً أنيقاً. وفي التو، سقط البطل المظفر صريعاً بغير أن يطلق طلقة واحدة، وسرعان ما اختفت فتاة اسمها «آمي لورنس» من قلبه دون أن تترك فيه أي ذكرى من ذكرياتها: . كان يظن أنه أحب «آمي» إلى درجة الجنون، وكان يعتبر عاطفته عبادة. ولقد قضى شهوراً طويلة وهو يحاول الفوز بها، ولكنها لم تعترف له بحبها إلا منذ أقل من أسبوع، وعندئذ شعر بأنه أسعد غلام في العالم كله، وليكن سعادته لم تدم لأكثر من سبعة أيام قصيرة، إذ أن فتاة أحلامه لم تلبث أن تلاشت من قلبه في لحظة كغريب عابر انتهت زيارته.

وراح يتطلع إلى هذا الملاك الجديد بعين العبادة حتى لاحظ أنها

اكتشفت أمره ، فتظاهر بأنه لم يكن يفطن إلى وجودها . وأخذ يأتي بحركات مسرحية بشكل صديقي يثير الضحك لعله يفوز بإعجابها . ومضى في حماقة هذه فترة من الوقت ، وبينما كان يقوم بإحدى حركاته الرياضية الخطرة ، تطلع من ركن عينه إلى الفتاة ، فرآها وقد استدارت على عقبها ومضت إلى المنزل . . فتقدم « توم » من السياج . واستند إليه ، وقد استبد به الحزن ، وهو يأمل أن تتلكأ الفتاة لحظة . أما هي فتوقفت قليلاً عند الدرج ، ولكنها لم تلبث أن سارت نحو الباب . . وتهدت « توم » تنهداً عميقة عند ما رآها تطأ مدخل الباب بقدمها ، ولكن وجهه لم يلبث أن تهلل حينما رآها تلتقي إليه بزهرة من فوق السياج قيل أن تختفي داخل المنزل .

وركض الغلام ولكنه لم يلبث أن توقف على مسيرة قدم أو اثنين من مكان الزهرة ، ثم ظل عينيه بيده ، وراح يتطاع على طول الطريق كأنما اكتشف شيئاً هاماً يحدث في هذا الاتجاه . وسرعان ما التقط عوداً من القش وبدأ يحاول أن يوازنه فوق أنفه ، ورأسه مائل إلى الخلف . وبينما كان يتحرك في هذا الجانب وذلك لحفظ توازن عود القش ، أخذ يقترب من الزهرة إلى أن استقر قدمه العاري فوقها ، أصابعه حولها ثم تهدى في مشيته مبتعداً ، ولم يلبث أن اختفى بهذا السكز خلف المنزل . . . ولكن هذا الاختفاء كان موقوتاً — فقد بادر إلى وضع الزهرة بداخل سترته لصق قلبه — وربما كما الأصح لصق معدته لأنه لم يكن ملماً بعلم وظائف الأعضاء إماماً كافياً .

وعاد إلى مكانه السابق بالقرب من السياج ، وظل واقفاً هناك حتى أقبل الليل وهو يؤدي حركاته البهلوانية ، ولكن الفتاة لم تظهر ثانية رغم أن « توم » كان يمني النفس بأن تكون قريبة من إحدى النوافذ حتى ترى مدى اهتمامه بها . . وأخيراً اضطر إلى العودة للمنزل ورأسه مشحونة بالأطياف .

كانت روحه المعنوية عالية أثناء تناول طعام العشاء ، حتى لقد تساءلت
عمته « ماذا دهاه ، . ومع أنها وبجته أشد التوبيخ لما فرط منه في حق «سيدنى»
الا أنه لم يحفل بذلك على الإطلاق، وحاول أن يسرق قطعة من السكر تحت بصر
عمته وسمعها . إنما اضطرها إلى أن تضربه فوق ركبتيه .

قال : إنك لا تضربين « سيدنى حينما يأخذ سكرأ يا عمتى .

— حسناً ، إن « سيدنى ، لا يضايق أحداً مثلك . ثم أنك لا يمكن
أن تكف عن سرقة السكر لولا يقظتى وشدة مراقبتى لك .

وبعد قليل ذهبت العمه « بولى ، إلى المطبخ لشأن من الشئون ، فانتهر
« سيدنى ، فرصة الحصانة التي يتمتع بها ، ومد يده فالتقط وعاء السكر ...
ولكن الوعاء انزلق من بين أصابعه وسقط . فطفح قلب « توم ، بالسرور
بل لقد غلبه السرور على أمره ولكنه استطاع أن يسيطر على لسانه ويلزم
الصمت ... قال لنفسه أنه لن ينطق بكلمة واحدة حتى عندما تعود عمته
ولإنما سيجلس صامتاً إلى أن تسأل عن أتى هذا الإثم وعندئذ يفضى إليها
بالحقيقة ليرى كيف ستصب جام غضبها على هذا الجروء المدلل . . وعادت
العمه « بولى ، أخيراً وما كادت تكتشف « السكرثة ، حتى جمدت في
مكانها وراحت تتأمل حطام وعاء السكر ، وقد تطاير في عينها شرر
الغضب . . فقال « توم ، لنفسه (إن العاصفة على وشك الهبوب) وفي
اللحظة التالية كان منبطحاً على وجهه فوق الأرض . . ورفعت العمه بولى
يدها لتهوى بها فوق رأسه مرة أخرى ولكنه صاح قائلاً :

وجمدت يد العمه « بولى ، في الهواء ، وقد تملكتهما الحيرة وعقدت
الدهشة لسانها .

وأخيراً قالت بصوت خافت : أوه ! حسناً ... أظن أنك تستحق اللطمة
التي أصابتك ، إذ لا ريب في أنك ارتكبت وزراً آخر إبان غيابى .

وبدا ضميرها يؤنبها، واكتسحتها رغبة طاغية في أن تقول له شيئاً لطيفاً،
ولكنها ما لبثت أن أحجمت خشية أن يؤدي ذلك إلى الاعتقاد بأنها اعترفت
بوقوعها في الخطأ، وهو أمر لا يتفق والنظام . ومن ثم فقد لاذت بالصمت،
وانصرفت إلى شئونها بقلب مثقل . أما «توم» ، فقد قبع في ركن الغرفة وقد
استخفه الطرب رغم ضيقه . . . كان يعلم أن عمته تتألم أشد الألم من أجله ،
ولقد جعله ذلك يشعر بفيض من السعادة ، فهو لم يكن يأبه بكلماتها الخشنة
ولا بإشاراتها التي تدل على الغضب المفتعل كلما تطلع إلى عينيها ورأى فيها تلك
ال نظرة الضارعة التي تدل على تأنيب الضمير ، وتلك الغشاوة الخفيفة من
الدموع التي كانت تظهر بين الحين والحين فتبادر العمه «بولي» إلى تخفيفها .
وراح يتخيل نفسه راقداً في الفراش وقد صرعه المرض حتى كاد يرديه ،
وعمته «بولي» منحنية فوقه وهي تتضرع إليه أن ينطق بكلمة صفح واحدة ،
ولكنه يدير وجهه إلى الجدار ويموت بغير أن ينطق بهذه الكلمة . . .
آه ترى ماذا يكون شعورها وقتئذ ؟ . وتخيل نفسه وقد حملوه جثة
هامدة إلى المنزل بعد أن غرق في النهر ، وخصلات شعره مبتلة ، وقلبه بارد
كالثلاج . . . وتصور عمته وهي تلتقي بنفسها فوق جثته ، وكيف أن الدمع
سينهمر مدراراً من عينيها، وكيف أن شفيتها ستبتهلان إلى الله أن يعيدها إليها ،
وكيف أنها سوف تعاهده على ألا تنسى إليه إطلاقاً . ولكنه سيظل ممدداً
فوق الفراش جثة هامدة مصفرة دون أن يأتي حراكاً — إنه المعذب
التعبس الذي انتهت آلامه ومتاعبه . . . وهكذا مضى الغلام يتلاعب بعواطفه
يمثل هذه التخيلات والأوهام حتى يحتفظ بذلك الشعور اللذيذ من الشهادة . . .
ولكنه سرعان ما غاب على أمره ، إذ لم تلبث هذه الخيالات المؤلمة أن
أثارت أشجانها وجعلت الدمع ينسال من عينيها ويتساقط من طرف أنفه . . .
وظل هذا حاله إلى أن أقبلت ابنة عمته «ماری» من الخارج وهي ترقص في
سيرها ، وقد امتلأت فرحاً وسروراً لعودتها إلى المنزل بعد أن قضت سبعة أيام
في زيارة بالمدينة . عند ذلك نهض «توم» من مكانه ، وغادر الغرفة لينفرد
(٣ م - توم سوير)

بآلامه وأشجانه بعد أن ضاق بما جلبته ، ماري ، معها من نجو كله بهجة
ونغم ونورا !

وراح يتسكع بعيداً عن الأماكن التي اعتاد الغلمان ارتيادها ، باحثاً عن
مواقع موحشة منعزلة تتلامح مع انقباض صدره .. ورأى كتلة خشبية
طويلة في النهر ، فجلس فوق حافتها الخارجية وراح يفكر في انساع النهر
الخفيف وتمنى لو استطاع أن يغرق بشرط ألا يشعر بذلك ، وألا يتعرض
لذلك العذاب الأليم الذي فرضته الطبيعة على كل من يلجأ إلى هذه الوسيلة
لقطع ما بينه وبين الحياة من صلة .. ولكنه تذكر الزهرة في تلك اللحظة ،
فأخرجها من جيبه .. كانت قد تهممت وذابت فزاد ذلك من سخطه وحنقه
وراح يتساءل : أتراها : أي صاحبة هذه الزهرة — سوف ترثي لحاله اذا
عرفت حقيقة أمره ؟ أتراها ستبكي : ترجو لو أنها تمتعت بحرية تتيح لها
أن تحيط عنقه بذراعها لتببه شيئاً من الراحة ؟ أم تراها ستتكص على عقبيها
مبادرة بالابتعاد عنه في برود شأن العالم الأجوف كله ؟ ولقد جعلته هذه
الصورة يستشعر ألماً ، ولكنه كان ألماً لذيذاً ، فراح يقلبها في عقله المرة تلو
المرة وهو يعرضها لمختلف الأضواء ويستعرض ما فيها من محاسن وسيئات .
وأخيراً نهض من مكانه وهو يتهد ، وسرعان ما ابتلعه الظلام .

وحوالي الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة وصل إلى الشارع الذي
تقيم في أحد منازل المعبودة المجهولة ، فتوقف لحظة أمام منزلها ، وأصاح
السمع ولكن الهدوء كان شاملاً ، بينما كان ضوء باهت ينبعث من شمعديان
وينعكس على ستار مسدل فوق نافذة بالطابق الثاني . . . وراح يتساءل :
أتراها في هذه الغرفة ؟ وتسلق السياج ، وأخذ يتحسس طريقه متسللاً بين
أشجار الحديقة إلى أن وقف أسفل تلك النافذة وقد ضم يديه الممسكتين
بالزهرة الذابلة الممشممة إلى صدره . . . هكذا سيموت — في ذلك الفضاء
البارد دون أن يظال رأسه شيء ، وبغير أن تسمح يد حانية برودة الموت من
فوق جبهته ، أو ينحني فوقه وجه جميل ليرثي لحاله عندما يدهمه الموت . .

وهكذا سوف تراه عندما تتطلع من نافذتها لتستقبل الصباح الجميل .. و ..
أواه ! أتراها ستدرف دمعة واحدة على جسده الجامد الذي انحصرت عنه
الحياة ؟ أتراها ستزفر زفرة واحدة حينما ترى هذه الحياة القصيرة وقد
اختزلت قبل الأوان .

وفتحت النافذة في تلك اللحظة ، ومزق السكون صوت إحدى الخاديات
ثم لم تلبث بقايا الشهيد القابع تحت النافذة أن غرقت في طوفان الماء الذي
انسكب من النافذة .

ووثب البطل الممذب واقفاً وهو ينتفض من البلب والغضب معاً ، وراح
يسب ويلعن ، وفي اللحظة التالية أغلقت النافذة ، وعندئذ انطلق شبح
صغير كالسهم ، فعبر الحديقة ثم تسلق السياج وغاب في الظلام ...

وقبل أن يأوى د توم ، إلى فراشه في تلك الليلة أخذ يتأمل ثيابه المبللة
على ذلك الضوء الضعيف الذي كان ينبعث من المصباح . واستيقظ
سيدنى ، وقتئذ ، ورغم أنه رأى حالة ثياب د توم ، التمسة إلا أنه لاذ
بالصمت طلباً للسلامة ، فقد رأى الغدر في نظرات د توم ، ا

وصعد د توم ، إلى الفراش دون أن يصلي كالعادة .. ولم يخف ذلك
على سيدنى أيضاً ا ا

الفصل الرابع

مسرحة في « مدرسة الأحد »

أشرقت الشمس على الدنيا الهادئة ، وتألقت أشعتها فوق القرية الوداعة تباركها .. وانتهى الجميع في تلك اللحظة من تناول طعام الإفطار ، وبدأت العمة « بولي » صلاة الصباح مع أسرتها .. وقد انتهلتها بذكر بعض آيات من الإنجيل ، وختمتها بضراعة إلى الله عز وجل أن يبارك الأسرة ويحفظها .

وعندما انتهت الصلاة ، بدأ « توم » يستذكر درسه الديني . أما « سيدني » فكان قد استوعبه قبل ذلك بأيام . وبذل « توم » قصارى جهده محاولاً أن يستوعب خمس آيات ، وكان قد اختار قطعة من « موعظة الجبل » التي ألقاها المسيح على تلاميذه ، لأنه لم يجد آيات أقصر منها . وبعد نصف ساعة ، استطاع « توم » أن يحصل على فكرة عامة مهمة عن درسه ولا شيء أكثر من ذلك ، لأن عقله كان يسبح في حقل التفكير الإنساني كله ، كما كانت يدها مشغولتين بالعبث ببعض اللعب .. وأخذت « ماري » الكتاب منه ، وطلبت أن يسمعا ما حفظ ، فحاول أن يجد طريقه وسط الضباب .. قال :

— طوبى لله . . .

قالت « ماري » :

— للمساكين . . .

— نعم . . . المساكين . . . طوبى للمساكين . . .

— بالروح . . .

— بالروح : طوبى للمساكين بالروح لأن ..

لأن لهم ..

— لأن لهم .. طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ..

طوبى للحزاني لأنهم .. لأنهم ..

— يت ..

— لأنهم ..

— يت ..

— لأنهم يت .. أوه .. لست أدري ماذا بعد ذلك

— يت ..

— أوه ا يت .. لأنهم يت .. لأنهم يت .. يحزنون .. طوبى لهم

لأنهم .. لأنهم ماذا ؟

لماذا لا تخبريني يا د ماري ، لماذا تتعمدين تعذبي ؟

— أوه يا د توم ، .. يا لك من تعس غليظ العقل .. إنني لا أعذبك ،

لأن قلبي لا يطاوعني على ذلك . يجب أن تذهب وتعيد استذكار دروسك

... واحذر أن تستسلم لليأس يا د توم ، .. ثق أنك ستستطيع حفظ

الدرس ... فإن فعلت فسأعطيك شيئاً لطيفاً للغاية ... هيا يا غلام

يوكن لطيفاً ...

— حسناً ... لكن ماذا ستعطيني يا د ماري ، ؟

— لا تفكر في ذلك الآن يا د توم ، .. إنك تعلم إنني حين أقول

أن ما سوف أعطيه لك شيء لطيف فلا بد أن يكون لطيفاً فعلاً .

— إنني واثق من ذلك يا د ماري ، .. حسناً ... سأحاول حفظ

الدرس مرة أخرى .

وحاول فعلاً أن يستذكره - ولقد جعله حب الاستطلاع وتلفه على الجائزة المرتقبة يستغرق تماماً في الدرس ، حتى استطاع أن يستذكره . كأجود ما يكون الاستذكار . وعندئذ أعطته « ماري » مديّة جديدة لطيفة ثمنها اثني عشر سنتاً ونصف سنت . ولقد جعله هذا النصر يهتز طرباً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . صحيح أن المديّة لم تكن تصلح لقطع أي شيء ولكنها كانت ثمينة ، وفاخرة للغاية وحاول « توم » أن يخدش الصوان (الدولاب) بها ، وكان يتهماً للعبث بأحد الأدرج عندما استدعى لارتداء ثيابه توطئة للذهاب إلى مدرسة الأحد .

وقدمت له « ماري » وعاء مملوفاً بالماء وقطعة من الصابون . فحملها إلى خارج الباب ووضع الحوض فوق مقعد خشبي هناك ، ثم وضع قطعة الصابون في الماء ، وشمر عن ساعديه . وبعدئذ سكب الماء على الأرض بلطف . ثم عاد إلى المطبخ ، وبدأ يحفف وجهه بقوة في المنشفة المعلقة خلف الباب ولكن « ماري » انتزعت المنشفة منه قائلة :

- يا للعار ! ألا تنجل من نفسك يا « توم » ؟ يجب ألا تكون شريراً هكذا ، فإن الماء لن يؤذيك .

وارتبك « توم » قليلاً وأعيد ملء الحوض ، وفي هذه المرة وقف « توم » يتأمله بعض الوقت وهو يحاول أن يستجمع أطراف شجاعته . ثم ملأ رقبته بالهواء وبدأ وعندما عاد إلى المطبخ كان مغمض العينين - وراح يتحسس موضع المنشفة ، بينما كانت قطرات الماء وفقايق الصابون تتساقط من وجهه وعندما انتهى من استعمال المنشفة لم يكن وجهه نظيفاً تماماً ، ذلك لأن الجزء النظيف من وجهه كان يعلو ذقنه وفكّيه ، فبدأ أشبه بالقناع وعندما فرغت « ماري » من العناية بأمره ، كان قد أصبح مخلوقاً آخر ، فقد صفت شعره بشكل جميل وشذبت خصلاته القصيرة بشكل أكسبه منظراً عاماً لطيفاً (وكان « توم » يعبت

بتجاعيد شعره سراً ليتخلص منها لأنه كان يعتبرها مظهرأ من مظاهر الأنوثة ، ومن ثم كانت التجاعيد التي تحدثها ماري في شعره تملأ حياته مرارة وأسى . وعندئذ أخرجت « ماري » ملابس « توم » التي ظلم يرتديها أيام الأحاد فقط خلال العامين الأخيرين . - والتي كان يطلق عليها ببساطة « الثياب الخاصة » - ومن ذلك نستطيع أن ندرك ما هي مجموعة الثياب التي كان الغلام يملكها . وبعد أن ارتدى « توم » ثيابه أصلحت « ماري » من شأنه ، وأغلقت سترته إلى أسفل ذقنه ، وقلبت ياقة قميصه فوق ياقة سترته ، ثم وضعت قمعته المصنوعة من القش فوق رأسه . ومع أنه كان يبدو أنيقاً ، إلا أنه كان يشعر بأشد الضيق ، لأن هذه الثياب « الخاصة » كانت تعوقه عن الحركة . وكان يتمنى أن تنسى « ماري » حذاءه ، ولكن أمه لم يلبث أن تبدد ، إذ سرعان ما أحضرته الفتاة من الصوان ، فثارت نائرتة وقال لها إنهم يرغمونه دائماً على إتيان ما لا يريد . فقالت له « ماري » محاولة إقناعه :

- أرجوك يا « توم » . . . كن ولدا لطيفاً .

واضطر الغلام إلى ارتداء الحذاء على مضض . . . وبعد قليل كانت « ماري » نفسها قد ارتدت ثيابها . وخرج الأطفال الثلاثة من المنزل في طريقهم إلى مدرسة الأحد - وهي مكان كان « توم » يكرهه من كل قلبه . أما سيدني وماري فكانا يحبانه .

كانت ساعات الدراسة تبدأ من التاسعة حتى العاشرة والنصف ، ثم تقام الصلاة في الكنيسة بعد ذلك . وكان طفلان من مجموعة أطفال مدرسة الأحد يشتركان اختياريًا في خدمة (القداس) ، كما كان باقي الأطفال يبقون أيضاً أثناء القداس - لأسباب أخرى . وكانت مقاعد الكنيسة ذات الظهر المرتفع تسع لثلاثمائة شخص من المصابين . أما بناء الكنيسة نفسه ، فكان صغيراً ولكنه نظيف . . . وعندما وصل « توم » وزميلاه إلى الكنيسة ، تقمقر الغلام خطوة ليتحدث الى زميل له :

— أخبرني يا « بيلي » . . هل لديك بطاقة صفراء ؟

— نعم .

— ماذا تريد مقابلها ؟

— ما الذى تعرضه ؟

— شخص سنارة .

— أرني إياه .

فعرضه « توم » عليه . . ووافق « بيلي » على إبرام الصفقة . . وأتبع « توم » هذه الصفقة بأخرى حصل منها على بطاقتين حمراوين ثم بثالثة مقابل بطاقتين زرقاوين . . . وكان بتصييد الغلمان بمجرد وصولهم الى الكنيسة فيشتري منهم البطاقات مختلفة الألوان بما كان لديه من ثروة جمعها إبان طلاء السياج . واستغرقت هذه العملية أكثر من ربع ساعة . فلما فرغ منها انضم الى مجموعة من الأولاد والبنات كانت تدخل الى الكنيسة فى تلك اللحظة ، وتقدم من مقعد ، وبدأ يتشاجر مع أول غلام صادفه فتدخل المشرف ، وكان كهلاً وقوراً ، حتى فض المشاجرة ، ولكنه لم يكذب يوليه ظهره حتى جذب « توم » شعر الغلام الذى يجلس أمامه ، فلما استدار الغلام اليه ألقاه منهما كما فى المطالعة ، وما كاد هذا الغلام ينصرف عنه ، حتى غرس « توم » دبوساً رفيعاً فى ظهر غلام آخر فتأفف هذا الغلام بصوت مرتفع ، فاستدار المدرس له وزجره بقوة ، فقد كان فصل « توم » معروفاً بالشغب . وعندما حان موعد « التسميع » تبين أن الجميع لم يستذكروا الآيات كما ينبغي ، مما اضطر المدرس الى معاونتهم كي يتذكروا بعض الفقرات . ومع ذلك فقد وزع المدرس على كل منهم ما يستحقه من بطاقات زرقاء بواقع بطاقة عن كل آيتين . . . وكانت كل عشر بطاقات زرق تقوّم ببطاقة واحدة حمراء ، وكل عشر بطاقات حمراء ببطاقة صفراء . . وقد جرت العادة أن يعطى المدرس لمن

يحصل على عشر بطاقات أصفر إنجيلا أنيقا (يساوى أربعين سنتاً في تلك الأيام) . . . بيد أنه كان من النادر جداً أن يظهر غلام أو فتاة بهذه الجائزة لأن ذلك كان يستلزم حفظ ألفي آية من الإنجيل . . . ورغم ذلك فقد استطاعت ماري ، أن تحصل على إنجيلين منها — وكان ذلك نتيجة مجهود شاق بذلته خلال عامين متتاليين — كما حصل غلام من أبوين ألمانيين على أربعة أو خمسة إنجيل . فقد استطاع أن يردد ثلاث آلاف آية ذات مرة بدون توقف ، ولكن الجهد العقلي الذي بذله يومذاك كان عنيفاً للغاية ، ومن ثم فقد أصيب الغلام بما يشبه الخبل منذ ذلك الحين — وهو حادث مؤسف جداً بالنسبة للمدرسة ، فقد كان المشرف ينتهز فرص الاجتماعات الهامة ويستدعى هذا الغلام ويطلب منه أن يظهر مهارته ، ولذلك كان باقي الأطفال يخشون هذه التجربة الشاقة كما كان يسميها ، . . . وعلى أثر وقوع هذا الحادث لم يستطع غير الأولاد الكبار أن يحصلوا على البطاقات الملونة التي تكفي للحصول على نسخة من الإنجيل الأنيق ، ومن ثم كان تقديم إحدى هذه الجوائز من المناسبات الهامة نادرة الوقوع ، فإذا ما حصل تلميذ على إنجيل من هذه الإنجيل اعتبر كأنه نال شرفاً عظيماً ، فيكرمه المدرس ويحسده الزملاء طوال اليوم . . . ولم يكن يتوهم ليفكر يوماً في بذل ذلك المجهود المضني الذي يمكنه من الظفر بهذا الشرف العظيم ، بيد أنه كان يشعر في الأيام الأخيرة برغبة شديدة في أن يظهر بالمجد والتصفيق اللذين يحظى بهما كل فائز في هذا المضمير .

وفي الوقت المحدد وقف المشرف أمام (المذبح) وهو يحمل كتاباً دينياً مغلقاً في يده ، وقد وضع سبابته بين صفحتين من صفحاته ، وطالب الحاضرين بإصاخة السمع ، إذ أن من العادات المتبعة أن يحمل المشرف في مدرسة الأحد كتاباً دينياً في يده حينما يلقى حديثه المتعاد ، كما هو الحال حينما يحمل المنغني نوتة موسيقية في يده حينما يظهر على المسرح ليردد أغنية بمفرده . . . أما منشأ هذه العادة وسرها ، فأمر لا يزال غامضاً حتى الآن ، لأن

المشرف والمغنى معاً لا يلجأ إلى الكتاب الدينى أو الفوتة الموسيقية عندما يؤديان واجبهما . . وكان هذا المشرف مخلوقاً نحيف القامة ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ، ذهبى الشعر ، يرتدى ياقة صلبة تكاد حاقتها العلبا أن تصل إلى أذنيه ، ولها طرفان مديبان مثنيان يوشكان على بلوغ ركنى فه . وكانت هذه الياقة تجبر المشرف على النظر أمامه دائماً ، وتضطره إلى أن يدور بجسمه كله كما أراد التطلع فى أى اتجاه آخر . أما ربطة عنقه فكانت عريضة جداً لا يزيد طولها عن طول ورقة النقد الكبيرة . وكان مقدم حذائه مقوساً إلى أعلى حسبما كان شائعاً فى تلك الأيام . ولقد كان شباب هذا الوقت يضطرون إلى قضاء الساعات الطويلة وهم يقوسون أصابع أقدامهم داخل الجدار العلوى للحذاء لكي يتقوس ويجارى (الموضنة) وباختصار كان مستر د واترز ، المشرف رجلاً مهيب الطلعة ، مخلصاً ، أميناً . ومن ثم كان لا يفرط أو يتهاون فى الشعائر الدينية ، ولذلك أحبه الجميع ووثقوا به .

وبدأ الرجل مواعظته . . فقال :

« أيها الأطفال ، أريد منكم الآن أن تصغوا إلى إصغاء تاماً دقيقة أو دقيقتين ... نعم .. هكذا . . تلك هى الطريقة التى يجب أن يتبعها الأولاد الطيبون . . ولستكنى أرى فتاة صغيرة تنطلع إلى الخارج من النافذة - كأنى بها تظن أنى موجود بالخارج - وربما تتوهم أنى جالس فوق إحدى الأشجار التى درسى على صغار الطيور (وهنا سرت بين الجالسين مهمة الاستحسان) . . أحب أن أقول لكم أنى أشعر بأشد الارتياح حينما أرى هذا العدد الكبير من الوجوه النظرة النظيفة مجتمعة فى مكان كهذا لتعلم كيف تفعل الصواب والخير ، . . وهلم جرا . . فليس من الضرورى أن نمضى فى ترديد بقية المواعظة ، فقد كانت ذات طابع واحد لا يتغير ، ومن ثم فإنها مألوفة لنا جميعاً . بيد أن الاضطراب ساد الثلث الأخير من المواعظة نظراً لتجدد العراك والشحناء بين جماعة معينة من الأولاد الأشرار . كذلك

لما شعر به آخرون من ضيق وملل بسبب طول الموعظة . وسرعان ما تفشى هذا التبرم حتى شمل الأولاد الهادين المطيعين أمثال « سيدنى » و « مارى » . ولكن هذه الضوضاء لم تلبث أن تلاشت تماماً حينما أخذ صوت مستر « ولترز » ينحفت لإيداناً بانتهاء الموعظة . وعندئذ ساد الجميع صمت التعبير عن الشكر والعرفان بالجميل !

ولقد سرى الهمس بين الجالسين بسبب حادث يعتبر من الحوادث النادرة في مدارس الأحد ، ألا وهو ظهور عدد من كبار الزائرين أمثال المحامى « ناتشن » الذى كان بصحبة كهل هزيل ، ورجل آخر مهيب الطلعة فى منتصف العمر ، وسيدة وقورة لم يكن هناك شك فى أنها زوجته الرجل الأخير . وكانت السيدة تصطحب معها فتاة صغيرة . ولقد كان « توم » يشعر بالقلق والضيق والتأمل ، فضلاً عن تأنيب الضمير . فهو لم يعتد على مواجهة عيني « أمى لورنس » فتاته الأولى وهى تنظر إليه نظرات حب وهيام . ولكنه ما كاد يرى هذه القادمة الصغيرة حتى امتلأت روحه بالسعادة . وفى اللحظة التالية بدأ مسرحيته المعتادة بكل قواه - كان يلبس جاريه بكوعه ، ويجذب شعر من أمامه ، ويأتى حركات مضحكة بأعضائه ووجهه - وصفورة القول ، انه استخدم كل فن يمكنه من أن يسلب قلب الفتاة ويحوز استحسانها . . ولا عجب ، فقد كانت ملاكة الحارس الذى أهداه تلك الزهرة الذابلة ، ثم لم يلبث أن أذله حينما رآه يلتحف السماء فى حديقة منزله !

وقد أفسح المشرف للزائرين مكان الصدارة فى القاعة ، وما أن انتهى مستر « ولترز » من الوعظ ، حتى بادر فقدم الضيوف للتلاميذ . . . كان الرجل متوسط العمر ، مهيب الطلعة ، شخصية ممتازة ، ولا عجب فقد كان قاضى المقاطعة - ولا شك فى أن الأطفال لم يسبق لهم أن حظوا بشرف لقاء مثل هذا الرجل العظيم ، ولهذا كانوا يعجبون ويتساءلون عما إذا كان

هذا الرجل بشرا مثلهم ا ولقد أحسوا بالرغبة في أن يسمعه وهو يزأركما يفعل في المحكمة ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه ، خائفين خشية أن يفعل ذلك . ولقد كانوا معجبين به ، فهو قادم من مدينة تبعد اثني عشر ميلا عن قريتهم — ومن ثم فلا بد — أنه قام برحلات كثيرة رأى الدنيا خلالها ولقد زاد من هذه الرهبة التي أثارها تلك الأفكار ذلك السكون التام الذي شمل القاعة ، فراحت جميع العيون تحرق في هذا الزائر العظيم القاضى « ناتشر » شقيق محاميهم . . . وفي التو تقدم « جيف ناتشر » نحو الرجل العظيم ليصافحه ، بينما الجميع يتطلعون اليه بعيون ترتسم فيها نظرات الحسد ولو أنه سمع الهمس التالي لرقص من فرط الطرب :

أنظر اليه يا جيم إنه يتقدم منه . . . أنظر إنه سيصافحه . . . ها هو يصافحه فعلا يا إلهي ! ألا تود أن تكون جيف ؟ . . .

وبدأ مستر « ولترز » يؤدي عمله ، فراح يصدر الأوامر هنا وهناك ، ويصدر الأحكام أيضاً « ويوجه مساعديه في كل اتجاه . . . أما أمين المكتبة فقد بادر بإحضار كمية ضخمة من الكتب والمراجع . . . بينما تفرقت المدرسات الشابات بين الأطفال الذين أصابتهن لحكات كثيرة فيما بعد ، وكن يرفعن أصابعهن الى شفاههن مخدرات الأطفال الأشرار من الإقدام على ما يسىء الى جلال هذه المناسبة العظيمة . . . أما المدرسون فقد سارعوا الى أداء واجبهم ، فسكانوا يزجرون المسيئين بلطف لا يخلو من قدر من العنف ويطالبون الجميع باحترام النظام — وقد خلق أكثر المدرسين والمدرسات لأنفسهم عملا في هذه اللحظة ، إما في المكتبة أو عند المنبج . . . كل ذلك والقاضى يتطلع الى الجميع في عظمة وخيلاء ، وقد انفرجت شفاهه عن ابتسامة خفيفة تشف عن الرضاء والارتياح لما قوبل به من تعجيل وتعميم

لم يكن ينقص مستر « ولترز » غير شيء واحد لتمام سعادته ، ذلك

أن اتاح له فرصة تقديم الإنجيل الى أحد الأطفال بعد أن يعرض ما بلغه من
إعجاز ، ولقد كان أطفال كثيرون يملكون بطاقات صفر ، ولكن أحداً منهم
لم يكن يملك العدد الكافي الذي يتيح له الحصول على نسخة من الإنجيل -
واتصل مستر « ولترز » سرّاً بجميع الصبيان النابهين واستفسر منهم عما معهم
من بطاقات . . . ولقد كان مستر « ولترز » على استعداد لأن يدفع أى ثمن
في هذه اللحظة لو استطاع أن يسترد الغلام الألماني وهو متمتع بكامل
قواه العقلية .

وفي تلك اللحظة ، لحظة اليأس المرير ، تقدم « توم سوير » وهو يحمل
تسع بطاقات صفر ومثلها حمر وعشر بطاقات زرق ، وطالب بالحصول على
نسخة الإنجيل . . . كان ذلك بمثابة صاعقة تنقض في سماء صافية ، فإن مستر
« ولترز » لم يكن يتوقع إطلاقاً أن يتحقق هذا النصر لصبي مثل « توم سوير » ،
ولو بعد عشر سنوات ! ولم يكن في استطاعته أن يروغ أو يرفض - فقد
كان « توم » يملك بطاقات مخنومة لا يمكن الطعن فيها . ومن ثم فقد رفع
« توم » إلى المنصة التي جاس القاضي ومن معه فوقها ، وأعلن النبأ العظيم
من القيادة كانت مفاجأة الجيل المذهلة ، ولقد أحدثت تأثيراً عميقاً رفع
البطل الجديد إلى مرتبة العظمة ، وهكذا لم تصبح المدرسة أعجوبة واحدة
مثلة في شخص القاضي الزائر ، وإنما أصبحت أمامها أعجوبتان هما
القاضي و « توم سوير » ، ولقد أكل الحسد قلب الغلبان - أما أكثرهم
حقداً وغيظاً فكانوا أولئك الذين أدركوا ، بعد فوات الأوان ، أنهم
سأهوا في تحقيق هذا المجد للصبي « توم » ، بقبولهم بيع ما كان لديهم من
بطاقات ملونة له ، مقابل ما كان يقدمه لهم من تفاهات لا قيمة لها ، جمعها
من زملائهم الذين سمح لهم بالمساهمة في طلاء السياج . . . ولكم احتقر هؤلاء
الغلبان أنفسهم لأنهم سمحوا لهذه الحية الرقطاء - « توم » - بأن تخدعهم
وتسخر منهم !

وقدمت الجائزة لالعبي «توم» ، وسط مظاهر التكريم ، ولكن مستر هولترز ، المشرف لم يكن متحمسا لتكريم «توم» ، فقد كان الرجل المسكين يعتقد بالعزيزة أن في الأمر سراً وإن أغلق عليه فهم هذا السر في تلك اللحظة لأنه كان واثقاً من أن غلاماً مثل «توم» ، لا يمكن أن يستوعب ألفي آية من الإنجيل . . . فإن عشر آيات فقط كانت تكفي لإجهاده واستنزاف قواه الفكرية .

وغمرت السعادة والفخر «أمي لورنس» ، وحاولت أن تجتذب أنظار «توم» ، إلى وجهها - ولكنه لم يفكر في التطلع إليها . فعجبت الفتاة بذلك ، ثم لم تلبث أن تملكها القلق ، وسرعان ما تحول هذا القلق إلى رغبة ظلت تساورها وتنجس عنائها تساورها مرة أخرى . . . واستمرت تراقب «توم» ، خلسة ، وقد كشف لها نظرة واحدة عن أشياء كثيرة . . . وفي التو تحطم أملها ونهشت الغيرة قلبها ، واستبدت بها الغضب ، فبدأت العبرات تنساق من عينيها ، وتملكها الحقد على الجميع ، وكانت أكثر حقداً على «توم» ، (أو هكذا ظنّت) .

وقدّم «توم» للقاضي ، وأحس الغلام بأن لسانه قد ألجم ، وأن أنفاسه تكاد تتوقف ، وراح قلبه يطرق بعنف بالغ بين جنبيه ، وكان ذلك مرجعه إلى الرهبة التي أحس بها من لقاء هذا الرجل العظيم وبخاصة عندما تبين له أن هذا الرجل هو والد معبودته . . لقد كان على استعداد لأن يجثو عند قدمي هذه المعبودة ، لو أن الوقت كان ليلاً ، ولكنه كان نهاراً . . وفي تلك اللحظة وضع القاضي يده فوق رأس «توم» ، ووصفه بأنه رجل صغير طائيف ، ثم سأله عن اسمه ، فتلعثم الغلام ، وشق ثم قال بصعوبة :

- «توم» ،

- أوه . كلا ، ليس اسمك «توم» ، وإنما . . .

- «توماس» ،

— آه ! هو ذلك . . هذا حسن . . ولكنى أظن أن لك اسما آخر . .
فهل قلته لى ؟

فقال « ولترز ، بحث « توم ، على الكلام :

— قل للسيد ما هو اسمك الآخر يا « توم ، ، واختم كلامك بلفظ
« سيدي ، . . يجب ألا تتجاهل آداب السلوك يا فتى

— « توماس سوير ، يا سيدي

— هذا حسن أيها الفتى اللطيف . . إن ألفى آية عدد كبير جدا . . .
نعم . كبير جداً جداً . ومع ذلك فإنك لن تشعر بأى أسف على المجهود
الكبير الذى بذلته فى استيعابها ، لأن المعرفة أتمن شىء فى هذا العالم . . إنها
هى التى تصوغ عظام الرجال وأخيائهم . . وأنت يا « توماس ، ، ستصبح
فى أحد الأيام رجلاً عظيماً خبيراً ، ويومذاك سوف تتطلع إلى الوراء
وتقول « أن ذلك كله راجع إلى المزايا العظيمة التى أكسبتنى إياها مدرسة
الأحد فى أيام صباى — أن مرجعه إلى المدرسين الأعزاء الذين علمونى
كيف أحب العلم ، وشجعونى ، وعنوا بأمرى ، وقدموا لى نسخة جميلة من
الإنجيل لأحتفظ بها ولتكون معى دائماً . . إن مرجعه إلى التنشئة
الصالحة ! ، . . هذا ما سوف تقوله يا « توماس ، — ولكنك لن تحصل
على آية نفود مقابل استيعابك لألفى الآية هذه — كلا بالطبع — إننى
أعرف أنك لن تقبل ذلك . . والآن ، لا أظنك تبخل على وعلى هذه
السيدة بسماع شىء مما تعلمته — كلا . . إننى أعرف أنك لن تبخل علينا
بذلك ، إذ أننا نفخر بالغبان الصغار الذين يتعلمون . . والآن ، لا شك
فى إنك تعرف أسماء تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر . . فهلا ذكرت لنا
اسمى أول تلميذين منها ؟

كان « توم ، يعبت بأحد أزرار سترته ، وقد بدا عليه الارتباك فى
ذلك الحين ، ثم تملكه القلق وغض من بصره . . وعندئذ غاص قلب

مستر « ولترز » بين جنبيه ، وقال لنفسه « ليس من الممكن أن يفلح الغلام في الإجابة على سؤال بسيط كهذا . . . رباه ! لماذا سأله القاضي ؟ » ومع ذلك فقد أدرك أنه يجب عليه أن يتكلم . . . قال :

« . . . أجب على سؤال السيد يا « توماس » . . . لا تخف .

وبقى لسان « توم » معطلا عن العمل .

قالت السيدة : لا شك أنك سوف تكلمني أنا . . . لقد كان اسمي أول تلميذين هما . . .

— داود وجوليات .

وأحسب أنه يحسن بنا أن نسدل الستار هنا وألا نتعرض لبقية المنظر .

الفصل الخامس

الخنفساء الفريسة

حوالى الساعة العاشرة والنصف ، بدأ ناقوس الكنيسة الصغيرة يدق ، وسرعان ما تجمع الجمهور لحضور صلاة الصباح . . . ووزع أطفال مدرسة الأحد أنفسهم فى أرجاء المكان ، وشغلوا المقاعد عالية الظهر مع آبائهم حتى يكونوا تحت رقابتهم . . وأقبلت العمدة « بولى » ، ومعها « توم » و « سيدنى » ، و « مارى » ، وجلسوا معاً ، وكان « توم » يجلس بجوار الممر ليكون بعيداً عن مارى قدر المستطاع ، عن النافذة وعن مناظر الصيف المغربية خارج الكنيسة . . وامتلأت القاعة بالمصلين . . وكان بينهم وكيل مكتب البريد وهو كهل أصبح فى تلك الأيام معدماً بعد أن شهد كثيراً من أيام المجد . . . والعمدة وزوجته — فقد كان للقرية عمدة ، وهو منصب من المناصب التى لم تكن الضرورة تدعو لوجودها ، كذا الأرملة « دو جلاس » وهى امرأة جميلة أنيقة ، فى الأربعين من عمرها عرفت بالسخاء ، وطيبة القلب ، وسعة العيش ، وكان قصرها المشيد فوق التل هو القصر الوحيد فى المدينة ، وكان يعتبر أكبر دار للضيافة ، وأكثرها كرمًا من حيث الولايم الكبرى التى كانت تقام فيه ، والنى كانت (سانت بيترسبورج) كلها تقبأهى بها . . . وكان من بين الحاضرين أيضاً « الماجور وارد » وزوجته ، والمحامى « ريفرسون » وهو رجل بارز جاء إلى المدينة ليقيم فيها بصفة دائمة . . وأقبلت فى أثره أجمال فناة فى القرية يتبعها صف من الفتيات اللقاتنات أنيقات الثياب وتبعهن الكتبة الشبان الذين جاءوا من المدينة معاً ، ووقفوا يتأملون الفتيات بإعجاب . . وأخيراً أقبل الغلام النموذجى « ويلي

مافرسون ، وهو يبدى أشد العناية بأمه كما لو كانت دمية مصنوعة من الزجاج ..
فقد كان من عاداته أن يصحب أمه إلى الكنييسة ، ولهذا كان موضع فخر
جميع الأمهات . ولكنه كان أيضاً مكروهاً من جميع الصبيان لأنه كان غلاماً
مثالياً ، ولأنه كان يبرزهم جميعاً لا من الناحية الأخلاقية فحسب وإنما أيضاً
من ناحية الهندام . . . كان منديله الأبيض يتدلى من جيبه . . . ولم يكن «توم»
يملك منديلاً ، ولهذا كان يعتبر الغلمان الذين يملكون المناديل
«متخطفسين» !

وعندما التأم عقد المصلين ، دق الناقوس مرة أخرى لينبه المتسكعين
والمتأخرين ، ثم لم يلبث أن ساد القاعدة سكون شامل لم يكن يعكسه غير
همس (الشمامسة) فقد كان ذلك حالهم دائماً حتى إبان الصلاة . .
وبدا المنشد يردد أناشيده بصوت رخيم ونغمة كانت تستهوي جميع سكان
هذا الجزء من الريف ، وقد بدأ صوته هادئاً لطيفاً ، ثم لم يلبث أن ارتفع
حتى بلغ نقطة معينة ، ثم لم يلبث أن خفت ثانية وهو يردد :

هل أحمل إلى المجد فوق فراش من الأزهار
بينما يرهق الآخرون أنفسهم من أجل الفوز والفخار ؟

كان يعتبر منشداً مثالياً . . . ولهذا كان يستدعى دائماً إلى الاجتماعات
الكنيسية ليردد « الترانيل » ، حتى إذا ما فرغ من الإنشاد رفعت السيدات
أيديهن وتركنها تسقط في حجورهن ، أو حجبن أعينهن بأيديهن ، أو هزرن
رؤوسهن كأنما يقلن : « إن الكلمات لا تستطيع أن تصف هذا الإعجاز . .
إن صوته رخيم . ساحر لا يتلاءم مع هذه الدنيا الفانية » ،

وبعد أن فرغ المنشد من الترانيل ، تحول الكاهن مستر « سبراج » إلى
قائمة أسماء الشركات ، وأخذ يقرأ قائمة بمواعيد الاجتماعات ، وأسماء الشركات ، حتى
خيل للحاضرين أن هذه القائمة لن تنتهي إلا في يوم الحشر . . . ومن عجب

أن هذه العادة الغربية ما زالت موجودة في أمريكا في هذا العصر الذي كثرت فيه الصحف . إذ يبدو أنه كلما قلت مبررات إحدى العادات التقليدية ، أصبح من الصعب التخلص منها !

وبدأ الكاهن يصلي ، وكانت صلواته حارة صادرة من القلب . ثم لم يلبث أن انتقل إلى التفصيلات . فأخذ يبتهل من أجل الكنيسة وأبنائها ، ومن أجل كنائس القرية الأخرى ، ومن أجل القرية نفسها ، ثم من أجل المقاطعة ، فمن أجل الولاية ، ومن أجل موظفيها ، فمن أجل الولايات المتحدة كلها ، ومن أجل كنائس الولايات المتحدة ، ومن أجل الكونغرس ، ومن أجل رئيس الولايات المتحدة ، ومن أجل ضباط الحكومة ، فمن أجل البحارة المساكين الذين يكافحون في البحار العاتية ، ومن أجل ملايين المضطهدين الذين ينوون ويرزحون تحت حكم الملوك الأوربيين الطغاة والمستبدين في الشرق ، كما أخذ يبتهل إلى أن يهدي أولئك الذين وهبهم النور والرزق ولكنهم لا يبصرون ولا يسمعون ، ومن أجل الوثنيين الذين يعيشون في الجزر السحيقة . . . ثم ختم ابتهالاته ضارعاً إلى الله أن تلقى كلماته قبولا من المستمعين وأن تكون بمثابة الحب ، يبدو في الأرض الطيبة لينتج في الوقت الملائم ثمراً كثيرة من الخير . آمين !

وجلس المصلون . . . أما الغلام الذي تدور حوله هذه القصة فلم يشعر بأية متعة من هذه وإن احتملها — وكان احتمالها على مضض . . . لقد بقي ساكناً طوال الوقت ، ولكنه كان عازفاً عن الإصغاء إلى التفصيلات ، ولا عجب فقد ألم بها منذ أمد طويل ، إلا أنه كان لا يلبث أن يرهف السمع كلما نطق الكاهن بجديد ، إذ كان يتمتع بأذن حساسة تلتقط كل جديد ولو أن طبيعته كانت تنفر منه لأنه كان يعتبر كل إضافة عملاً لا ينطوي على العدالة . . . وفي منتصف الصلاة حطت ذبابة على ظهر المقعد المواجه له ، وراحت تعذب روحه حينها (حكى) ذراعها معاً في هدوء ، ثم لم تلبث أن

أحاطت رأسها بذراعيها وأخذت تدلكه بقوة ، حتى لقد خيل لتوم أن رأسها يكاد ينفصل عن جسدها . وبعدئذ أخذت تدلك جناحيها برجليها الخلفيتين .. وهكذا مضت في عملية زينتها بهدوء عجيب ، كما لو كانت مطمئنة تماماً إلى أنها آمنة من كل سوء .. والحق أنها كانت آمنة ، إذ رغم ما كان « توم » يشعر به من رغبة عارمة في الفتك بها ، إلا أنه لم يجرؤ على ذلك . — كان يؤمن بأن روحه سوف تزهر في الحال إذا أتى مثل هذا الإثم والصلاة قائمة . ومن ثم فما أن اختتم السكان صلاته حتى ثنى « توم » راحة يده ، وراح يحركها بحذر شديد إلى الأمام ، وفي اللحظة التي نطق السكان فيها بكلمة « آمين » سقطت الذبابة أسيرة حرب ! ولكن العمدة « بولي » فطنت إلى ما حدث وأرغمته على إطلاق سراح الذبابة .

وبدأ الواعظ يقرأ بعض آيات من الكتاب المقدس ، ثم فسرها بصوت عميق ممل ، حتى لقد أحس كثير من الحاضرين بالنعاس ، .. أما « توم » فقد راح يعد الصفحات التي قرأها الواعظ إبان هذه المرحلة من الصلاة — وكان في استطاعته دائماً أن يحدد عدد الصفحات التي يقرأها الواعظ أثناء صلاة كل يوم أحد ولكنه لم يكن يستطيع أن يتذكر شيئاً من محتويات هذه الصفحات ! بيد أنه مع ذلك شعر بشيء من الاهتمام بما قاله الواعظ في ذلك اليوم لأنه ، أي الواعظ ، استطاع أن يرسم صورة رائعة للثام شمل جميع الأعداء في هذا العالم في يوم القيامة ، عندما يجلس الأسد والحمل معاً ، ثم يأتي طفل صغير ليقودهما !! ... وعلى الرغم من أن الغلام لم يدرك ما في هذا القول من معنى عميق ، إلا أن المعنى الواضح للبدء من ناحية تألف الشعوب لم يغب عنه ، فتهال وجبهه وقال لنفسه أنه يتمنى أن يكون ذلك الطفل !

وعاد غلامنا يستشعر الضيق ثانية حينما استأنف الواعظ حديثه الجاف .. وفي تلك اللحظة رأى « توم » خنفساء سوداء كبيرة ، وكان أول ما فعلته هذه

الخنفساء أن مرقت من فوق أصبعه فاقشعر جسمه ، وفي اللحظة التالية كانت الخنفساء تتخبط في ممشي الكنيسة ، بينما وضع «توم» أصبعه في فمه . وظلت الخنفساء ملقاة على الأرض وقد انقلبت على ظهرها وهي تحاول عبثاً أن تستعيد توازنها . وراح «توم» يتأملها بغیظ ، فقد كان يريد القضاء عليها ولكنها كانت ، بعيدة عنه . ولقد وجد كثير من المصلين الذين ضاقوا ذرعاً بلجاجة الواعظ وسيلة للتسلية في هذه الخنفساء ، فراحوا يتأملونها بدورهم ، وفي تلك اللحظة أقبل كلب ضال متسكع يبدو عليه الحزن ، ويعانى من الكسل بسبب هدوء الصيف وقبضه ، ومن الإعياء بسبب مضى الحياة على وتيرة واحدة . . لقد كان يهفو إلى التغيير ، ومن ثم فما كادت عيناه تقعان على الحشرة حتى رفع ذيله وأخذ يحركه ، . ومضى يتأمل الخنفساء ، ثم لم يلبث أن دار حولها ، وشمها من بعد ، ثم دار حولها مرة ثانية ، وكأنما قد استجمع شجاعته في تلك الفترة إذ أنه اقترب منها ، وشمها مرة أخرى ، ثم رفع شفته ، وهجم عليها ولكنه أخطأها ، فقام بمحاولة ثانية فثالثة ، أو بدت يستمتع بهذا اللون من التسلية ، وسرعان ما ضم فكبه ، على الخنفساء ، ومضى في تجاربه ، بيد أنه لم يلبث أن ضاق بها ذرعاً في النهاية . فانصرف عنها ، وكاد ينساها . . وأخذ رأسه يهتز ، كأنما استولى النعاس عليه ، و بعد لحظات بدأ ذقنه يتراخى ويهبط رويداً رويداً حتى لمس العدو الذى قبض على طرفه ، وفي التوتُّ نبح الكلب بقوة ، وحرك رأسه بعنف شديد ، وسقطت الخنفساء على مبعدة ياردتين ، وكان سقوطها على ظهرها هذه المرة أيضاً . وابتسم كل من رآوا هذا المنظر ، واختبأ عدد غير قليل من وجوه المصلين خلف المناذيل والمرابح . أما «توم» فقد أحس بسعادة غامرة وبدأ الكلب كالأحمق ، ومن المحتمل أنه أحسّ بأنه كذلك ، ولكنه كان يستشعر القيظ أيضاً ، كما كان يتحرق إلى الانتقام . ولهذا فقد اقترب من الخنفساء وبدأ هجومه عليها . . وكان يثب نحوها من كل جانب وهو يقترب منها يجلبه الأماميتين بوصة في كل مرة ، ويحاول أن ينقض عليها بأسنانه

ولكنه لم يلبث أن أحسّ بالإعياء مرة أخرى من فرط ما بذل من جهد ،
فحاول أن يسلي نفسه بمطاردة ذبابة ، ولكنه لم يجد في ذلك متعة ، فانصرف
عنها إلى متابعة نملة كانت تسير على الأرض ، وقد جعل أنفه قريباً منها .
ولكنه سرعان ما ضاق ذرعاً بهذه المحاولة أيضاً فتمطى ، وتهد ، وكان قد
نسى الخنفساء تماماً فجلس فوقها ، وفي اللحظة التالية انطلق ينبج نباحاً متواصلاً
بينما طارت الخنفساء في ممر الكنيسة .

وأخذ الكلب يعدو حتى خرج من باب الكنيسة ، أما الخنفساء فقد
سقطت في حجر الكاهن الذي قذف بها من النافذة ، فعاد الهدوء يشمل
المصلين مرة أخرى .

في ذلك الوقت كانت وجوه جميع المصلين مختنقة من فرط ما بذلوه من
جهد لكبت الضحك . وتوقف الواعظ عن الكلام ، ولكنه سرعان ما استأنفه .
وإن خلا من ذلك الحماس السابق . ولم يجد الكاهن بداً من الإسراع بأداء
الشعائر الدينية ، فلما فرغ منها تنفس الجميع الصعداء .

وعاد ، توم سوير ، إلى منزله وهو مرح أشد ما يكون المرح ، وبدأ
يعتقد ألا بأس من حضور صلاة يوم الأحد ، طالما كان في الإمكان حدوث
شيء من التجديد فيها !!

الفصل السادس

«توم» يقابل «بيكى»

كان «توم» سوير ، تعساً صباح يوم الاثنين . . ولا عجب ، فقد كان يشعر بهذه التعاسة في صباح كل يوم اثنين - لأنه بداية أسبوع من العذاب البطيء في المدرسة . . كان يبدأ هذا اليوم عادة وهو يتمنى لو أنه لم يحصل على أجازة ، لأنه كان يشعر بأنه ذاهب للأسر ، وأن قيوداً أثقل سوف تكبل يديه خلال الأسبوع الجديد .

وبقي «توم» ممدداً في فراشه ، واستغرق في التفكير . ولم يلبث أن خطر بباله أنه يتمنى أن يكون مريضاً ، فبذلك يمكنه أن يبقى في المنزل ولا يذهب إلى المدرسة . . ولاحت له فكرة . . راح يستعرض كل جزء في جسمه ولكنه لم يجد عضواً منه يشكو ألماً . فأعاد الفحص مرة أخرى ، وفي هذه المرة خيل إليه أنه يستطيع أن يكتشف أعراض مغص ، فراح يشجع هذه الأعراض ، وقد امتلاً أملًا ، ولكن الأعراض سرعان ما ضعفت ثم لم تلبث أن تلاشت تماماً ، فعاود التفكير . وبقية اكتشاف شيئاً . كانت إحدى أسنانه العلوية الأمامية غير ثابتة ، فاعتبر ذلك مرضاً خطيراً ، وأوشك على البدء بالتأوه ، لولا أنه تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أن تعتمد عتمته إلى جذب هذه السن وخلعها ، وأن ذلك خليك بأن يسبب له ألماً شديداً .

وسرعان ما حزم أمره على أن يبحث عن «مرض» آخر ، يريد أنه لم يستطيع أن يجد هذا المرض بعض الوقت ، ولكنه سرعان ما تذكر أنه سمع الطبيب يتحدث عن شيء معين يضطر المريض إلى ملازمة

الفراش أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ويتهدهد بفقد أحد أصابعه . فبادر وأخرج قدمه من أسفل الغطاء وتأمل أصبعه المتقرح . ومع أنه لم يكن يعرف ما هي الأعراض الملازمة لهذا المرض ، إلا أنه فرر أن ينفذ التجربة ، فتمدد في الفراش وراح يئن بصوت عال .

ولكن « سيدنى » ظل مستغرقاً في نومه كأنما فقد وعيه . .

وإزداد أذنين « توم » عنفاً ، وتخيل أنه بدأ يشعر بألم في أصبع قدمه

حقيقته !

وظل « سيدنى » جامداً . .

وبدأ « توم » يلهث من فرط ما بذل من جهد . . فاستراح قليلاً ، ثم استأنف الأذنين بعنف شديد ، ولكن « سيدنى » مضى في شخيره .

وضاق « توم » ذرعاً ، فنادى « سيدنى » . ثم هزه . . وتنبه الغلام ، وعندئذ استأنف « توم » أذنيه . . وتثأب « سيدنى » وتمطى ، ثم نهض معتمداً على مرفقيه ، وراح يحدق في وجه « توم » . . بينما استمر هذا في تأوّهه .

قال « سيدنى » : توم . . توم . . ماذا يؤلمك ؟

ولكن « توم » لم يجب . فأردف « سيدنى » : توم : توم أخبرنى ماذا يؤلمك ؟

وهزه بقوة ، وتطلع إلى وجهه بلهفة . . فقال « توم » متأوها :

— آه . . كلا . . لا تهزنى يا « سيدنى » .

— لماذا ؟ ما الأمر يا « توم » ، ايجب أن أنادى عمى .

— كلا . . لا داعى لذلك ، فقد تحسنت حالتى بعد قليل . . لا تناد

أحدًا .

— لكننى يجب أن أدعوها ، لا تأوّه هكذا ، لأن تأوها تترك تؤلمنى . .

منذ متى وأنت على هذه الحال ؟

— منذ ساعات . . . آه الا تهزنى هكذا يا سيدنى . . . إنك ستقتلنى .
— لماذا لم توقظنى قبل الآن يا د توم ، ؟ أو اه يا د توم ، . . . لا تتأوه
لأن جسدى يقشعر كلما سمعت أذنينك . . . ما الأمر يا توم ، ؟
— إننى أصفح عنك تماما يا سيدنى (وتأوه) . . . إننى أصفح عن كل
ما ارتكبته فى حقى . . . عندما أموت . . .

فقطاطعه يا سيدنى ، بلهفة : أو اه يا د توم ، . . . لن تموت . . . أليس
كذلك ؟ كلا يا د توم ، . . . أوه . . . ربما . . .

— إنى أصفح عن كل إنسان يا د سيدنى ، (وتأوه) قل لهم ذلك يا
« سيدنى ، . . . كذلك أرجوك أن تهب مزلاج النافذة وقطى ذات العين
الواحدة إلى تلك الفتاة التى أتت إلى المدينة حديثاً . . . وقل لها . . .

ولكن « سيدنى ، كان قد وثب من الفراش وانطلق من الغرفة كالسهم . .
كان « توم ، يتألم فعلا الآن . فقد جعله الخيال يتوهم أنه مريض حقا ،
فاكتسبت أناته طابع الحقيقة .

وهبط « سيدنى ، الدرج وثباً وصاح :

— أو اه يا عمى ، بولى ، تعالى على عجل إن « توم ، يموت ا

— يموت ا

— نعم يا عمى . . . لا تتلكأى . . . تعالى سريعا ا

— هذا سخف . . . إننى لا أصدقك ا

ولسببها هرولت إلى الطابق العلوى و « سيدنى ، و « مارى ، فى أعقابها .

وعندما وقفت أمام الفراش شهقة وصاحت : ماذا دهاك يا د توم ، ا

— أو اه يا عمى . . . إننى . . .

— ماذا يؤلمك أيها الطفل ؟

— أواه يا عمى . . . لأنى أشعر بأن أصبع قدمى المقترح قد مات !
وتهاوت السيدة العجوز على أحد المقاعد ، وانفجرت ضاحكة ، ثم
انفجرت باكية ، ثم اختلط ضحكها ببكائها . وهكذا استطاعت أن تتمالك
رباطة جأشها .

وقالت : لقد أفرغتنى يا د توم ، . . . والآن ، كف عن هذا الهديان ،
واهبط من الفراش .

واختفت الأنات ، وتلاشى الألم ، وتظاهر الغلام بشيء من الغباء . . .
ثم قال :

— أواه يا عمى . . . لقد خيل إلى أنه مات . . . ثم إن ألمه لا يطاق ،
حتى لقد أنساني ألم أسناني .

— أسنانك ! وماذا حاق بأسنانك ؟

وبدأ د توم ، يتأوه . . .

— أوه اكفى . . . لا تستأنف التأوه . . . هيا ، افتح فمك . . . حسناً ،
إن سنك غير ثابتة ، ولكنك لن تموت بسببها . . . اذسبى يا د مارى ،
وأحضرى خيطاً من الحرير ، وقطعة فحم مشتعلة من المطبخ .

فقال توم : أرجوك ألا تخلعها يا عمى . . . إنها لم تعد تؤلمنى . . . أرجوك
يا عمى ، إننى لا أريد البقاء فى المنزل والتخلف عن المدرسة .

— أوه ! أحقا ؟ إذن فقد كانت كل هذه الجلبة لأنك ظننت أنك
تستطيع البقاء بالمنزل والذهاب لصيد السمك ؟ د توم ، . . . لأنى أحبك
أشد الحب ، ولكن يبدو أنك تجرب كل وسيلة لكي تحطم قلبى العجوز
بما تأتيه من فضائح .

وفي تلك الأثناء كانت أدوات خلع السن قد أعدت ، فربطت العجوز السن بأحد طرفي الخيط الحريري ، وربطت الطرف الآخر بعامود الفراش . وقربت قطعة الفحم المشتعلة فجأة من وجهه ، توم ، حتى كادت تلمسه . وسرعان ما كانت السن تتأرجح بجوار عامود السرير .

إن لجميع المحن مزاياها . إذ ما كاد « توم » يتناول طعام الإفطار ويغادر المنزل في طريقه إلى المدرسة ، حتى أصبح موضع حسد كل غلام قابله بسبب تلك الفجوة التي خلفها خلع السن في صف أسنانه العلوى ، والتي كانت تمكنه من أن يبصق بطريقة مدهشة ١١ وسرعان ما أحاط به عدد كبير من الغلمان الذين استهواهم هذا المنظر الجديد ، بعد أن انصرفوا من حول غلام آخر كان قد جرح أصبعه . . . وهكذا وجد الغلام الأخير نفسه فجأة بغير متفرجين ، فأحس بالضيق ، وقال باحتقار مفتعل أن البصق بالطريقة التي يتبعها « توم سوير » ليس شيئاً يستحق الاهتمام ١١

وبعد قليل ، التقى « توم » بغلام القرية الشريد « ها كبرى فين » ، وهو ابن رجل سكير . . . وكانت جميع الأمهات في المدينة يكرهن « ها كبرى » لأنه كان كسولا ، خارجا على القانون ، مبتذلا ، شريداً - ولأن جميع أطفالهن كانوا يعجبون به وتشوقهم رفقة المحرمة كما كانوا يتمنون أن يكونوا مثله ١ . ولقد كان « توم » مثل الآخرين ، يحسد « ها كبرى » على تشرده هذا ، ولكن عمته « بولى » كانت تحرم عليه أن يلعب معه ، ولهذا كان يلعب معه كلما وافته الفرصة ١ وكان « ها كبرى » يرتدى دائماً ثياب الرجال الكبار المهاملة التي كثرت بها الرتوق فضلا عن اتساعها عليه . أما قبعته فكانت حطام قبة ضخمة ، على حين كانت السترة تسكاد تصل إلى أخمص قدميه : ولم يكن يرفع سرواله (بنطالونه) ويثبته حول خصره غير جانب واحد من (الجمالة) ، بينما كانت قاعدة السروال تتدلى إلى منتصف ساقه ، مما جعل أطرافه السفلية تبرز بالقاذورات بسبب طول السروال ١

كان د هاكبرى ، يتجول حيثما يشاء ، ينام فوق عتبات أبواب المنازل
إذا كان الطقس معتدلاً ، وفي البراميل الكبيرة إذا أمطرت السماء . . ولم
يكن مضطراً للذهاب إلى الكنيسة أو إلى المدرسة ، كما لم يكن مضطراً
لأن ينادى أحداً بـ « ياسيدى ، أو يطيع أحداً . وكان فى استطاعته أن
يذهب للسباحة وصيد السمك أينما يشاء ووقتاً يريد ، وأن يقضى فى ذلك اللهو
الوقت الذى يروقه . ولم يكن أحد ليجرؤ على تحديه للقتال ، كما كان يستطيع
أن يسهر إلى أية ساعة من ساعات الليل . . وكان هو أول غلام يمشى جافى
القدمين فى الربيع ، وآخر من يرتدى الحذاء عندما يقبل الخريف . ولم يكن
يغسل وجهه أبداً ، أو يرتدى ثياباً نظيفة ، كما يجيد الشتاء والسباب . .
صفوة القول ، كان هذا الغلام يملك كل ما من شأنه أن يجعل الحياة ثمينة .
أو هذا على الأقل ما كان يظنه كل غلام فى قرية سانت بيتر سبرج !!

نادى « توم ، هذا الطريد قائلاً :

— أهذا أنت يا د هاكبرى ؟

— أهلاً . . كيف حالك يا د توم ، !

— ما هذا الذى معك ؟

— قطعة مينة

— دعنى أرها يا د هاك . . إلهى ! إنها متصلة تماماً . . من أين

حصلت عليها ؟

— اشتريتها من أحد الغلمان .

— ماذا أعطيت له مقابلها ؟

— بطاقة زرقاء ومائة حصلت عليها من المجرر !

— ومن أين حصلت على البطاقة الزرقاء ؟

— أشبهتنيها من « بن روجرز » منذ أسبوعين مقابل « ضرب طوق

— أخبرني يا « هاك » . ما فائدة القطة الميتة ؟

— فائدتها ؟ أنها تشفى السنط !

— أحقا ؟ إنني أعرف طريقة أحسن من ذلك

— أراهن أنها ليست أحسن .. لكن ماهي ؟

— الماء المتخلف عن المطر .

— ماء المطر : هذا سخف ..

— لماذا ؟ هل سبق لك أن جربته ؟

— كلا .. ولكن « بوب تانر » جربه .

— من قال لك ذلك ؟

— هو قال لجيف تاتشر ، وجيف قال لجوفي بيكر ، وجوفي قال لجيم

هو ليس ، وجيم قال لبن روجرز وبن قال لصبي ، زنجي ، والزنجي قال لي ..

— حسناً . إنهم جميعاً كاذبون . لكن قال لي كيف استطاع « بوب

تانر » أن يفعل ذلك يا « هاك » ؟

— لقد غمس يده في جذع شجرة مجوف متآكل حيث تجمع ماء المطر

— أكان ذلك نهارا ؟

— بالتأكيد

— وهل كان وجهه نحو الجذع ؟

— هذا ما أظنه

— وهل نطق بشيء ؟

— علم ذلك عند ربي .. لكنني لا أعتقد أنه قال شيئا .

— يا للسخف ! أليس من خطئ الرأي أن تقول أن في الإمكان شفاء السنط بالماء المتخلف من المطر ؟ إن ذلك غير معقول ! إنهم يقولون أنه يجب عليك أن تذهب إلى قلب الغابة بمفردك حيثما تعرف أن هناك جذع شجرة مملوء بماء المطر . وعندما ينتصف الليل تاصق ظهرك بجذع الشجرة وتدخل يديك فيه ، وتردد يديتين معينين من الشعر . وبعد أن تمشي إحدى عشرة خطوة بسرعة وعينيك مغلقتين ، وتدور حول نفسك ثلاث مرات ، ثم تعود إلى منزلك بغير أن تكلم أحداً ، لأنك إذا تكلمت فقد السحر أثره !!

— حسناً . . يبدو أنها طريقة لا بأس بها ، ولكن ذلك لم يكن هو ما فعله « بوب تانر » .

-- نعم ياسيدي . . تستطيع أن تراهن على أنهم يفعل ذلك ؛ لأن جسمه مملوء بالسنط ، ولا شك أنه ما كان ليتردد في التخلص منه إذا عرف كيف يستخدم الماء المتخلف عن المطر . . لقد تخصصت من السنط الذي يظهر على يديه بهذه الطريقة يا د هاك ، . . إنني أكرر من اللعب بالصفادع لهذا فإن يدي كثيراً ما تصابان بالسنط . وفي بعض الأحيان أتخلص منه بحبة من الفول .

-- نعم . . إن الفول مفيد في مثل هذه الأحوال . فقد جربته .

-- أحقاً ! ما هي الطريقة التي تتبعها ؟

-- إفلق حبة الفول ، ثم لإقطع السنطة حتى يسيل منها دم قليل ، وبعد أن تطبخ إحدى الفلقتين بالدم ، ثم أحفر حفرة في تقاطع طريقيين ، بشرط أن يكون ذلك عند منتصف الليل ، وفي الظلام ، وادفن الفلقة فيها ، وبعد أن أحرق ما تبقى من حبة الفول . إن ما يحدث هو أن فلقة حبة الفول الملوثة

بالدم ، ستحاول أن تبحث عن زميلتها الأخرى ، وهى كلما تفعل ذلك تساعد الدم على طرد السنطة ، وسرعان ما تسقط .

— نعم . . هذا صحيح يا هاك . . وأنه ليحسن أن تقول — وأنت تدفن فائمة حبة الفول « إنزلى يا حبة الفول ، اسقطى أيتها السنطة ، لا تعودى لمضايقتى مرة أخرى ، .. تلك هى الطريقة التى يتبعها « جو هابر » . . لكن قل لى كيف تتخلص من السنط بالقطط الميتة ؟

— هذا يستلزم أن تذهب ، ومعك القطة الميتة ، إلى المقابر حوالى منتصف الليل ، بشرط ان يكون شخص شرير قد دفن فى اليوم السابق . وعندما ينتصف الليل ، سيأتيك شيطان وربما اثنان أو ثلاثة ، ولكنك لن تستطيع أن تراهم ، وإنما قد تسمع فقط شيئاً يشبه قصف الرياح ، وربما تسمع الشياطين يتكلمون ، وعندما يتأهبون للمضى بجثة هذا الشرير ، يجب عليك أن تقذف بالقطة فى أثرهم وأنت تقول « يا شيطان اتبع الجثة ، وياقطة اتبعى الشيطان ، ويا سنط اتبع القطة ، فإنى لست بحاجة إليك » . فإن ذلك خليف بالقضاء على أية سنطة .

— يخيل لى أنها طريقة لا بأس بها .. هل سبق لك أن جربتها يا «هاك» ؟

— كلا . . ولكنى سمعت هذه القصة من الأم العجوز « هو بسكنز » ،

— حسناً ، أظن أن الأمر كذلك ، فقد سمعت الناس يقولون إنها ساحرة .

— أنا أعلم أنها كذلك لقد سحرت أبى ، فإن أبى يقول ذلك . . لقد جاء إلى المنزل وقال أنها كانت تسحره ، فالتقطت صخرة وقذفها بها ، ولولا أنها استطاعت أن تتجنبها لأصابتها ، . مهما يكن ، لقد حدث له أمر غريب فى تلك الليلة . فقد سقط فى إحدى الحظائر ، وبقي ممدداً فيها وهو مخمور ، كما كسر ذراعاه .

— هذا أمر مخيف . . لكن كيف عرف أنها كانت تسحره ؟

— إن أبي يفسر ذلك بسهولة ، فهو يقول إن الساحر إذا استمر يحدق النظر فيك وقتاً طويلاً ، فإنه يسحرك وبخاصة إذا كان يتمم ، إذ أن هذه التهمة عبارة عن ضلالت ذات تأثير عكسي !

— أخبرني يا دهاك ، متى ستقوم بتجربة القطة الميتة ؟

— الليلة ، فأكبر ظني أن الشياطين ستسعى الليلة في طلب د هوس وليامز ، !

— ولكنهم دفنوه يوم السبت .. فهلا سعت الشياطين إليه ليلة الأحد؟

— يا لله . ! إنك ساذج يا د توم ، .. كيف يمكن أن تحدث تعاويذهم أثرها حتى منتصف الليل ؟ ثم لا تنس أن الشياطين لا تستطيع أن تعمل يوم الأحد فيما أعتقد .

— إن ذلك لم يخطر ببالى إطلاقاً . . هل تدعى أذهب معك ؟

— بالطبع ، إذا لم تكن خائفاً .

— خائف ! ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال . . لكن هل ستموه تحت نافذتى

ليلاً ، لكي تنهني إلى أنه قد حان وقت الذهاب إلى المقابر ؟

— نعم . وعليك أن تموه أيضاً إذا واثتلك الفرصة . . لقد تركتني

أموء في المرة السابقة ، إلى أن بدأ د هايز ، العجوز يقذفني بالأحجار وهو

يقول : لعنة الله على هذا القط ! فاضطرت إلى أن ألقى حجراً عليه —

لكن إياك أن تذكر ذلك لأحد .

— إن أفعل . . إننى ام أستطع أن أموء في تلك الليلة لأن عمى كانت

تراقبني عن كثب . ولكنى سأموء هذه المرة — قل لى ما هذا ؟

— إنها قرادة

— من أين حصلت عليها ؟

— من الغابة .

— ماذا تأخذ مقابلها ؟

— لا أعلم . ولكنى أريد أن أبيعها

— حسناً .. إنها حشرة صغيرة على كل حال !

— أوه ... إن فى استطاعة أى شخص أن يحصل على ما يشاء من هذه الحشرات . ولكنى قانع بهذه القردة على كل حال ..

— مهيا يكن .. هناك قراد كثير .. ولانى لمستطيع أن أحصل على ألف واحدة منها إن شئت .

— إذن لماذا لا تحاول ؟ أنت تعلم أنه ليس هناك قراد الآن ، إذ أن موسمهم لم يحن بعد فيما أظن . لقد كانت هذه القردة أول واحدة أراها هذا العام .

— اصغ إلى يا د هاك ، . سأعطيك سنتى مقابلها .

— دعنى أراها .

وأخرج « توم » لفافة صغيرة من الورق ، راح يجلها بعناية . وتأمل « ها كبرى » السن بإعجاب .. كان الإغراء قويا .. وأخيراً قال .

— هل هى سن حقيقية ؟

ورفع « توم » شفته العلوية فكشف عن الفجوة ..

قال « ها كبرى » : حسناً .. إننى موافق على الصفقة .

ووضع « توم » القردة بداخل عابطة كبسول ، وافترق الغلامان ، وكل منهما يشعر أنه أثرى من ذى قبل !

وعندما وصل « توم » إلى مبنى المدرسة الصغير المنعزل ، كان يمشى

(م — ه توم سوير)

بخطوات واسعة ، شأن الشخص الأمين الذي يلجأ إلى أقصى سرعة مستطاعة حتى يستطيع أن يصل إلى غايته في الموعد المحدد . . . وعلق قبعته على المشجب ، وجلس فوق مقعده بنشاط أشبه بنشاط رجال الأعمال . . . وكان المعلم في تلك اللحظة مستسلماً للنعاس اللطيف وهو جالس فوق (عرشه) الضخم المرتفع . . . ولكنه لم يلبث أن تنبه عند دخول « توم » وما أحدثه من ضوضاء حينما جلس .

هتف المعلم : « توماس سوير ، ا

كان « توم » يعلم أنه يجب عليه أن يتوقع المناعب كلما نطق المعلم باسمه كاملاً .

أجاب : نعم يا سيدي .

— تعال هنا .. والآن أخبرني يا غلام لماذا جئت متأخراً كالعادة ؟
كان « توم » يوشك على الإلتقاء بأ كذوبة يبرر بها تأخيرها ، ولكنه عدل عن ذلك حينما رأى خصمتهين طويلتين من الشعر الذهبي تبدليان فوق ظهر فتاة جعلته كهرباء الحب يعرف من هي صاحبتهما ، كما رأى بجوار صاحبة هاتين الضفيريّتين مقعداً شاغراً ..

أجاب بلا إبطاء :

— لقد كنت أتحدث مع « ها كبرى فين » ،

وجمد الدم في عروق « المعلم » وراح يحدق في وجه « توم » مبهوتاً . . . وتلاشى في الحال ذلك الطنين الذي كان يصدر عن التلاميذ وهم يستذكرون درسهم ، وراح جميع من في القاعة يتساءلون : هل فقد « توم » عقله حتى يدلى بهذا التصريح الخطير ١٤ .

وقال المعلم : ماذا .. ماذا تقول ؟

— لقد كنت أتحدث مع « ها كبرى فين » ، ا

لم يبق شك في مغزى كلمات « توم » .. فقال المعلم :
— إن هذا أخطر اعتراف سمعته في حياتي يا « توم سوير » ، وليست
هناك عقوبة يمكن أن تتلامم مع هذا الإثم الكبير .. اخلع سترتك !!
وظل المعلم يضرب الغلام إلى أن كل ساعده .. ثم قال له آمراً :
— والآن ، اذهب واجلس مع البنات يا سيدي ! وليكن لك في
ذلك عبرة .

ورغم ما كان يبديه زملاؤه من استنكار لمساكته ، فإن « توم » لم يبالي
بذلك كثيراً إزاء ما كان يملأ قلبه من سعادة أتاحتها له حظه الحسن . . وما
كاد يجلس فوق حافة المقعد حتى تحركت الفتاة مبتعدة عنه ، وهي تحرك
رأسها إلى الوراء . . وبدأت الهمسات ، والغمزات تسرى في جميع
أنحاء الفصل ، ولكن « توم » جلس جامداً في مكانه وقد اعتمد بذراعيه
فوق الدرج الطويل المنخفض الموجود أمامه ، وهو يتظاهر بالقراءة
في كتابه .

وبعد قليل انصرف زملاؤه عن الاهتمام بأمره وارتفع طنين الاستنكار
المألوف مرة أخرى . وعندئذ بدأ « توم » يختلس النظر إلى الفتاة . ولم
يخف ذلك عليها ، فقلبت له شفيتها وأدارت رأسها عنه قرابة دقيقة .
وعندما حولته نحوه بحذر ، وجدت أمامها (خوخة) . فدفعها بعيداً عنها ،
ولكن « توم » أعادها برفق إلى مكانها الأول ، فدفعها بعيداً ولكن بنفور
أقل ، فأعادها « توم » إلى مكانها بصبر ، فتركتها حيث هي . وعندئذ كتب
« توم » على لوحة « أرجوك أن تأخذها » — فإن معنى مزيداً من الخوخ ،
وتطلعت الفتاة إلى الكلمات ، ولكنها لم تأت بأية حركة . وبدأ الغلام يرسم
شبهتاً فوق لوحه وهو يخفيه بيده اليسرى . وقد عزفت الفتاة عن إبداء أى
اهتمام بما يرسمه أول الأمر ، ولكن حب الاستطلاع البشري لم يلبث أن
تغلب عليها ، وإن بدا في حركات لا تكاد تلاحظ .. واستمر الغلام في عمله

دون أن يفطن إلى هذه الحركات ، كما بذلت الفتاة محاولة لتتري الرسم ،
ولكن « توم » ، لم يبد أية حركة تدل على أنه لاحظ محاولاتها . وأخيراً
استسلمت للإغراء وقالت بصوت هامس متردد :

— دعني أراه .

وكشف « توم » عن رسم كروكي لمنزل ، ينبعث من مدخنته خط متعرج
من الدخان . وعندئذ تركز اهتمام الفتاة في الرسم ونسيت كل شيء آخر ...
فعندما انتهى « توم » من عمله ، حدثت الفتاة فيه وهمست :

— إنه بديع ... ارسم رجلاً .

ورسم الفنان الصغير رجلاً في الساحة الأمامية ... وتأملت الفتاة لحظة ،
ثم همست :

— إنه رجل جميل ... والآن ارسمني وأنا قادمة ..

ورسم « توم » فتاة جميلة بيدها مروحة .. فقالت الفتاة :

— إنه رسم مدهش جداً .. كم أود لو عرفت كيف أرسم .

فهمس « توم » ، إن ذلك أمر سهل .. سوف أعلمك

— أوه ! أحقاً ؟ ومتى ؟

— عند الظهور .. هل تذهبين إلى المنزل لتناول طعام الغداء ؟

— سأبقى إذا بقيت .

— حسناً .. إنها فكرة عظيمة .. ما اسمك ؟

— « بيكي ثاتشر » ، وما اسمك ؟ أوه ... إنني أعرفه . « توماس سوير »

— هذا هو الاسم الذي ينادونني به .. ولكنهم يدعونني « توم » ، فقط

عندما يدلونني . أما أنت فستنادينني باسم « توم » ، أليس كذلك ؟

— نعم .

وبدأ « توم » ، يكتب شيئاً على لوحه وهو يخفي الكلمات عن الفتاة

ولكنها توسلت إليه أن يدعها تقرأ ما يكتب . فقال « توم » :

— أوه ا ليس ما أكتبه شيئاً مذكوراً

— بل إنه لا بد أن يكون شيئاً ذا بال

— كلا .. لا أظنك راغبة حقاً في رؤية ما أكتب

— نعم .. إننى راغبة فى ذلك كل الرغبة .. أرجوك أن تدعنى أقرأ .

— وهل ستفضحينى ؟

— كلا .. إن أفعل .. ثق من ذلك ..

— لن تقولى لأحد طالما أنت على قيد الحياة ؟

— كلا .. لن أقول لأحد .. دعنى أقرأ ما كتبت

— أوه إنك لا تريد أن تقرأه .

— ما دمت تعاملنى على هذا المنوال ، فسأرى

ووضعت يدها الصغيرة فوق يده ، وأعقب ذلك شيء من الهرج . وكان

« توم » يتظاهر بأنه يقاومها بقوة ، ولكنه ترك يده تنزلق شيئاً فشيئاً حتى كشف عن الكلمة التالية : « أحبك »

فقالته وهى تضربه على يده : أوه يالك من شرير !

ولكن وجهها تخضب بحمرة الخجل ، وبدت عاينها علامات السرور .

وفى تلك اللحظة الحاسمة ، أحس « توم » بيد تطبق على أذنه ، وتجذبه

بقوة ، فاضطر إلى النهوض . وعلى هذا النحو ظل المعلم يجذبه حتى أجلسه على

مقعده بينما انفجر التلاميذ يضحكون ويتغامزون . وظل المعلم يتأمل « توم »

بنظرات يتطير منها شرر الغضب عدة لحظات ، ثم استدار ومضى عنه

ليجلس فوق عرشه المرتفع دون أن ينطق بكلمة واحدة . ورغم أن أذن

« توم » كانت تؤلمه أشد الألم إلا أنه كان يشعر بسعادة غامرة ..

وعندما عادت الأمور إلى نصابها ، بذل « توم » جهداً صادقاً ليستذكر
درسه ، ولكن الانفعال الذي استبد به كان شديداً ، فلم يستطع تركيز
انتباهه .. فلما كانت حصة المطالعة أكثر من الخطأ في النطق . وعندما
جاءت حصة الجغرافيا قلب البحيرات إلى جبال ، والجبال إلى أنهار ،
والأنهار إلى قارات ، حتى عمت الفوضى الفصل من جديد . وفي حصة الهجاء
راح المعلم يحقره بعبارات لاذعة وحيثما ضاق به ذرعاً أوقفه أمام التلاميذ
وانتزع منه ميدالية التفوق التي ظل يرتديها شهوراً طويلة منذ أن حصل
على نسخة من الإنجيل زوراً وبهتاناً .

الفصل السابع

مطاردة وفشل

كان «توم» ، كلما بذل جهداً لتركيز اهتمامه في الكتاب الموضوع أمامه
ازدادت أفكاره شروداً ..

ومن ثم فقد اضطر أخيراً إلى التخلي عن المحاولة وتهد وتثأب ، وقد
خيل إليه أن (فسحة) الظهر لن تحين .. كان الهواء راكداً تماماً ، فلم تكن
هناك نسمة تخفف من وطأة ذلك القيظ الشديد ، كما كان يوماً يخيم عليه
الخنول التام بشكل أنك الأعصاب وجلب النعاس إلى الجفون . وهكذا كانت
هممة التلاميذ الخمسة والعشرين الموجودين في الفصل هي الصوت الوحيد
الذي يشعر الإنسان بأن هناك حياة ، رغم أن هذه الهممة كانت أشبه
بطنين النحل . وعلى مبعده كانت تلال ، كارديف هيل ترتفع بجوانبها
العالية المكسوة بالخضرة الجميلة في الهواء وقد انعكست عليها أشعة الشمس
الحامية مكنسبةً إليها منظرًا رائعاً خلاباً ، بينما راح عدد قليل من الطيور
يسبح في الفضاء وهو يرفرف بأجنحته في كسل شديد . . ولم يكن يُرى
في المنطقة كلها أحياء غير بضع بقرات كانت مستسلمة للنوم بدورها . .
وأحس «توم» ، بثقل مرور الوقت . . كان أشد ما يكون لطفة على التحرر
من قيود المدرسة ، أو أن يجد ما يفعله ليشتغل به الوقت الباقي على مجيء
(الفسحة) . . ومن ثم فقد وضع يده في جيبه ، باحثاً عن شيء يسليه . ولم
يلبث أن تهمل وجهه ابتهاجا . وأخرج يده وقد أغلقها على علبة الكبسول . .
وأزاح الغطاء ، ثم أمسك بالقرادة الموجودة بداخل العلبة ووضعها فوق
الدرج الطويل الأملس . ويبدو أن الحشرة أحست بشيء غير قليل من
الشكر لإطلاق سراحها ، ولكنها لم تتمتع بحريتها طويلاً ، إذ ما أن بدأت

تنطلق حسبها تريد ، حتى أعادها « توم » ، إلى حيث وَضَعَهَا أول الأمر ، مستعينا في ذلك بطرف دبوس صغير ، وبذلك أرغم الحشرة على أن تسلك اتجاهها جديداً .

كان صديق « توم » ، الصدوق يجلس بجواره ، وكان يعاني مثله أشد العناء من شدة الحر ، ولكنه ما كاد يرى القردة حتى تنفس الصعداء ، وأيقن أنه وجد أخيراً الوسيلة الكفيلة بقطع الوقت ، ريثما يدق الناقوس مؤذناً بانتهاء الدراسة . . . كان هذا الصديق هو « جو هاربر » . . . ولقد كانت صداقة الغلامين أقوى من صلة القرني ، ولهذا ندر أن يفترقا في السراء أو الضراء . وأخذ « جو » دبوساً من ياقة سترته وبدأ يعاون صديقه في تدريب الحشرة السخيفة . . . وسرعان ما أصبحت هذه التسلية مثار اهتمامها الشديد . وبعد قليل قال « توم » : إننا ننافس أحداً الآخر في متابعة الحشرة ، مما يؤدي إلى عدم استمتاعنا باللعبة كما ينبغي . ثم جذب « توم » لوح « جو » ورسم فوق سطحه خطأً قسم اللوح إلى مستطيلين .

وقال : اضع إلى . . . طالما كانت القردة في المستطيل المواجه لك فإنك حري توجيهاً كيفما تشاء ، أما إذا تركتها تعبر الخط لتدخل إلى مستطيل فعليك أن تتركها وشأنها ، ما دمت أستطيع منعها من تخطي الحد الفاصل بيننا .

— حسناً . . . فلنبدأ . . .

وبعد قليل استطاعت الحشرة أن تفلت من « توم » ، فأخذ « جو » ، يطاردها في منطقتيه إلى أن تمكنت أخيراً من عبور الخط مرة أخرى . ولقد حدث هذا التغيير في القاعدة مرات عديدة . وهكذا بينما كان أحد الغلامين منصرفاً تماماً إلى ملاحقة الحشرة كيلا تفلت منه ، كان الغلام الثاني يراقبها عن كثب ، وقد انحنى الاثنان برأسيهما فوق اللوح ، وانصرفا عن كل شيء آخر في الوجود . وأخيراً ، بدا أن الحظ قد حالف « جو » ،

فبقيت الحشرة في منطقته . . ورغم المجهود العنيف الذي بذلته القردة للفرار ، بسلك هذا السبيل ، أو ذلك ، فقد أحفقت تماما ، وكأنيما أثار ذلك اهتمامها مثلما أثار انفعال الغلامين ، إذ راحت تندفع هنا وهناك بجنون وفي كل محاولة ، كان « توم » يتحفز لا يستأنف المطاردة ولكن « جو » نجح في التضييق على الحشرة وإرغامها على البقاء في منطقته . وأخيراً لم يستطع « توم » احتمال الانتظار ، فقد كان الإغراء عنيفا أشد ما يكون العنف ، ومن ثم ، فقد مد يده ليشارك مع « جو » في المطاردة ، فاستولى الغضب على « جو » لحظة وقال :

- « توم » دعها وشأنها .

- لقد أردت أن أبعث فيها قليلا من النشاط « يا جو » .

- كلا يا سيدى . . ليس ذلك من العدالة في شيء . . دعها وشأنها .

- قلت لك إنني أبعث فيها بعض النشاط .

- قلت لك اتركها وشأنها

- كلا . . لن أفعل !

- بل ستفعل - إنها في منطقتي .

- اصغ إلى « يا جو هاربر » . . قرادة من هذه ؟

- لست أبالي من يكون صاحبها . . إنها في منطقتي الآن ، فعليك أن تمسك عن لمسها .

- حسناً ، إنني إن استجيب لقولك ، لأنها ملكي ، وسأفعل بها ما أشاء . . أو أموت !

وأحس « توم » بشيء ثقيل يسقط فوق كتفه كما أحس « جو » بنفس

الشيء ومضت دقيقتان قبل أن يتلاشى الغبار الذي تنائر من سترقي الغلامين بسبب اللطمتين اللتين هوت بهما يدا المعلم على كتفيهما . أما باقي التلاميذ ، فراحوا يراقبون هذا المنظر الفريد باهتمام شديد . لقد كان الغلامان «توم» ، و «جو» ، مستغرقين تماما في لعبهما ومناقشتهما حتى أنهما لم ينتبها إلى ذلك الصمت الرهيب الذي ساد الفصل قبل أن يهبط المعلم من فوق عرشه ويتقدم منها على أطراف أصابعه ، ثم يقف خلفها فترة يشاهد خلالها ما كانا يفعلان ثم يتدخل لإنهاء الموقف بشكل حاسم !!

وعندما حان موعد انصراف المدرسة ظهراً بادر «توم» بالذهاب إلى «بيكي» ناشر ، وهمس في أذنها :

— ار تدي قبعتك وتظاهري بأنك منصرفه إلى المنزل ، وعندما تصلين إلى ناصية الطريق ، إنسجبي سراً من بين زميلاتك ، واسلكي الممر الجانبي ، ثم عودي ثانية . أما أنا ، فسأمضي في الاتجاه المضاد ، ثم أعود أدراجي إلى هنا !

وهكذا سارت الفتاة مع مجموعة من التلميذات ، بينما سار «توم» مع بعض التلاميذ . وبعد قليل التقى الاثنان في الطريق الجانبي ، وكرا عائدتين إلى مبنى المدرسة ، دون أن يلتقيا بأحد ، فقد انصرف كل من كان بها . . . وجلسا معاً ، وقد وضعا لوحاً أمامهما ، وقدم «توم» ، لصديقه «بيكي» قطعة من الطباشير ، وأمسك يدها بيده ليرشدها ، وبعد لحظات كانت قد رسمت منظر آخر مدهشاً للمنزل الذي رسمه «توم» في الصباح . وعندما بدأ اهتمامها بالفن يضمحل ، انصرف الاثنان للحديث . .

وكان «توم» يشعر بسعادة عامرة .. سألتها :

— هل تحبين الفران ؟

— كلا .. إنني أكرهها .

- وأنا أيضاً أكره الجرذان الحية .. ولكنى أحب الفئران الميتة
التي نستخدمها في اللعب ، فربط أحد قدميها بخيط ونديرها في الهواء فوق
رؤوسنا .

- مهما يكن ، أنى لا أنهم كثيراً بالفئران .. ولكنى أحب
(اللبان) ..

- أوه .. أظنك على حق .. بودى لو كان معى شىء منه .

-- أحقاً ؟ إن معى قليلاً منه ، وسأجعلك تمضغه عدة دقائق ، لكن يجب
عليك أن تعيده إلى ..

وهكذا تبادلنا مضغ قطعة اللادن (اللبان) ، وهما يؤرجحان أرجلهم
ويشعران بفيض من السعادة .

سألها د توم ، : هل ذهبت إلى السيرك ، فى أحد الأيام ؟

-- نعم ، وسيصحبني أبى إليه مرة أخرى عما قريب إذا ظلمت فتاة عاقلة ..
وهكذا قال أبى ا

- أما أنا فقد ذهبت إلى السيرك ثلاث أو أربع مرات - بل مرات
كثيرة .. وليس هناك أى تشابه بين الكنيسة وبينه ، فإن السيرك يظل
ممتلئاً بالحركة طوال الوقت ا ولسوف أصبح بهلواناً عندما أصبح رجلاً .

- أوه .. ا أحقاً ؟ هذا جميل .. فإن جميع بهلوانات يتمتعون بمظهر
جذاب فى ثيابهم المزركشة ا

-- نعم .. لانهم كذلك .. كما أنهم يحصلون على نقود كثيرة - فإن
د بن روجرز ، يقول إن أكثرهم يحصلون على دولار فى اليوم .. أخبرني
يا د بيكى ، ألم يسبق لك أن خطبت ؟

- ما معنى ذلك ؟

- أعنى خطبت توطئة للزواج

— كلا .

— وهل تحمين ذلك ؟

أظن ذلك .. لا أعلم .. لكن ماذا تشبه الخطوبة ؟

— تشبه ؟ أنها لا تشبه شيئاً .. يكفي أن تقولى لـغلام إنك لن تقبلي أحداً

غيره ، مطلقاً ، مطلقاً ، مطلقاً . ثم تقبلان بعضكما .. هذا هو كل شيء ..

إن في استطاعة أى شخص أن يفعل ذلك .

— يقبل ؟ ولماذا التقبيل ؟

— حسناً .. ذلك لأن .. لأن — حسناً .. إنهم يفعلون ذلك دائماً

— كل إنسان ؟

— نعم .. كل إنسان يحب إنساناً آخر .. هل تذكرين ما كتبتنه

غوق اللوح ؟

— نعم .. نعم

— ماذا كان ؟

— إن أقوله لك

— إذن هل أقوله أنا لك ؟

— نعم .. نعم .. ولكن في وقت آخر

— كلا .. بل الآن

— كلا .. ليس الآن .. غداً

— اوه .. الآن .. الآن .. أرجوك يا بيكى ، .. سأهمس بها ..

سأهمس بها بصوت خافت جداً .

فبدأ التردد على بيكى ، واعتبر نوم ، سكوتها دليلاً على القبول .

فهمس بالكلمة في صوت رقيق جداً بعد أن قرب شفتيه إلى أذنيها ..
ثم أضاف :

— والآن اهمسى في أذني بنفس الكلمة ..

فتمنعت لحظة ثم قالت : أدر رأسك بحيث لا تستطيع أن ترى وجهي
وعندئذ سأنطق بها . ولكن إياك أن تخبر أحداً بذلك .. أليس كذلك
يا « توم » ، إنك ان تفعل ..

— كلا .. بالطبع .. لن أقول لأحد .. والآن هيا يا « بيكي » ،

وأدار وجهه بعيداً ، فمالت فوقه بوجل حتى لفحت أنفاسها خصلات
شعره ، وهمست ..

— أحب .. أحبك !

ثم وثبت واقفة وراحت تعدو حول المقاعد والأدراج و « توم »
بلاحقها ، وأخيراً لاذت بأحد أركان الغرفة وقد غطت وجهها بميدعتها
(المريلة) البيضاء الصغيرة ، فأحاط « توم » عنقها بذراعيه وقال بضراعة :
— لقد انتهى كل شيء الآن يا « بيكي » ، ولم يبق غير القبلة .. فلا تخافى
منها .. فإنها ليست شيئاً مذكوراً .. أرجوك يا « بيكي » ،

وراح يجذب (المريلة) وذراعيها . وبعد قليل بدأت تستسلم ، فسقط
ذراعاها إلى جانبيها . وبدا وجهها شديداً التوهج من فرط ما ناضلت .. وقبل
« توم » شفتيها المرأوين وقال :

— أما وقد انتهى كل شيء الآن يا « بيكي » ، فيجب عليك أن تعلمي أنه
منذ الآن لا يجوز لك أن تحبي أحداً غيري ، وألا تتزوجي أحداً غيري ..
مطلقاً .. وإلى الأبد .. فهل ستفعلين ؟

— نعم ... لن أحب أحداً غيرك يا « توم » ، ولن أتزوج أحداً
غيرك ، وأنت أيضاً لن تتزوج أية فتاة غيري ..

بالتأكيد .. بالطبع .. فإن هذا هو واجبي الآن ، وعليك منذ الآن أن تسيرى معى عند حضورك إلى المدرسة وانصرافك منها - بشرط ألا يرانا أحد - وعليك أيضاً أن تختارينى شريكاً ، وعلى أن أختارك شريكاً ، ذلك هو ديدن كل مخلوقين !

- هذا شيء جميل جداً .. لأننى لم أسمع به من قبل
- أوه؟ إن حياتنا ستصبح شديدة المرح والبهجة منذ الآن .. لأننى
و « آمى لورنس » .. .

واتسعت حدقتنا الفتاة فى تلك اللحظة ، فأدرك ، « توم » ، أنه ارتكب خطأ فاحشاً ، فأمسك لسانه ولكن بعد فوات الأوان .

- أوه يا « توم » ؟ إذن فأنا لست أول من خطبتها ؟
وانفجرت باكياً . فقال « توم » : لا تبكى يا « بيكى » .. لأننى لم أعد
أهتم بها إطلاقاً .

- بل تهتم بها - أنت تعرف أنك تهتم بها .

وحاول « توم » أن يحيط عنقها بذراعيه ، ولكنها دفعتة بعيداً عنها وأدارت وجهها إلى الجدار ثم استمرت فى نشيجها . وحاول « توم » مرة أخرى أن يسترضيها وهو يخاطبها بكلمات لطيفة ، ولكنها نفرت منه ثانية . وعندئذ ثارت كبرياءه ، فشى مبتعداً وخرج من الغرفة ، ولكنه وقف فى الخارج وقد تملكه القلق والضيق ، وهو لا يفتأ يتطلع إلى الباب بين الحين والحين آملاً أن تشعر الفتاة بالندم ، وتأتى إليه ، ولكنها لم تفعل . وعندئذ بدأ يشعر بأنه أخطأ ، ونشبت فى أعماقه معركة حامية بين الكبرياء والعقل ، ولم يلبث العقل أن تغلب ، فعاد أدراجه إلى الغرفة فوجدها لا تزال واقفة حيث تركها فى ركن الغرفة وهى تبكى ووجهها إلى الجدار . وتمزق قلب « توم » ، وتقدم منها ، ووقف أمامها دون أن يدري كيف يعالج الموقف .. وأخيراً قال بتردد .

- «بيكى، .. لاني لا أهتم بأى شخص غيرك .

فلم تجب .. واستمرت فى بكائها .

فقال بضراعة : « بيكى ، .. «بيكى» .. ألا تقولين شيئاً ؟

واستمرت فى البكاء .

وأخرج «توم» أئمن شئ معه، وكان عبارة عن مقبض باب من النحاس

اللامع وقدمه لها وهو يقول :

- أرجوك يا «بيكى» .. خذى هذه الهدية

فأخذتها منه وألقتها على الأرض . وفى التو انطلق «توم» خارجاً من
الغرفة ، ثم من المدرسة ، وارتقى التل ومضى مبتعداً ، ولم يعد إلى المدرسة
فى ذلك اليوم .. أما «بيكى» فبدأت ترتاب فى الأمر .. وأسرعت إلى
الباب تنظر . ولكنها لم تجد «توم» أثراً ، فركضت إلى الملعب . ولكنها لم
تجده هناك فنادته .

- «توم» ، ا تعال ! «توم» ا

وأصاحت السمع ولكنها لم تسمع أية إجابة . ولم تجد رفاقاً غير الصمت
والوحدة ، فجلس ، واستأنفت البكاء وهى تنحى على نفسها باللائمة ..
وبعد قليل بدأت أفواج التلميذات والتلاميذ تصل إلى المدرسة ، فأضطرت
إلى إخفاء أحزانها ، وتهديئة قلبها المحطم . والمضى فى الدراسة بعقل شارد
ونفس متألمة . وبغير أن تجد من بين أترابها من تستطيع أن تركز إليها التبشها .
أحزانها وأشجانها ..

الفصل الثامن

القرصان الشجاع !

راح «توم» يسلك هذا الطريق وذلك إلى أن ابتعد عن الشارع الذى يجتازه التلاميذ عند عودتهم إلى المدرسة .. ثم هدأ من سرعته .. وبعد نصف ساعة كان يختفى وراء قصر «دوجلاس» المشيد فوق رابية «كارديف هيل» حيث احتجبت المدرسة عن أنظاره ، ودخل غابة كثيفة ومضى يمشى على غير هدى حتى بلغ قلبها فجلس فوق الحشائش تحت أغصان شجرة بلوط ضخمة .! كان الكون ساكناً تماماً ، إذ يبدو أن شدة قيظ ذلك النهار جعلت الطيور تعزف عن التغريد ... بينما كان صوت مطرقة أحد قاطعى الخشب يرتفع بين حين وآخر من بعد ، ويبدو أن هذا الصوت أيضاً كان يزيد من شدة وطأة السكون وإحساس «توم» بالوحدة .. كان الغلام غارقاً فى الحزن ، ولهذا كانت إحساساته متلازمة تماماً مع الجو الراكد الذى يحيط به .. وطالت جلسته ، وطال معها تفكيره العميق .. ولقد خيل إليه أن الحياة ليست إلا سلسلة متصلة من المتاعب مهما بدت باسمية فى بعض الأحيان .. وأحس بأنه يحسد أولئك الذين ماتوا ، فقد دار بخلده أن الموت راحة أبدية لا تتخللها متاعب ولا أحزان ، حيث يرقد الإنسان وقد أغلقت عيناه إلى الأبد ، وهكذا يتخلص الإنسان نهائياً من المتاعب والأحزان .. وخطر له أنه كان يفضل أن يموت لو أن سجله فى مدرسة الأحد كان نظيفاً ، ولكنه لم يكن كذلك .. ثم تذكر «بيكى» فراح يتساءل : ماذا فعلت بها ماذا بغضبها ؟ لا شىء ، ... لقد أراد لها كل الخير . و«كنها» عاملته ككلب .. ولا شك أنها سوف تشعر بالأسف فى أحد الأيام — وربما حدث ذلك

بعد فوات الأوان ، . لكن بالله . . ليمته يستطيع أن يموت ولو لفترة
قصيرة !

ولكن القلب الغض لا يمكن أن يستسلم لليأس أمداً طويلاً ، إذ ما لبث
« توم » ، أن بدأ ينساب ثانية في خضم الحياة العادية . . وأخذ يتساءل : ماذا
يحدث إذا أدار لها ظهره الآن واختفى بطريقة غامضة ؟ ماذا يحدث لو أنه
رحل - - رحل إلى بلاد غير معروفة عبر البحار - - بغير أن يعود مرة أخرى
إلى هذا البلد ! ماذا سيكون شعورها عندئذ ! وعاودته فكرة العمل كبهلوان ،
ولكنها ملأته حنقا وغيظاً ، لأن الضحك والمرح أمران لا يتلاءمان مطلقاً
مع شخص يستشعر الكتابة التي يخلفها وراءه جب جريح الكلا ، سوف يصبح
جندياً ، ويعود بعد سنوات طويلة وهو منهوك القوى من فرط المعارك
التي خاضها . . كلا ، أيضاً . . إنه من الخير له أن ينضم إلى الهنود المحر
ويصطاد « سيد قشطه » ثم يمضي في طريق الحرب بين سلاسل الجبال والسهول
الشاسعة بالشرق الأقصى ، فإذا ما انقضت فترة طويلة من الزمن أصبح زعيماً
كبيراً ، يتزين بالريش ، ويطلق وجهه وبدنه بطلاء غريب . ثم تمضي الأيام ،
ويعود ذات صباح إلى مدرسة الأحد . ليطلق صيحة الحرب المألوفة ،
فيتأمله رفاقه القدامى بحسد . . لكن لا . . إن ذلك ليس هو كل
ما يطمح فيه . . ولربما كان من الأفضل له أن يصبح قرصاناً نعم . قرصاناً
لقد أصبح مستقبله واضحاً الآن . . سوف يصبح اسمه ملء الأسماع في الدنيا
كلها ، فإذا ذكر ارتعد الناس خوفاً وسوف يكتسح البحار العاتية
في سفينته الطويلة المنخفضة « روح العاصفة » ، وعلمه المخيف يرفرف فوق
مقدمها ! فإذا ما بلغ أوج شهرته ، عاد فجأة إلى القرية القديمة ، ومضى إلى كنيسة
وقد لفحت أشعة الشمس وجهه وبدأ في زيه الفريد من القطيفة السوداء
إنساناً ترتعد فرائص الناس من رؤيته ! يومذاك سوف يشير الجميع إليه باحترام
ويتهايمسون قائلين ها هو « توم سوير » ، القرصان ! - إنه المنتقم الأسود
الذي يثير الفزع في قلوب القراصنة الأسبان !

وهز الغلام رأسه دلالة على أنه قد فر من تقرير مصيره .. وقرر أن يهرب من المنزل ليحقق هذا الحلم الرابع .. وقرر أن يبادر بتنفيذ هذا القرار في صباح اليوم التالي . ومن ثم فقد أصبح لزاماً عليه أن يتهاً لذلك منذ الآن . فمضى من فوره إلى كتلة خشب قريبة ، وبدأ يحفر أسفل أحد طرفيها بالمدية التي أهدتها ماري ، له ، وسرعان ما أرتطم سن المدية بقطعة خشب ، فأدخل يده في الفجوة وراح يردد التعويذة التالية :

-- تعال يا من لست هنا ا وليبق هنا ما هو موجود من قبل ا

نم أزال الوحل ، فكشف عن لوح متفتت من شجرة صنوبر؛ فرفعه من مكانه ، فإذا بأسفله مخبأ كان الغلام يحتفظ فيه بكنوزه الخاصة ، وبداخل المخبأ رأى د توم ، كرة صغيرة من الرخام . فتملكته دهشة شديدة ، وحك رأسه بيده ، وقد بدت عليه الحيرة وقال :

-- حسنا . إن ذلك أمر يحار الإنسان في تعليه .

ودفع قطعة الرخام بعيداً عنه باحتقار ، وراح يفكر .. ولاعجب ، فقد فشلت بدعته ، تلك البدعة التي كان هو وزملاؤه يعتقدون اعتقاداً جازماً أنها لا يمكن أن تفشل في أى وقت من الأوقات . لقد كانوا يؤمنون بأنك إذا دفنت قطعة من الرخام وأنت تردد تعويذة معينة ، وتركتها في مكانها أسبوعين ثم عدت فنبشت المخبأ وأنت تردد التعويذة التي ردها هو منذ قليل ، فإنك تجد جميع قطع الرخام التي فقدتها في مناسبات أخرى وقد تجمعت في هذا المخبأ معها تباعدت المسافة بينها ا ولكن ها هو الإيوان ينهار من أساسه ، فكثيراً ما سمع بنجاح هذه البدعة ، ولكنه لم يسمع أنها أخفقت مرة واحدة ولم يخطر بباله أنه سبق له أن جربها مرات عديدة وأنه كان في كل مرة يفشل في العثور على المكان الذي أخفى فيه كنوزه ا .. وراح يفكر في الأمر فترة من الوقت وأخيراً قرر أنه من المحقق أن ساحرة مجهولة تدخلت في الأمر وفسدت التعويذة . وظن أنه يستطيع أن يستوثق

من صحة هذا الاستنتاج ، ومن ثم راح يبحث حوله حتى عثر على منطقة رملية صغيرة بها منخفض على شكل نفق فانبطح على وجهه ، ووضع فيه قريباً من المنخفض وصاح :

- « دودلباج ، دودلباج ، » أخبرني بما أريد أن أعرفه ، دودلباج ، ،
« دودلباج أخبرني بما أريد أن أعرفه :

وفي التواهت الرمل ، ولم تلبث أن برزت من داخله حشرة سوداء صغيرة أخذت تهتز لحظات ، ثم تملكها الفزع فغاصت في الرمل ثانية واختفت عن عيني « توم ،

قال « توم ، لنفسه : إن الشيطان لم يرد على ندائي . لا ريب أن ساحرة ، أفسدت كل شيء . ولقد كنت واثقاً من ذلك .

كان « توم ، يعلم أنه من العيب أن يحاول منازلة الساحرات ، ومن ثم فقد استسلم يائساً . . . بيد أنه خطر له أن يستعيد كرة الرخام الصغيرة التي ألقتها بعيداً ، فبدأ يبحث عنها بصبر ، ولكنه لم يستطع العثور عليها ، فعاد أدراجه إلى مخبأه ، واتخذ نفس الموقف الذي كان عليه حين قذف بقطعة الرخام ، ثم أخرج قطعة أخرى من جيبه ورماها في نفس الاتجاه . وهو يقول :

- اذهبي وابحثي عن أخنك !

وراقب قطعة الرخام وهي تسقط ، ثم مضى إلى مكانها ، وراح يتطلع . هنا وهناك ، ولكنه لم يعثر لها على أثر ، فكرر المحاولة مرتين . ونجحت المحاولة الأخيرة ، فقد عثر على قطعتي الرخام متقاربتين .

وفي تلك اللحظة سمع « توم ، صوت نفير من ذلك النوع الذي يلعب به الأطفال ، يأتي من بعيد ، وفي التواهت خلع « توم ، سترته وسرواله ، وحول (حالاته) إلى جزام ، ثم تقدم من بعض الحشائش الملاصقة لكتلة الخشب ، فأزاحها من مكانها ، وكشف عن سهم وقوس ، وسيف من الخشب وبوق

من الصفيح . وفي لحظة التقط هذه الأشياء جميعاً ، وانطلق يركض وهو حافي القدمين ، وأطراف قميصه تنطير في الهواء . ولم يلبث أن توقف عن الركض أسفل شجرة ضخمة ، ونفخ في نفيره ليجيب على النداء الذي سمعه . وبعدئذ أخذ يسير على أطراف أصابعه ، وقد بدا عليه التحفز وهو يتطلع إلى مصدر الصوت هناك . ثم قال بحذر كأنما يحذر زميلاً وهمياً :

— قف أيها الرجل المرح ابق في الخفاء حتى أطلق نفيري !

وفي هذه اللحظة ظهر « جو هاربر » ، وهو يرتدي زياً شبيهاً بذلك الذي يرتديه « توم » ، ويتسلح بأسلحة مماثلة . فصاح « توم » :

— قف ! من ذلك الجريء الذي يجرؤ على القدوم إلى « عابة شيروود »

بغير إذن !

— إنه « اجاي أوف جويسبورن » ، ولا حاجة به للحصول على جواز

للرور من أي إنسان . . من أنت ؟ !

فقاطعه « توم » قائلاً : كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه

اللہجة ؟

كانا يتكلمان حسبما (قرآه في الكتاب)

— من أنت حتى تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللہجة ؟

— أنا ؟ أنا « روبين هود » ، كما ستعرف بعد لحظات .

— إذن فأنت طريد القانون المشهور ؟ قف حيث أنت . . .

لأني أنتحداك !

واستل الاثنان سيفيهما الخشبيين ، وألقيا ببقية أمتعتهما على الأرض ،

ثم اتخذوا الأهبة للمبارزة .

وسرعان ما اشتبكا في قتال جندى حذر ، واندفعا يقباززان

بقوة حتى هشت أنفاسهما ، وانسـال العرق فوق جبهتهما . وبعد قليل
صاح « توم » :

— استسلم لي ا . استسلم . . لماذا لا تركع على ركبتيك ؟

— ان أفعل ! لماذا لا تركع أنت ؟ إنك لست صنوا لي ..

— أحقا ؟ ولكني لا أستطيع الاستسلام لك لأن ذلك يغيّر ما جاء
في الكتاب . . فالكتاب يقول « وبطعنة واحدة قتل جاي أوف
جويسبورن التعس » ، فعليك أن تستدير لي حتى أغمد حسامي في ظهرك .

ولم يكن ثمة مفر من النزول على حكم ما جاء في الكتاب ، فاستدار
« جو » . وتلقى الطعنة الوهمية ثم سقط على الأرض .

وقال « جو » وهو ينهض واقفاً : « الآن يجدر بك أن تدعني أقتلك ا
أظن أن ذلك هو ما يقتضيه العدل .

— ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه لا يتفق مع ما جاء
بالكتاب .

— مهما يكن . . من الندالة ألا تدعني أنتقد عليك ! !

— اصغ إلى « ياجو » يمكنك أن تلعب دور « فريار تاك » أو « ماش » ،
ابن صاحب الطاحون ، وأن تشبّك معي في مبارزة ، أر أن ألعب أنا دور
عمدة « نوتنجهام » وتلعب أنت دور « روبن هود » فترة قصيرة ، فهذا
وحده تستطيع أن تقتلني ... هكذا قالت الكتب ! !

وقبل « جو » هذا الحل ، وراح الغلامان يتبارزان ، وبعدئذ عاد
« توم » يتقمص شخصية « روبن هود » الذي تركته الراهبة الخائنة يفقد
نقواه بسبب الدم الذي نزف من جرحه ! ! وأخيرا ، قام « جو » بدور
جماعة من الخارجين على القانون ، جذبوا « روبن هود » وقدموا له قوسه

وسهمه وهم ينتحبون . . وأمسك د توم ، بالقوس والسهم في إعياء وقال :
د يجب أن تدفنوا د رويين هود ، النعس في المكان الذي يسقط فيه السهم .
تحت الشجرة الخضراء ، . . . ثم أطلق السهم ، وسقط فوق ظهره ثم
أسلم الروح وبعد لحظات ، انبعث واقفاً وقد بدا عليه المرح
الشديد .

وارتدى الغلامان ثيابهما ، وحملتا أدواتهما ، وانطلقا في سبيلهما وهما
يأسفان لأنه لم يعد يوجد في هذا العصر خارجون على القانون ، ويتساءلان
عما فعلته المدينة العصرية لتستعويض به عن فقدهم !! وقالتا انهما يتمنيان لو
أمكنهما أن يصبحا طريدي قانون ولو لمدة عام واحد في غابة شيروود ،
وأنهما يفضلان ذلك على أن يصبحا رئيسي الولايات المتحدة إلى الأبد !!

الفصل التاسع

مأساة في المقابر

أمرت العمدة «بولي» «توم» و«سيدني» بأن يأويا إلى فراشهما في الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة . . وبعد أن أدى الغلامان صلاتهما، صعدا إلى الفراش وسرعان ما راح «سيدني» في سبات عميق . أما «توم» فقد ظل مستيقظاً وقد تملكه الضجر الشديد . . وأخذ الوقت يمضي بثقل شديد حتى خيل للغلام أن النهار يوشك أن يطالع على الأحياء، ولكنه ما لبث أن سمع الساعة تدق العاشرة افتملكه اليأس . . . كان في استطاعته أن يتقلب ويتملبل حسبما كانت تقتضى حالة أعصابه المتوترة، ولكنه خشى أن يوقظ «سيدني»، إن فعل ذلك . ومن ثم فقد لاذ بالهدوء وراح يحملق في الظلام . . كان كل شيء ساكناً بشكل يثير الأعصاب . وبعد قليل سمع «توم» ضوضاء خافتة وأصوات مهمة أفشعر لها جسده : كما بدد السكون نعيقُ بومة بعيدة ، فانتفض «توم» ، — وأدرك أن شخصاً ما من سكان القرية سيموت قريباً . . . فازداد فرحاً . وبعد قليل بدأ النعاس يستولي عليه رغماً عنه . . ودقت الساعة الحادية عشرة ، ولكنه لم يسمعها : وبعد قليل ارتفع من الخارج صوت أشبه بمواء القطط ، ثم فُتحت نافذة الجيران ، وأخذ الجار ينهر القطط ، ثم ألقى بزجاجة في اتجاه المواء، فارتطمت بسياج منزل العمدة «بولي» ، وتحطمت ، وعندئذ تنبه «توم» . . وبعد دقيقة واحدة ، ارتدى ثيابه ، وتسلسل من النافذة، وأطلق مواء مشابهاً . . ثم تسلق السياج وهبط إلى الأرض فألقى «هاكليري فين» في انتظاره وهو يحمل قطته الميتة في يده ! . ومشى الغلامان ، وسرعان ما ابتلعها الظلام . . وبعد نصف ساعة كانا قد وصلا إلى السياج المتهدم الذي يحيط بمقابر المدينة !

كانت المقابر (جبانة) من الطراز الغربى العتيق ، أنشئت فوق تل
يبعد ميلا ونصف ميل عن القرية ، ولها سياج عريض مالت بعض أجزائه
إلى الداخل وبعضها الآخر إلى الخارج ، ولكن لم يكن به جزء واحد مستقيما
وكانت الأعشاب والحشائش تملأ كل مكان بالجبانة . أما المقابر نفسها
فقد كانت أبنية متداعية طمس الزمان ما سُجِّل على شواهدها من
أسماء الموتى .

وكانت نسمة خفيفة من الريح تهب فى تلك اللحظة فتحركت أغصان
الأشجار محدثة صوتا غامضا جمعا « توم » يخشى ان يكون هذا
الصوت صوت أرواح الموتى تحتج على انتهاكهما حرمتها . وتحدث الغلامان
أحدهما مع الآخر همسا لأن جدية الوقت والمكان كانت تستلزم ذلك .
كما أن الهدوء المقبض يثير أعصابهما . وبعد قليل استطاعا أن يعثرا على
كومة التراب التى كدست حديثا ، فاحتجبا وراء ثلاث شجرات ضخمة على
مبعدة أقدام قليلة من القبر .

وانتظرا صامتين فترة خيل إليهما أمها دهر طويل .. ثم هزق السكون
نعيق بومة قريبة فانتفض الغلامان ، وبدأت الوسوس تساور « توم » ،
وأيقن أن الموقف يستلزم الكلام ، ومن ثم قال هامسا :

- « هاك » ، هل تظن أن الموتى لا يرتاحون إلى وجودنا هنا ؟

فهمس (ها كبرى) بدوره : لست أعلم ولكنى أعتقد أنهم لا يرتاحون
إلى وجودنا

- وأنا أيضا أوافقك على هذا الراى

وساد الصمت مرة أخرى بين الغلامين .. وبعد قليل همس « توم » ،

- أخبرنى يا « هاك » ، هل تظن أن « هوس ويلياز » الميت

يسمعنا نتحدث

- بالتأكيد .. على الأقل ان روحه تسمعنا

فقال « توم » بعد صمت قصير :

— بودى لو أننى قلت « مستر ويليامز » ، ولكننى لم أقصد إهائته ،
فإن كل شخص يدعو « هوس »

— إن الإنسان لا يدقق كثيراً عند ما يتحدث عن الأموات يا توم .
واكتفى « توم » بهذا الرد ، ولاذ الغلامان بالصمت فترة أخرى ،
ولكن « توم » لم يلبث أن قبض على ذراع زميله بعنف وهمس :

— صه .

فهتف « هاكبرى » وهو يتشبث بذراع زميله وقد أخذ قلبهما
يطرقان بعنف :

— ما هذا يا « توم » ؟

— صه . لقد تكرر ثانية . ألم تسمعه ؟

— إننى . . .

— ها هو ، اصغ إليه . ألا تسمعه ؟

— يا إلهى يا « توم » . . . إنهم قادمون إليهم قادمون بكل تأكيد . .
ماذا نفعل ؟

— لا أعلم . . هل تظن أنهم سيروننا ؟

— بالطبع يا « توم » . . إن فى استطاعتهم أن يبصروا فى الظلام
كالمقطط . ليتنا لم نحضر .

— أوه . . لا تخف . . فأكبر ظنى أنهم لن يزعجوننا ، لأننا لا نأتى
أمراً إداً . . إلزم الهدوء الكامل ، فقد لا يلاحظوننا على الإطلاق .

— سأحاول يا « توم » . . ولكن ، يا إلهى . . إننى أتفض بشدة :

— اصغ ؛

وأطرق الغلامان برأسيهما معاً وحبسا أنفاسهما ، فسمعاهمهمة أصوات
آتية من الجانب الآخر من المقابر : وعندئذ همس « توم ، :

— انظر ؛ هل ترى ؟ ما هذا ؟

— اواه يا « توم ، ، إنه لشيطان مريع

رأى الغلامان أشباحاً مقبلة في الظلام ، وكان أحدها يحمل مصباحاً
عتيقاً يتأرجح أثناء سيره

وهمس « هاكلبرى ، في أذن « توم ، : من المحقق انها الشياطين ..

لأنهم ثلاثة .. لقد هلكتنا يا « توم ، .. هل تستطيع الصلاة ؟

— سأحاول ، لكن لا تخف هكذا ، فإنها لن تؤذينا و ..

— صه .. ا

— ما هذا ياهاك ،

— إنهم بشر . على الأقل واحد منهم آدمي .. إننى أسمع صوت

« ماف بوتز ، الكهل بين أصواتهم .

— أحقا ؟ هل أنت واثق من ذلك ؟

— أراهن على أن هذا صوته . لا تتحرك .. إن « بوتز ، ضعيف

البصر ولن يستطيع رؤيتنا . ثم إنه مخمور كالعادة .. ياله من كهل عريدا

— حسناً . سألزم الهدوء .. آه . ها هم قادمون ، إنهم يسرون ببطء ،

ولكنهم يسرعون الآن .. ثم ها هم يبطئون مرة أخرى ، ويعودون إلى

الإسراع من جديد .. يا إلهى ! إننى أعرف واحداً منهم يا « هاك ، .. إنه

، إنجان جو ،

.. هذا صحيح .. إنه ذلك السفاح الشرير .. ليتهم كانوا شياطين .

لأشد ما أعجب ما الذى جاء بهم إلى هنا ؟ .

وكف الغلامان عن كل همس ، فقد وصل الرجال الثلاثة إلى القبر
ووقفوا على مبعدة ثلاثة أقدام من مخبأ الغلامين .

وقال الصوت الثالث ، وكان صاحبه هو الذى يحمل المصباح ، ولم يلبث
الغلامان أن عرفا فيه « الدكتور روبنسون ، الشاب .

- ها هو قبره !!

كان « بوتر ، و « انجان ، يجزان عربة يد خشبية بها حبل ومجرفتان ،
فوضعا حملهما على الأرض وراحا ينبشان القبر . ووضع الطبيب
المصباح عند رأس القبر ، وجلس وظهره إلى إحدى الأشجار التى
اختبأ الغلامان خلفها بحيث لم تكن المسافة التى تفصلهما عنه تزيد على
أشبار قليلة .

وقال الطبيب فى صوت خافت : أسرعا بأرجلين ! فقد يظهر القمر فى
أية لحظة .

وأوما الرجلان برأسيهما ، ومضيا فى الحفر ، ومضت فترة لم يكن
يسمع فيها غير صوت المجرفين وهما يحملان الطين والحصى ويلقيان به بعيداً
محدثين همهمة بغیضة ، وأخيراً ارتطم أحد المجرافين بالتابوت محدثاً صوتاً
مخيفاً ! وبعد دقيقة أخرج الرجلان التابوت ووضعاه فوق الأرض . ثم
رفعا الغطاء بمجرفيهما . وأخرجاً جثة الميت وألقيا بها على الأرض فى خشونة .
وفى تلك اللحظة برز القمر وراء السحب فسقطت أشعته على الوجه الجامد .
وأسرع الرجلان يعدان عربة ، ووضعوا الجثة فوقها ، وغطياها بغطاء من
الصوف ، ثم ثبتاها فى مكانها بالحبل . وأخذ « بوتر ، مديّة من جيبه قطع
بها طرف الحبل ، ثم قال :

- أما وقد انتبهنا من كل شيء يا « دكتور ، فعليك أن تعطينا
خمسة دولارات أخرى وإلا فستبقى الجثة هنا . وقال « انجان ، : هذا صحيح !

فقال الدكتور : ما هذا ؟ لقد طلبتما أجركما مقدما ، فدفعته لكما .

فقال « انجان جو » ، : نعم وفعلت أكثر من ذلك !
وتقدم « انجان » من الطبيب الذي كان قد انبعث واقفاً في تلك الأثناء
وأردف :

— منذ خمسة أعوام طردتني من مطبخ أيبك عندما جئت ذات ليلة
أطلب شيئاً أطعم به ، وقلت إنني لم آت لغرض شريف ، وعندما أقسمت
أنني سوف أنتقم منك ، ألقى أبوك بي في السجن بتهمة التشرد ، فهل تظن
أنني نسيت ؟ إن دم « انجان » لا يزال يجري في عروقي . . . وها أنت الآن
في قبضتي ، ويجب أن تصفي حسابك معي . . . هل فهمت ! ؟

وراح « انجان » يهدد الطبيب ملوحاً بقبضة يده في وجهه ، وفي التو
سدد الطبيب لكمة ساحقة إلى فك « انجان » ألقته على الأرض ، فألقى
« بوتر » بمديته فوق الأرض وصاح :

— كفي يا هذا . . . لا تضرب زميلي ! .

وفي اللحظة التالية انقض « بوتر » على الطبيب والتحم الاثنان في
مركة حامية ، وفي سرعة خاطفة وثب « انجان » واقفاً على قدميه ، وقد
تمثل الشر في عينيه ، والتقط مدينة « بوتر » ، ثم بدأ يزحف كاهرة المتنمرة
وهو يدور حول المتقاتلين مترقباً الفرصة التي تمكنه من إخماد المدينة في قلب
الطبيب . وفي تلك اللحظة استطاع الطبيب ان يتخلص من قبضة « بوتر » ،
وأسرع فحمل الدعامة الرئيسية في قبر « ويليامز » ، ثم أهوى بها على « بوتر » ،
فسقط الرجل على الأرض ! ! عند ذاك رأى « انجان » فرصته سانحة فأغمد
المدينة حتى مقبضها في صدر الشاب . . . فترنح هذا ، وسقط فوق « بوتر » ،
مغبرقاً إياه في الدم . وفي اللحظة التالية حجبت السحب القمر . وكان
الغلامان قد ركبهما الفزع الشديد ، فاندفعا يركضان بجنون بعيدا عن ذلك
المنظر المرعب .

وعندما برز القمر من خلف السحب مرة أخرى ، كان « انجان جو » ،

يقف فوق الجريحين وهو يفكر . . وأخذ الطبيب يهذى بعض الوقت ، ثم لم يلبث أن شفق شهقة قوية ، وفاضت روحه ، بينما وقف « انجان » يقول :
لقد صفت حسابي معك . . عليك اللعنة ! .

ثم سرق ما كان القليل يحمل من مال ، وبعدئذ وضع المديحة في يد « بوتر » .
المفتوحة ، وجلس فوق التابوت المفتوح وهو يفكر تفكيراً عميقاً . .
ومضت ثلاث دقائق ، فأربع ، ثم خمس ، وعندئذ بدأ « بوتر » يتململ ويتأوه . وأطبقت يده على المديحة ، فرفعها وتطلع إليها ، ثم تركها تسقط وهو يرتعش .

واستوى « بوتر » جالساً وهو يدفع جثة الطبيب بعيداً عنه ، وحدث فيها ، ثم فيما حوله وهو يحس بدوار شديد . . وسرعان ما التفت عيناه بعين « جو » .

قال : يا إلهي ! كيف حدث ذلك يا « جو » ؟ .

فأجاب « جو » ، بغير أن يتحرك : إنه عمل قدر . . لماذا فعلت ذلك ؟

— أنا ! إنني لم أرتكب هذه الجريمة ! .

إصغ إلى ! إن مثل هذا القول لن يجد من يصدفه .

فانتفض « بوتر » وامتقع لونه . . ثم قال :

— كنت أظن أنني لست مخموراً ، فإنني لم أقرب الخمر هذه الليلة . .

ولكن يبدو أن رأسي ما زال متأثراً بالخمر بشكل أسوأ مما كان عليه . .

عندما جئنا إلى هنا . . الحق أنني مضطرب أشد الاضطراب ، وليس في

استطاعتي أن أجمع شتات أفكاري أو أتذكر ما حدث . . أخبرني يا « جو » .

وكن صادقاً يا صديقي — هل ارتكبتُ أنا هذه الجريمة ؟ « جو » . إنني

لم أقصد ذلك إطلاقاً — أقسم على ذلك بشرفي . . إنني لم أقصد قتله « يا جو » ! .

أخبرني ، كيف حدث ذلك . . يا إلهي . إنه شيء فظيع — إنه ما زال شاباً في مقتبل العمر ! .

فقال : « انجان » : إن ما حدث هو أنكما تماسكتما ، والتقط هو قطعة من شاهد القبر لطمك بها فسقطت على الأرض ، ولكنك بادرت بالوقوف وأنت تترنح وتمايل ثم التقطت المديّة وأغمدتها في صدره في الوقت الذي كان هو يسدد فيه إليك لطمه أخرى فسقطت على الأرض كقطعة من الصخر حتى لقد حسبتك ميتاً . . وظللت فاقد الوعي وقتاً طويلاً .

— أواه ! إنني لم أكن أعلم ماذا كنت أفعل . . كم أود أن أموت الآن . . لقد كان ذلك نتيجة لإفراطى في احتساء الخمر وما استولى على من ضياع فيما أظن ، فإنني لم أستعمل سلاحاً من قبل « يا جو » . . صحيح إنني اشتبكت في معارك كثيرة ولكنني لم أستعمل أسلحة على الإطلاق . إن الناس جميعاً يعرفون ذلك يا « جو » . . فلا تش بي اقل إنك لن تشي بي يا صديقي العزيز . . إنني طالما أحببتك ودافعت عنك . . ألا تذكر ذلك ؟ إنك لن تشي بي . . أليس كذلك يا « جو » ؟

وجثا الرجل التعس عند قدمي القاتل الشرير ، وضم يديه في ضراعة .
وقال « جو » : لقد كنت دائماً عادلاً معي يا « ماف بوت » ، ولهذا فلن أتذكر لك ، وأظن أن هذا هو أنبل ما يمكن أن يبديه إنسان من إخلاص ! ؟ .

— أواه يا « جو » . . إنك ملاك . . سأباركك من أجل ذلك ما حييت .

وانفجر « بوت » ، باكياً ، فقال « جو » :

— كفي ، فليس لدينا من الوقت ما نضيه في هذا السخف . . اسلك أنت ذلك الطريق ، وسأسلك أنا هذا الطريق . . هيا تحرك ، واحذر أن تترك أي أثر خلفك !

وتحرك « بوتر ، مبتعداً بخطى سريعة لم تلبث أن انقلبت إلى عدو ..
أما القاتل فظل ثابتاً في مكانه ثم غمغم :

— لقد نسي الأحق المدية ، واعتقد أنه لن يتذكرها إلا بعد أن ينتعد
عن هنا كثيراً ، وما أظنه سيجرؤ على العودة في طلبها .. ياله من جبان !

وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق لم يعد هناك من يتطلع إلى القتييل
والجثة المغطاة والقبر المفتوح غير القمر .. وساد الصمت الرهيب مرة
أخرى ! !

الفصل العاشر

النبوءة المخيفة لكلب يعوى

استمر الغلامان يركضان هاربين نحو القرية وقد عقد الرعب لسانيهما..
وكانا لا يكفان عن التطلع (من فوق كتفیهما) بين حين وآخر كأنهما
كانا يخشيان أن يتبعهما أحد ، وكان يخيل لهما أن كل جذع شجرة يصادفهما
رجل وعدو ، وكلما قابلا واحداً منها شهقا بقوة ، حتى إذا اقتربا من بعض
الأكواخ المشيدة على مقربة من القرية وسمعا نباح كلاب الحراسة يرتفع ،
ضاغفا من سرعتيهما . .

وقال « توم » لاهتا : لو أننا استطعنا أن نصل إلى المدينة القديمة لحسب
فعندئذ يمكننا أن نخفف من سرعتنا . إننى لا أستطيع احتمال هذا الموقف
المخيف أكثر من ذلك .

ولم يجب « هاكبرى » ، فقد كان يلهت بقوة . وركز الغلامان عيناهما
على الهدف الذى يسعيان إليه ويأملان فى بلوغه . . وظلا يتقدمان منه
تدرجاً ، حتى استطاعا أخيراً أن يبلغا المدينة جنباً إلى جنب ، واندفعا داخلين
عبر بابها ، ثم تهالكا فى الظل وقد أضناهما الإعياء . . وأخذت دقات قلبهما
تبطىء شيئاً فشيئاً إلى أن صارت طبيعية ، وعندئذ همس « توم » ،

— ماذا ستكون نتيجة ذلك يا « هاكبرى » ؟

— إذا مات الدكتور « روبنسون » فاعتقد أن « جو » سيشتق !

— ومن الذى يعرف أن « جو » هو القاتل ؟

— إننى أعرف أنه القاتل « ياتوم » ؛

فكّر ، توم ، قليلاً . . ثم سأل : ومن الذى سيشى به ؟ نحن ؟
— نحن ؟ ماذا تقول ؟ لنفرض أن شيئاً ما حدث ولم يشنق ، انجان جو ،
أليس من المحتمل والحالة هذه ، أن يقتلنا بعد ذلك مثلما قتل ، الدكتور
روبنسون ، ؟ .

— هذا هو ما أفكر فيه أنا أيضاً يا هاك ، .
— إذن فلندع مهمة الوشاية لماف بوتر إذا بلغت به الحماقة هذا القدر .
لأنه يكون عادة مخموراً ولن يستطيع السيطرة على لسانه .
وسكت ، توم ، — ومضى يفكر . وأخيراً همس :
— إن ، ماف بوتر ، لا يعرف شيئاً عن حقيقة تلك الجريمة يا «هاك»
فكيف يشن بانجان ؟ .

— وما السبب فى أنه لا يعرف ؟ :
— لأنه فقد الوعي قبل أن يقتل ، انجان ، الدكتور . . هل تظن أن
« بوتر ، كان يستطيع أن يرى شيئاً ؟ هل تظن أنه عرف شيئاً ؟ .
— يا إلهى . . هذا صحيح يا « توم » ، ا
— ثم . . من الجائز أن يكون ذلك الشرير ، انجان ، قد قتل
« بوتر ، أيضاً ا :

— كلا ، هذا غير محتمل يا « توم » ، . . لقد كان « جو » يدرك أن
« بوتر » مخمور ، كما كان يعلم على اليقين أن « بوتر » لا يعرف حقيقة ما حدث . .
ومن ثم يخيل لى أن « جو » أبقى على حياته ، ولم يفتك به .
وساد الصمت قليلاً مرة أخرى . . ثم قال « توم » :

— (هاك) . . . هل أنت واثق من أنك تستطيع أن تلوذ بالصمت ؟
— بل يجب أن نصمت صمت القبور يا « توم » . . إن ذلك الشيطان

« أنجان ، ان يتورع عن الفتك بنا إذا عرف أننا كنا في مسرح الجريمة او إذا وشينا به .. والآن ، ينبغي يا « توم » ، أن يقسم أحدهنا للآخر على أن نخلد إلى الصمت .

— إني أوافقك على هذا الرأي لأنه خير ما يمكن عمله في الوقت الحاضر .
هل يمكنك كل منا بيد الآخر ونقسم !

— أوه ! لا ، هذا القسم لا يجدي لأنه قسم عادي ، وكثيرا ما يمكن الحنث به -- إنما يجب أن يكتب القسم في مثل هذه الحالة وأن يسجل بالدم !

ونفر « توم » من الفكرة لأنها بدت له سوداء ، قاتمة ، مظلمة ، كئيبة .
ولكنه — رغم ذلك — لم يجد مفرأ من تنفيذها ، فالتقط لوحاً خشبياً نظيفاً كان ملقى على مقربة ، كما التقط قطعة حديد مديبة كانت قريبة منه ، وانتظر ريثما طلع القمر وراح يسجل القسم بصعوبة فوق اللوح وهو يؤكذ كل كلمة بقرعة يحدتها بلسانه !

وكان « ها كبرى » يراقب « توم » ، يا عجب لما كان يديه من سهولة في الكتابة وقدرة على التعبير ! !

وانتزع « ها كبرى » دبوساً من ياقة ستريته ، وهم بأن يغرسه في لحمه ولكن « توم » منعه من ذلك قائلاً :

— لا تفعل . . لا تفعل ذلك ، لأن الدبوس مصنوع من النحاس وقد يكون مسمماً .

مسمم ؟ .

— نعم ، ومن الجائز أن ينتقل جزء من السم إلى جسمك . . .

وأخذ « توم » يحل الخيط الملفوف حول إحدى إبرتيه ، وغرس كل من الغلامين سن الإبرة في طرف إبهامه ، وضغطه حتى سالت منه قطرة من الدم . واستطاع « توم » أن يرسم الحروف الأولى من اسمه فوق لوح الخشب مستخدماً طرف إبهامه كقلم ، ثم أطلع « ها كبرى » على الطريقة التي يرسم بها حرفي ه ، ف . وبذلك سيجل قسم الغلامين ، ودفنا اللوح قريباً من الجدار بعد أن غمغما ببعض التعاويذ ، وتعهدا بأن يمسكا لسانيهما عن الإشارة أو اللإساءة التي شاهداها في المقابر .

وفي تلك اللحظة تسلسل شبح من فجوة في الجدار المقابل ، من البناء المتهدم
« ولكن الغلامين لم يرياها .

همس « ها كبرى » : هل يُلزمنا هذا القسم بالآلة ذكر شيئاً عن هذا الحادث مدى الحياة ؟

— بالنأ كيد . . فمها يحدث يجب أن نلزم الصمت التام ، وإلا سقطنا
ميتين . . ألا تعرف ذلك ؟

— هذا حق ؟

ثم راح الغلامان يتهامسان فترة قصيرة من الوقت . وفي تلك اللحظة أخذ كلب ينبج نباحاً عالياً متواصلاً ، وكان هذا الكلب على مبعده عشرة أقدام من الغلامين ، فأسرع الغلامان يتشبثان أحدهما بالآخر وقد تمسكهما الفرع .

وسأل « ها كبرى » بصوت أجش : أينما هو المقصود بهذا النباح ؟

— لست أدري . . أسرع واخترس النظر من الفجوة .

— لا أستطيع . . إنني خائف . . إفعل أنت ذلك يا « توم » ،

— لا أستطيع . . لا أستطيع يا « هاك » ،

— أرجوك أرجوك يا « توم » . . إنني أسمع الصوت مرة أخرى

— أواه . يا إلهي : شكراً لله . . . إنني أعرف صوته . . . إنه الكلب .
« بول هاربيسون » !!

— هذا حسن يا « توم » ، الواقع أنني شعرت بأشد الفزع ، فقد خشيت .
أن يكون كلباً ضالاً .

ونجح الكلب مرة أخرى . . . وغاص قلبها الغلامين من جديد .

وهمس « هاكبرى » : رباها . إنه ليس « بول هاربيسون » . . . أليس .
كذلك يا « توم » ،

وتملك الفزع « توم » . . . ولكنه ألصق عينه بالفجوة . . . قال بصوت .
يشبه الهمس :

-- أواه يا « هاك » . . . إنه كلب ضال .

... أسرع يا « توم » . . . أسرع . . . من الذى يقصده هذا الكلب ؟

... لا ريب فى أنه يقصدنا معاً . . .

— إذن فقد هلكنا يا « توم » . . . إننى أعرف ماذا سيكون مصيرى . . .
فقد كنت دائماً ولداً شريراً . وغمغم « توم » ، بفزع : إن هذه نتيجة العيب .
والأعمال الشريرة . كان فى استطاعتى أن أكون ولداً طيباً مثل « سيدنى » .
لو أننى حاولت ذلك . . . ولكنى لم أفعل بالطبع . . . بيد أننى أقسم أن
أكون ولداً طيباً ، وأواظب على حضور مدرسة الأحد ، وأواظب على
الصلاة ، إذا قدرت لى النجاة من هذا المأزق .

وأردف توم سريعاً : أنظر يا « هاك » ، أنظر . . . لقد أولانا ظهره .

وتطلع « هاك » . . . وقد انعم قلبه سروراً ، ثم هتف :

— أنظر . . . إن ظهره تجاهنا فعلاً ! هل كان كذلك من قبل ؟

-- نعم . . . ولكنى بحماقتى ، لم أفكر فى ذلك . . . إنه الكلب « بول » .

بغير شك . . . لكن من الذى يعنيه ؟

وقف الكلب عن النباح ، وأرهف د توم ، أذنيه ثم همس : صه !
« ما هذا ؟ »

— يخيل إلى أنه شخير إنسان يا د توم ،

— هذا صحيح .. لكن أين هو هذا الإنسان يا د هاك ، ؟

— أعتقد أنه في الجانب الآخر من البناء . . أو هذا ما يبدو لي على كل
حال . . لقد اعتاد أبي أن ينام هناك في بعض الأحيان ، ولكنني لا أعتقد
أنه يجيء إلى هنا إطلاقاً الآن .

ومرة أخرى طغت روح المغامرة على الغلامين .

— هل توافق على متابعتي إذا تقدمتكم يا د هاك ، ؟

— لست مرتاحاً إلى ذلك يا د توم ، . فإنني أخشى أن يكون النائم
هو « انجان جو » !

وتردد « توم » لحظة ، ولكن الإغراء لم يلبث أن سيطر عليه ثانية .
واتفق الغلامان على القيام بالمحاولة ، على أن يطلقا الريح لساقيهما إذا توقف
الشخير . وبدأ سيرهما على أطراف أصابع أقدامهما ، أحدهما في المقدمة
والآخر في أعقبه . وعندما أصبحا على مبعده خمس خطوات من الرجل
النائم ، وطىء « توم » عصا كانت في طريقه دون أن يفتن إليها ،
فتحطمت ، محدثة صوتاً حاداً . . وتأوه النائم ، وتمليل قليلاً ، ثم حول
وجهه فسقطت عليه أشعة القمر .. لقد كان « ماف پوتر » ، وكاد قلبا الغلامين
يتوقفان ، وتمسكهما الارتباك عندما تحرك الرجل ، ولكن مخاوفهما
تبددت ، واستمررا في تقدمهما حتى خرجا من الفجوة التي في الجدار . وبعد
أن قطعاً مسافة لا بأس بها توقفا ليتبادلا كلمة وداع ، وعندما انطلق الكلب
ينبح بشدة مرة أخرى ! فتحول الغلامان نحو مصدر الصوت ، ورأيا
الكلب الغريب يقف على مبعده أقدام قليلة من الرجل النائم وهو يواجهه ،
وقد رفع أنفه نحو السماء !

صاح الغلامان في صوت واحد : يا إلهي ! إنه هو !
وأردف « ها كلبرى » : أخبرنى يا « توم » - سمعتم يقولون أن كلباً
غريباً نبح عند منزل « جونى ميلر » حوالى منتصف الليل منذ أسبوعين
تقريباً ، ولكن أحداً فى منزله لم يمت حتى الآن .
- أعرف ذلك . . . ولكن على فرض أن أحداً لم يمت ، ألم تُصب
« جراسى ميلر » بحروق مؤلمة يوم السبت التالى ؟
- نعم . بيد أنها لم تمت . . . وما هو أكثر من ذلك ، إن حالتها آخذة
فى التحسن .

- حسناً . . فلننتظر لنرى ما قد يحدث لها . . إنها هالكة لا محالة ،
مثلاً سيهلك « ماف بوتر » . هذا ما يقوله الزوج عن مغزى نباح الكلاب
الغريبة ، وهم يعرفون كل شىء عن مثل هذه الأمور يا « هالك » !
وافترق الغلامان وهما مستغرقان فى التفكير العميق . . وعندما تسلم
« توم » من نافذة غرفة نومه ، كان الليل قد أوشك على الانتهاء ، فأخذ
يخلع ثيابه بحذر شديد ، ثم استغرق فى النوم وهو يهين نفسه ، لأن أحداً لم
يعلم بأمر مغامرته ، ولكنه لم يفطن إلى أن « سيدنى » - الذى كان يشخر
بهدهد - كان فى الواقع مستيقظاً منذ أكثر من ساعة .

وعندما استيقظ « توم » من نومه ، كان « سيدنى » قد فرغ من ارتداء
ثيابه وانصرف . وتلفت « توم » حوله ، فإذا ضوء يسطع قوياً ، فتملكته
الدهشة الشديدة ، وراح يتساءل ، لماذا لم تناده عمته وتنهره كمعادتها حتى
ينفض من الفراش ؟ وازدادت حيرته ، فهض من فراشه على عجل ، وبعد
خمس دقائق كان قد ارتدى ثيابه وهبط إلى الطابق الأرضى وهو لا يزال يشعر
بالنعاس . وكانت الأسرة لا تزال تجلس حول المائدة وإن كانت قد فرغت
من تناول طعام الإفطار . . ولم يوجه أى توبيخ أو تقييد لتوم ، وإنما
لاحظ الغلام أن الجميع قد أشاحوا بوجوههم عنه ، وإذ لاذ الجميع بالصمت ،

خاص قلبه بين جنبيه ، وجلس فوق مقعده المألوف ، وحاول أن يتظاهر بالمرح ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فإن أحداً من الحاضرين لم يبتسم أو يستجيب لدعاياته ، وإنما ظلوا جميعاً صامتين .

وبعد أن فرغ « توم » من تناول طعام الإفطار ، انتهت عمته به جانباً فتلهل الغلام وتمنى لو أنها ضربته وقضت بذلك على التوتر الشديد الذى كان يعاني منه أشد العناء ، ولكنها لم تفعل ، وإنما انخرطت فى البكاء وسألته كيف جرؤ على ترك المنزل فجأة محطماً بذلك قلبها العجوز . . وأخيراً قالت له إنها ستدعه وشأنه ، يسلك السبيل الذى يروقه حتى لو أودى بحياته رغم ما فى ذلك من مرارة قد تحطم قلبها ، فتموت من فرط الحسرة والحزن على ذلك الغلام الذى يئست من إصلاحه . وكان ذلك القول أشد وقعاً على نفس الغلام من ضرب الشياطين ، فازداد ألمه وعذابه ، وانفجر باكياً ، وراح يناشدها الصفيح والغفران ، ويعدها بأن يسلك الطريق السوى ، وعندئذ صرفته عمته ، وهو يشعر بأنها لم تصفح عنه تماماً لضعف ثقتها به !!

ولم يستشعر « توم » أية رغبة فى الثأر من « سيدنى » هذه المرة ، ومن ثم لم يكن هناك ما يحمل « سيدنى » على التسلسل من الباب الخلفى خوفاً من « توم » . . ومضى « توم » إلى المدرسة بخطوات بطيئة وقلب مثقل ، وسرّ ، أن المدرس ضربه هو و « جو هاربر » ، لأنهما لعبا الهوكى فى اليوم السابق . ولم يشعر بألم الضرب ، فقد كان عقله منصرفاً تماماً إلى أحزانه وأشجانه . ثم جلس فى مكانه واعتمد بمرقبه على المنضدة ، واعتمد ذقنه براحتيه ، وحلق فى الجدار بنظرة جامدة شأن أى رجل بلغ عذابه أقصى مداه . وكان مرفقاه يضغطان على مادة صلبة ، وبعد وقت طويل عدل جاسته ببطء وحزن ، ثم التقط ذلك الشيء الصلب وهو يتهدد . . كان هذا الشيء ملفوفاً فى ورقة ، وفتح « توم » الورقة ، ثم تنهد تنهداً عميقة ، وتحطم قلبه . . فقد وجد بداخل الورقة المقبض النحاسى الذى أعطاه فى أمسه لبيكى .

وكانت هذه ضربة قاضية على آمال توم !!

الفصل الحارثي عشر

« توم » يؤنبه ضميره

حوالي ظهر اليوم التالي ، استولى الفزع على سكان القرية حينما بلغهم
النبأ المؤلم فجأة . . ولم يكن البرق قد اخترع بعد ، ولكن القصة سرت في
القرية كما تسرى النار في الهشيم . فكانت تنتقل من رجل إلى آخر ، ومن
جماعة إلى أخرى ، ومن منزل إلى آخر في لحظات ، حتى عرف كل شخص
في القرية تلك القصة المؤلمة ، واضطر ناظر المدرسة إلى منح تلاميذه عطلة
بعد ظهر ذلك اليوم . ولو أنه لم يفعل ذلك ، لحسبت القرية كلها سلوكه
غريباً !

قال الرواة إن مدينة ضخمة وجدت على مقربة من جثة القتيل ، وإن
شخصاً قال إن هذه المدينة ملك « ماف بوتر » . . وقيل أيضاً إن مواطناً كان
عائداً إلى منزله في ساعة متأخرة من ليلة ارتكاب الجريمة ، رأى « بوتر »
يغتسل في رافد النهر ، وكان ذلك في الساعة الثانية صباحاً ، وأن « بوتر »
بادر بالاختفاء حينما رأى ذلك المواطن — ولقد أثارت هذه الظروف ،
وبخاصة الاغتسال ، الريبة في أمر « بوتر » ، لأنه لم يعتد الاغتسال في النهر في
مثل ذلك الوقت المتأخر جداً من الليل . وقال الرواة أيضاً إن العمدة
ورجاله ينقبون في جميع أرجاء القرية باحثين عن هذا القاتل ، (ومعروف
أن الجمهور يحرص على تصفية الأدلة وإصدار حكمه في مثل هذه المناسبات) ،
ولكن العمدة ورجاله لم يستطيعوا العثور على أثر لبوتر . ومن ثم فقد أرسل
الفرسان في كل مكان للبحث عنه . ومضى الرواة يقولون ان العمدة يؤكد
أنه سيقبض على « بوتر » قبل حلول الليل !

وانطلق سكان القرية جميعاً إلى المقابر .. وسرى قلباً عن « توم »
فانضم إلى الموكب لا شيء إلا لأنه لم يستطع أن يتغلب على الإغراء الذي
سيطر عليه ودفعه إلى ذلك . وعندما وصل إلى المكان المشهور راح يتسلل
بجسمه الصغير بين المتفرجين ، إلى أن وقعت عيناه على المنظر البغيض ..
خيل إليه أن دهرأ قد مضى منذ أن جاء إلى هذا المكان ، وأحس بشخص
(يقرصه) في ذراعه ، فتلفت ليرى من يكون ، هذا الشخص . والتفت
عيناه بعني « هاكبرى » . وبعد لحظة ، كان كل منهما ينظر في اتجاه آخر
وهما يتساءلان عما إذا كان قد رآهما أحد ، وهما ينظران إلى أحدهما الآخر ،
وفهم المعنى الذي انطوت عليه نظراتهما .. ولكن جميع الموجودين كانوا
منهمكين في الحديث وفي تأمل المنظر الرهيب المائل أمامهم !

كانوا يقولون : مسكين هذا الشاب ! مسكين هذا الشاب ! يجب أن يكون
في ذلك درس للصوم المقابر ! سوف يشنق « ماف بوتر » جزاء له على
ارتكاب هذه الجريمة إذا قبضوا عليه .

وقال الواعظ : هذا حكم الله .. لا شك أن له يداً في هذه المأساة !
وانتفض « توم » من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في تلك اللحظة ، فقد
وقعت عيناه على وجه « إنجان جو » . وفي تلك اللحظة بدأت الجموع تلوح
وتتناضل ، وارتفعت أصوات تقول :

— إنه هو ! إنه هو ! ها هو قادم !

وانطلقت أصوات أخرى كثيرة تتساءل : — من هو . . . من هو ؟ .

— « ماف بوتر »

فقال قائل : ها هو قد توقف .. انظروا .. لقد استدار ليهرب ..

لا تدعوه يهرب !

وقال الأشخاص الذين كانوا يعتلون أغصان الأشجار فوق رأس

« توم ، إن « بوتر » لم يكن يحاول الفرار ، وإنما كان يبدو فقط متردداً مضطرباً .

فقال أحد الواقفين : يا للوَّح ! لقد أراد أن يلقي نظرة هادئة على ما جنته يدها .. ولا شك في أنه لم يكن يتوقع أن يجد أحداً هنا ..

وأفسح الجمهور الطريق للعمدة الذي أقبل في تلك اللحظة وهو يقود « بوتر » . من ذراعه .. وكان وجه الرجل التمس شاحباً جداً ، وقد تجسم الرعب في عينيه . وعندما وقف أمام جثة القتييل هز رأسه بعنف ثم غطى وجهه بيديه وانخرط في البكاء .. وقال بصوت أجش :

— إنني أرتكب هذه الجريمة أيها الأصدقاء .. أقسم لكم بشر في أنني لم أرتكبها .

فصاح أحد الواقفين : ومن الذي اتهمك بارتكابها ؟

وخيل للجميع أن هذه الرمية أصابت مقتلاً « فقد رفع « بوتر » وجهه وتلفت حوله وقد بدا عليه يأس قاتل .

ووقع بصره على « إنجان جو » ، فصاح : أواه يا « إنجان » .. لقد وعدتني .. بأنك لن ..

فقاطعه العمدة متسائلاً وهو يدفع المديّة أمام عينيه : هل هذه المديّة ملكك ؟

كاد « بوتر » يسقط على الأرض ولكن أحد المنجمين ساعده على النهوض .. ثم قال « بوتر » :

— إن هاتفاً قال لي إنني إذا لم أعد ..

وانتفض ، ثم لوَّح بيده في إشارة يائسة وقال :

— أخبرهم يا « جو » .. أخبرهم فلم تعد هناك فائدة من الصمت ..

وجده هاكبرى ، و د توم ، في مكانهما وراحا يصغيان الى د انجان . وهو يقص أكدوبته الكبرى بثبات عجيب . وكان الغلامان يعتقدان أن السماء الصافية سوف تبرق في تلك اللحظة احتجاجاً على هذا الكذب الممقوت ، او تنقض صاعقة فوق رأس الكاذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وعندما فرغ د انجان ، من سرد قصته ، وبقي واقفاً في مكانه دون أن يمسه سوء ، طغت على الغلامين رغبة في الحنث بقسمهما وإنقاذ حياة السجين البريء ، ولكن هذه الرغبة لم تلبث أن تبددت حينما أدرك الغلامان أن هذا الشرير د انجان ، باع نفسه للشيطان ، وأنه من خطل الرأي أن يتدخل في شيء أصبح العوبة في يد قوة الشر هذه .

سأل أحد النظارة : لماذا لم تهرب ؟ لماذا سمعيت إلى هنا ؟

فتأوه د بوتر ، وقال : لم أستطع الفرار .. لم أستطع الفرار لأن قوة خفية قاهرة كانت تدفعني للمجيء الى هنا ؟ واستأنف البكاء بحرقة .

وبعد بضع دقائق عاد د انجان جو ، يسرد قصته هذه بصوت هادئ . في أول جلسة للتحقيق .. ولما لم يبرق البرق ، آمن الغلامان أن د جو ، باع نفسه للشيطان حقاً !

وقرر الغلامان فيما بينهما ، أن يراقبا د جو ، ليلا عندما تحين لهما الفرصة . اعلمهما يستطيعان أن يريا لحظة من مولاة الخيف : الشيطان !

وساهم د انجان جو ، في رفع جثة القتيل ووضعها فوق عربة توطئة . انقلها ، وتهامس الحاضرون بان الجرح القاتل لم ينزف دماً كثيراً ، فظن الغلامان أن هذه الملاحظة العابرة سوف تحول الريبة إلى الاتجاه الصحيح ، ولكن خاب فآلهما ، إذ لم يلبث أكثر من قروى أن قال معقباً .

-- لقد سدد د بوتر ، الطعنة للطبيب على مبعدة ثلاثة أقدام فقط ولذلك لم ينزف الجرح دماً غزيراً .

ويبدأ « توم » يستشعر عذاب الضمير أثناء نومه طوال أسبوع كامل بعد الحادث وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار ذات صباح ، قال « سيدنى » :

— إنك تسكث من القلب في الفراش يا « توم » ، وتنطق بكلمات كثيرة لم أستطع معها أن أنام نصف الوقت الذى اعتدت أن أنامه !
وأحس « توم » أن قلبه قد تحجر بين جنبيه ، واصفر لونه .
وقالت العمدة « بولى » بلهجة جديدة : هذه علامة سيئة .. ما الذى يشغل ضميرك يا « توم »

— لا شيء .. لا شيء يا عمتى ..

ولكن يده ارتعشت ، حتى لقد انسكب منه قرح القهوة ، فقال « سيدنى » : — إنك تسكث من ترديد عبارات مخيفة . فقد سمعتك تقول فى الليلة الماضية « إنه دم .. إنه دم .. » ولقد كررت هذا القول المرة بعد الأخرى ، كما قلت « لا تعذبى هكذا -- سأقول كل شيء » ، فما الذى عساك تقول يا « توم » ؟

وغامت الدنيا أمام عيني « توم » ، ولم يدُر ما قد يحدث له ، ولكن حظه الحسن لم يخذله فى هذا الوقت الرهيب ، إذ لم يلبث وجه العمدة « بولى » أن انفرجت أساريره ، وقالت مُنقذةً إياه بدون قصد :

— آه ! إنها تلك الجريمة البشعة .. فإننى أحلم بها كل ليلة تقريباً . وفى بعض الأحيان أحلم بأننى مرتكبها !

فقال « مارى » ، إنها كانت تعاني نفس الإحساس ، وبدأ كأن « سيدنى » قد اقتنع بهذا القول . وانتهم « توم » أول فرصة عرضت له للتسلل من الغرفة ، وبعد أن زعم أن أسنانه تؤلمه ، وظل أسبوعاً كاملاً يطبق « فكيه على بعضهما بربط منديل حول رأسه ، ولكنه لم يكن يعلم أن

« سيدنى ، كان يرفع الرباط من مكانه أثناء الليل ويرتكز فوق مرفقيه ، وقد أدنى أذنه من شفتى « توم » ليستمع إلى ما يقوله أثناء نومه ، ثم يعيد الرباط إلى مكانه بعد ذلك .. ومع مضى الأيام بدأ اضطراب « توم » النفسى ينحسر شيئاً فشيئاً ، فتظاهر بأن أسنانه شفيت ، وبذلك تخلص من الرباط ... أما « سيدنى » فقد لاذ بالصمت المطبق ، فلم يحدث أحداً عما إذا كان قد فهم شيئاً من الكلمات المتقطعة التى كان يسمعها من « توم » أثناء هذيانه !!

وتغير « توم » تغيراً كبيراً . فبعد أن كان يتزعم حلقات يعقدها الصبية الصغار للتحقيق فى حوادث قتل الققط ، أصبح يضيق ذرعاً بهذه الحلقات . ولاحظ « سيدنى » أن « توم » لم يطالب فى هذه الجلسات بأداء دور المحقق ، مع أنه اعتاد أن يفعل ذلك فى جميع الجلسات السابقة ، كما لاحظ أن « توم » لم يقم أيضاً بدور الشاهد - وهو أمر غريب . كذلك لم يخف على « سيدنى » أن « توم » كان يبدي فتوراً ظاهراً حيال هذه الجلسات ، محاولاً تجنب الاشتراك فيها كلها استطاع إلى ذلك سبيلاً .. ورغم ما كان يساور « سيدنى » من دهشة إزاء سلوك « توم » إلا أنه لاذ بالصمت .. ومع ذلك فإن « توم » لم يلبث أن تخلص من ضيقه بهذه الجلسات ، وعاد إلى حالته الطبيعية بعد أن تضاعف تأنيب ضميره له !

وكان « توم » لا يفتأ يذهب كل يوم أو اثنين ، خلال تلك الفترة العصبية ، إلى سجن القرية حيث يُهرَّب كل ما يستطيع أن يُهرَّب به (مما يجلب الراحة) إلى السجن البرى .. فقد كان السجن عبارة عن غرفة عتيقة مشيدة عند طرف القرية ، ولم يكن هناك من يحرسها لأنها لم تكن تُستخدم إلا نادراً . ولقد ساعدت هذه المعاونات البسيطة على تهدئة ضمير « توم » !!

الفصل الثاني عشر

القطعة والدواء الذي يقتل الألم !

لم يكن « توم » ، قد أفاق بعد من هول الجريمة المروعة التي وقعت على
سرأى ومسمع منه ، عندما حلت به كارثة جديدة . . . فقد اختفت
« بيكي » ، ولم تعد تذهب الى المدرسة او ظل « توم » يناضل كبريائه أيا ما
قليلة ، وهو يحاول أن ينسى كل ذكرى للفتاة ، ولكن جميع محاولاته باءت
بالفشل . وسرعان ما بدأ يتسكع حول منزل أبيها ، فكان يقضى ساعات
طويلة من الليل وهو يتمنى أن يرى فتاة قلبه ، غير أن جميع آماله تبددت ،
فأحس بتعاسة ألوية . . وقال لنفسه إنها لا ريب مريضة . . فماذا عساه يفعل
لو اختطفها الموت ؟ او أذهلته الفكرة ، ولم يعد يهتم بالحرب ولا
بالقرصنة . كما فقدت الحياة بهجتها في عينيه ، ولم يبق فيها غير الكتابة
والانقباض .

وانصرف عن نفيده وأدوات قتاله ، ولم يعد يشعر بالميل الى العبث
الذي كان مولعاً به من قبل . . واهتمت عمته بالأمر . وبدأت تجرب جميع
ضروب العلاج معه ، فقد كانت من أولئك الأشخاص الذين يؤمنون
أعمق الإيمان بفائدة العقاقير (الجاهزة) وجميع (الوصفات) المستحدثة
للتمتع بالصحة أو استعادتها ؛ وكانت تجرب هذه الأشياء باستمرار . فكما
ظهر عقار جديد من هذا النوع ، كانت تنتابها حمى تجربته لا في نفسها ،
لأنها لم تشك يوماً من المرض ، وإنما في أى شخص يقع في يرائنها . .
وكانت العمدة « بولي » ، مشتركة في جميع مجلات « الصحة » ، الدورية ونشرات
أدعياء الطب ، إذ كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بجدوى ما اشتملت عليه هذه

النشرات من سخافات عن أحدث وسائل التهوية ، وكيف يأوى المرء إلى فراشه ، وكيف يستيقظ ، وماذا يأكل ، وماذا يشرب ، وما مقدار الرياضة البدنية التي يجب أن يحصل عليها ، والحالة العقلية التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان ، ونوع الملابس التي يرتديها . . كل ذلك كان مقدساً في نظرها ، ولكنها لم تكن تلاحظ مطلقاً أن ما تحملها لها هذه النشرات اليوم يناقض ما حملته إليها منذ شهر مضى ، فقد كانت سيدة بسيطة طيبة القلب ، ولهذا كانت فريسة سهلة لذلك الغش والتضليل !

وكان العلاج بالماء قد ظهر في ذلك الحين ، فرأت العمّة « بولى » فيما طرأ على « توم » من هزال وكآبة فرصة سانحة لتطبيق هذا العلاج . . فكانت تصحبه كل صباح إلى حظيرة بقرتها حيث تسكب عليه كثير من الماء البارد ، ثم تجفف جسده بمنشفة خشنة كالمبرد ، وتعود به إلى المنزل بعد ذلك ، ثم تلفّه في غطاء مبلل بالماء ، وتغطيه (بالأغطية الصوفية) إلى أن تتطهر روحه

ورغم كل ذلك ازداد حزن الغلام ، واشتد اصفرار وجهه ، وتدهورت صحته ، فأضافت العمّة « بولى » إلى ذلك العلاج ، الحمامات الساخنة وغيرها من مختلف أنواع التطبيب ، ولكن الغلام ظل على كآبته وشروده . وعندئذ عززت العلاج بالماء بوجبات من الشوفان واللصقات ، كما أخذت تقدم له مقادير كبيرة من العقاقير « التي تشفى كل مرض » !

ولم يعد « توم » يبالي بهذه الألوان المختلفة من التعذيب . . ولكن عمته بدأت تضيق ذرعاً بحالته ، وصممت على القضاء على ما يديه من عدم مبالاة بأى ثمن . . وفي هذه الأثناء سمعت العمّة « بولى » عن الدواء الذي يقتل الألم ، لأول مرة ، فطلبت كمية منه ، وما كادت تحصل عليه وتذوقه حتى أحست ببرد الراحة يدب في قلبها . . لقد كان شديداً بنار في شكل سائل . وفي الحال قررت العدول عن العلاج المائي وجميع أنواع العلاج الأخرى

إيماناً بمفعول هذا الدواء الجديد . . . وقدمت لتوم ملعقة منه وراحت تراقبه بمنتهى القلق لترى النتيجة ، وسرعان ما اختفت مخاوفها ، وسرى الهدوء إلى نفسها ، فقد انحسر « عدم المبالاة » عن الغلام مباشرة وأبدى اهتماماً أكثر مما كان يبديه لو أنها أشعلت ناراً تحته . . .

وأدرك « توم » أن الوقت قد حان للخروج من عزلته . . . صحيح أن هذا اللون من الحياة قد يكون ملائماً لحالة الجمود التي يعانها ، ولكن الموقف يستدعى إعادة النظر في ذلك اللون من الحياة ، ومن ثم راح يستعرض مختلف الخطط التي تحقق له الخروج من هذه العزلة ، وسرعان ما تذكر الدواء « قاتل الألم » ، وأدرك أنه وجد فيه ضالته المنشودة ، فأخذ يطلب تناوله بكثرة ، حتى تضايقت عمته من إلحاحه فأعطته الزجاجة ليتناول منها ما يشاء وقتما يشاء كيلا يزعجها بالطلب ولو كان « سيدنى » هو الذى طلب الحصول على الزجاجة لأعطتها له وهى مطمئنة ، ولكن نظراً لأن « توم » هم الذى استولى عليها ، فقد دأبت على مراقبتها باهتمام . ولم تلبث أن تبينت أن محتويات الزجاجة تنقص باستمرار ، ولكن لم يخطر ببالها أن الغلام كان يسد شقاً فى أرض الغرفة بهذا الدواء ولا يتناوله .

وذات يوم كان « توم » يتهياً لسكب الجرعة فى الشق عندما أقبلت قطة عمته الصفراء وهى تقر وتتأمل الملعقة باهتمام كأنما تتوسل إلى الغلام أن يذيقها الدواء .

قال « توم » : لا تطلبى تذوقه إلا إذا كنت بحاجة إليه .

وأتت القطة بحركة من رأسها تدل على رغبتها فى تذوق الدواء .

قال « توم » يحسن بك أن تتأكدى من حاجتك إليه

ومرة ثانية هزت القطة رأسها

— مادمت تصيرين على تذوقه فسأجعلك تتذوقيه ، إذ ليس هناك ما يمنع

من ذلك ، لكن لم يعجبك مذاقه فلا تلومى إلا نفسك .

وملأ د توم ، الملعقة وأدناها من فم القطة . . ففتحت القطة فمها ،
وسكب د توم ، محتويات الملعقة فيه ، وفي التو وثبتت القطة د ياردين ،
في الهواء ثم أطلقت هواء شديدا وأخذت تثب في جميع أرجاء الغرفة وهي
ترتطم بقطع الأثاث ، وتسقط أواني الزهور ، وتثير الفوضى في كل ركن
وبعدئذ وقفت على قائمتيها وراحت تدور حول نفسها كأنما استخفها الطرب
أو تملكها الجنون فانطلقت في كل مكان مشيرة الفوضى حيثما حلت . .
وفي تلك اللحظة دخلت العمدة د بولي ، الغرفة ، فوجدت القطة تؤدي
بعض حركاتها البهلوانية المعجبية ، وكأنما أرادت القطة أن تنهى عرضها
البهلواني الرائع في تلك اللحظة فقذفت بنفسها من النافذة ، جاذبة معها ما تبقى
من أواني الزهور وهي في طريقها إلى الفضاء . . فحمدت السيدة العجوز في
مكانها وقد استولت عليها دهشة شديدة ، وراحت تتطلع إلى القطة من فوق
حافة عوينانها ، بينما أغرق د توم ، في الضحك حتى استلقى على قفاه
فوق الأرض .

— قالت العمدة د بولي ، :

— د توم ، ماذا بحق السماء يؤلم القطة ؟

فقال د توم ، لاهثا : لست أدري يا عمته

— إنني لم أرها علي هذه الحال في يوم من الأيام يا د توم ، فماذا جعلها
تتصرف هكذا ؟

فأجاب د توم ، باهجة رزينة : أؤكد لك إنني لا أعلم يا عمتي ! بيد أن
ما أعلمه هو أن القطط تحب التمثيل عندما يستخفها الطرب .

— أحقاً ؟

— نعم يا سيدتي . . هذا ما أعتقده .

— تعتقده ؟

— نعم يا سيدتى .

ومالت العمة « بولى ، فوق « توم ، ، فراح « توم ، يراقبها باهتمام لا يخلو من القلق . ولكنه تبين ما ترمى إليه بعد فوات الأوان ، فقد رأت طرف الملعقة بارزاً من أسفل السرير ، فالتقطتها ، وتأملتها . فأنكش « توم ، ، وغض من بصره ، وفي التو مدت يدها وأمسكت بأذنه وراحت تضغطها بقوة . ثم قالت :

— والآن أخبرنى يا سيدى . . ما الذى جعلك تعالج هذا الحيوان الأبيكم ؟

— لقد فعلت ذلك لأن القطعة لا عمة لها .

— ليست لها عمة ! — ولكن ما لذلك وإزغامها على تناول الدواء ؟

— إن الأمرين متصلان أوثق اتصال . فلو أن لها عمة لما أعطتها هذا

الدواء الذى يلعب الأحشاء .

وأحست العمة « بولى ، بتقريع الضمير فجأة ، فقد كانت عبارة الغلام أشبه بسوط ألهب ظهرها . فما يعتبر قسوة بالنسبة للقطعة يمكن أيضاً أن يكون قسوة بالنسبة للغلام . . ورق قلبها ، وشعرت بالأسف ، وترقرقت الدموع فى عينيها ، ووضعت يدها على رأس « توم ، وقالت له برفق :

— لقد أردت لك الخير يا « توم ، . . ولا شك فى أن هذا الخير قد

تحقق !

فتاملها « توم ، ملياً ، وقد التمت عيناه ببريق الاهتمام . وقال :

— إننى أعلم أنك تنشدين لى الخير يا عمتى ، وهذا أيضاً ما أردته أنا

للقطة ! . لقد شفاها الدواء . فمنذ أن قفزت من النافذة وأنا لا أراها

تسكع هنا . .

— أوه ! لافعل ما بدالك يا « توم ، فإننى أشعر بأنك تسعى لإثارتى

سحرة أخرى . لكن أرجوك أن تحاول أن تصبح غلاماً مطيعاً ولو مرة واحدة ، وعندئذ لن تكون بحاجة إلى تناول مزيد من الدواء .

* * *

ذهب «توم» ، إلى المدرسة قبل الموعد المحدد ، وقد لوحظ تكرار هذه الظاهرة العجيبة يوماً منداً أن استأنف «توم» الذهاب إلى المدرسة . وطبقاً لما جرت عليه عادته مؤخراً ، فقد انفرد «توم» بنفسه على مقربة من باب الملعب بدلاً من أن يشترك مع زملائه في اللعب . . قال لهم إنه مريض ، وكان منظره يدل على ذلك ، وحاول أن يتطلع إلى كل مكان ، ولكن الواقع أنه كان يكتر من التطلع إلى الطريق العام . وبعد قليل أقبل «جيف» ناشر ، «فهلل وجه «توم» ، وحدث في الغلام قليلاً ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه وقد تملكه الأسف . . وعندما وصل «جيف» ، استقبله «توم» ، وحاول أن يدير دفة الحديث نحو «بيكي» ، ولكن «جيف» لم يذكر شيئاً يشفي غليل «توم» ، حتى لقد ضاق هذا به فانصرف عنه . . وراح يراقب ويراقب لعله يلمح «بيكي» ، ولكن خاب فأله فانتابه اليأس ، ودخل قاعة الدراسة وقد بدا عليه الملل . وفي تلك اللحظة السوداء رأى الفتاة تدخل من باب المدرسة فدفق قلبه بين ضلوعه ، وفي اللحظة التالية كان يندفع إلى الخارج وهو يصبح ويضحك ويدفع الفتيات هنا وهناك ، ويثب من فوق السياج معرضاً حياته للخطر ، ويقوم بحركاته البهلوانية المعتادة وهو يتطلع خلسة إلى «بيكي» ، ليرى أن كانت قد لاحظته . ولكن يبدو أنها لم تنتبه لكل ما فعله ، لأنها لم تتطلع نحوه على الإطلاق . . فراح يتساءل : هل من المعقول أنها لم تنتبه لوجوده ؟ . . واقرب منها كثيراً ، وهو يطلق صيحة الحرب ، واختطف قبعة أحد التلاميذ وقذف بها نحو السقف ، واندفع بين جماعة من الغلمان ففرقهم في كل اتجاه ، وسقط بدوره

على الأرض عند قدمي د بيكي ، حتى كاد يسقطها أيضا - ولكنها تحولت
عنه وقد شمخت بأنفها في الهواء ، وسمعتها تقول : يا إلهي ! إن بعض الناس
يظنون أنهم ظرفاء - ولهذا يلجأون دائما إلى حركات بهلوانية بغية
ليبرهنوا على أنهم ظرفاء .

وأحس د توم ، بخديه يلتهبان ، ونهض مبتأقلا ، ثم تسلل مبتعدا وكان
صاعقة قاتلة قد انقضت فوق رأسه !!

الفصل الثالث عشر

قراصنة البحار يبحرون

حزم و توم ، أمره ١١ . كان مكتئباً يائساً . قال لنفسه إنه غلام
حنبوذ لا صديق له ، وليس هناك من يحبه ، وأن الناس قد يأسفون من
أجله حينما يتبين لهم أنهم هم المسئولون عما قرر أن يقدم عليه . فقد
تدل قصارى جهده ليستقيم ولكنهم لم يمكنوه من ذلك ، لأنهم يريدون
التخلص منه ١١ وما دام الأمر كذلك ، فليكن لهم ما يريدون ، وليلوموه
-- إن شاءوا -- على النتائج -- إذ ما الذي يمنعهم من لومه حينما يستحق الأمر
لوما ؟ وأي حق لمن لا صديق له في الشكوى ؟ نعم ، إنهم هم الذين أرغموه
على سلوك هذا السبيل الشائك في النهاية ، ومن ثم فقد تعين عليه أن يحيا
حياة الجريمة ١١

وفي هذا الوقت ، كان قد قطع شوطاً بعيداً في طريق ميدواين ،
وتناهى إلى سمعه صوت ناقوس المدرسة وهو يندق ، وهنا طفرت الدموع
من عينيه ، فقد أيقن أنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى -- لقد كان
ذلك أمراً عسيراً ، ولكنه أرغم عليه إرغاماً ، وما دام الجميع يصرون على
أن يقدفوا به إلى عالم الجريمة ، فعلى رسلمهم -- ولكنه يعفو عنهم . . .

وازداد نحيبه ، وفي تلك اللحظة ، التقى برفيق روحه ، د جوهاربر ،
وكانت نظرات الغلام د جو ، تدل على أنه انتوى أمراً . . كان من الواضح ،
وإن اختلف الغلامان من ناحية التكوين البدني ، أنهما يفكران في شيء
واحد . وجفف د توم ، عينيه بكمه ، وبدأ يتمم بكلمات متقطعة تشف عن
تصميمه على الهرب من هذه الحياة الشاقة ، والتخلص مما يلقاه من معاملة

خشنة في المنزل ، والانطلاق في العالم الفسيح بغير أن يفكر يوماً في العودة . إلى هذه الحياة المثقلة بالقيود والأغلال . وختم حديثه بالإعراب عن أمله في ألا ينساه « جو » .

ولاشدما كانت دهشة « توم » حينما قال له « جو » إن هذا الذي وطن عزمه عليه هو عين ما صمم عليه بدوره ، وأنه إنما جاء يبحث عنه ليفضى إليه . بهذا القرار . . . فقد ضربته أمه بالسوط ضرباً مبرحاً لأنه شرب قليلاً من القشدة « الكريمة » التي لم يسبق له أن تذوقها ، والتي لم يكن يعرف شيئاً عنها . وكان يؤمن بأن أمه غير راغبة فيه وترجو أن يذهب عنها . وما دامت هذه رغبتها فإن « ن خطل الرأي ألا ندعن لها . . . وأضاف « جو » أنه يرجو لأمه كل خير ، ويأمل ألا تأسف يوماً على أنها قذفت بابنها المسكين في خضم الحياة ليتعذب ويموت !

وبينما كان الغلامان يسيران جنباً إلى جنب وهما يتجاذبان أطراف . هذا الحديث الحزين ، تعاهد كل منهما على الوقوف بجانب الآخر وألا يفترقا أبداً حتى يريحهما الموت من متاعبهما . . ثم راحا يرسمان خططهما . . قال « جو » إنه سيصبح ناسكاً يعيش على الفتات في كهف سحيق ثم يموت من شدة البرد والحرمان والحزن . . ولكنه ما كاد يصغى إلى خطة « توم » حتى سلم بأن حياة الجريمة مزاياها . . ووافق على أن يصبح قرصانا !

على مسافة ثلاثة أميال وأسفل مدينة « سانت بيتربورج » ، وعند نقطة لا يزيد اتساع نهر المسيسيبي فيها عن ميل ، توجد جزيرة ضيقة طويلة مغطاة بالغابات ، لها حاجز ضحل عند رأسها ، وتأمل الغلامان المكان بعيون فاحصة ، ثم قررا أن تصبح جزيرة « جاكسوب » ميدانا للمغامراتهما . ولكن لم يخطر ببالهما في تلك اللحظة أن يختارا ضحايا قرصنتهما . . وبعدئذ ، ضميا للبحث عن « هاكبرى فين » ، وما كادا يعرضان عليه ما قرراه حتى انضم إليهما بلا تردد أو إبطاء لأن جميع سبل الحياة كانت عنده سنواه . . وبعد

قابل تفرق ثلاثهم على أن يتقابلوا في ساعة معينة - هي منتصف الليل -
في مكان منعزل على شاطئ النهر يبعد حوالي ميلين عن القرية على أن
يحضر كل منهم أدواته ، وما يستطيع أن يسرقه من المواد الغذائية الموجودة
في منزل أسرته - ولا عجب في ذلك .. ألم يقرروا الخروج على القانون؟
وقبل أن يحين المساء كان ثلاثهم قد نشروا في طول القرية وعرضها أن
المدينة سوف تسمع شيئاً مثيراً ، في القريب العاجل ولكنهم حرصوا
على مطالبة من أنضوا إليهم بهذا ، النبا المثير ، بالالتزام الصمت وترقب
الأحداث !

وحوالي منتصف الليل ، وصل د توم ، ومعه (فخذة خنزير مسلوقة)
وأشياء أخرى تافهة ، ووقف فوق منطقة مرتفعة تشرف على مكان اللقاء
وكانت السماء مرصعة بالنجوم في تلك الليلة كما كان السكون شاملاً .. أما
النهر العظيم فكان يبدو كهو هاديء في تلك اللحظة .. وأصاح د توم ،
السمع لحظة ولكنه لم يسمع شيئاً يعكر صفو السكون ، وعندئذ أطلق
صغيراً معيناً ، وفي التو سمع صغيراً مماثلاً صادراً من أسفل الربوة التي كان
يقف فوقها .. وصفر د توم ، مرتين ، فأجيب على هذه الإشارة بمثلها ..
وبعدئذ قال صوتاً بحذر :

من هناك ؟

- د توم سوير ، المنتقم الأسود .. ومن أتما ؟

- د هاك فين ، المشهور باسم د رد - هاند ، و د جو هاربر ،
المشهور باسم د فزع البحار ، .. كان د توم ، هو الذي أطلق عليهما هذين
الاسمين المستمدين من الكتب التي طالعها وأحبها قال : هذا حسن ..
ما هي كلمة السر ؟

ونطق الغلامان بعين الكلمة الخيفة في وقت واحد بلهجة جوفاء ..

قالا : الدم

وعندئذ قذف لهما « توم » ماجلبه معه ، ثم وثب في إثر ما ألقاه ، فتمزقت ثيابه ، وتسليخ جلده ولكنه لم يبال .. وانضم إلى زميله في ذلك الطريق السهل الذى يمتد بطول الشاطئ أسفل المرتفع الذى وثب منه .

كان « فزع البحار » قد أحضر معه كتلة ضخمة من لحم الخنزير المملح ، أما « فين رد - هاندد » فقد سرق مقلاة ، وكمية من التبغ ، وعددا قليلا من سيقان أشجار الحبوب ليتخذ منها غلايين . بيد أن أحداً من زميله القرصانين لم يكن يدخن أو يمضغ التبغ ، ومن ثم فقد كان استهلاك هذا التبغ مقصوراً عليه .. وقال « المنتقم الأسود » : لا جدوى من البدء بالمغامرة بغير إشعال نار .. وكانت فكرته حكيمة لأن الثقب لم تكن معروفة في تلك الأيام كما هى الحال الآن .. ولقد رأوا ناراً تشتعلة فوق عائمة على مبعده مائة ياردة ، فقرروا الحصول على جانب منها . وجعلوا من ذلك مغامرتهم الأولى ، وأخذوا يقتربون من العائمة المثبتة إلى الشاطئ بحذر ، وهم يهمسون بكلمة : « صه ! بين حين وآخر . ثم لم يلبثوا أن توقفوا عن السير ، وقد وضع كل منهم أصبعه فوق شفثيه محذراً زميله ، وهو يحرك يده في اتجاه مقبض خنجر وهمى ، ويصدر أوامره إلى زميله بصوت هامس . فقال توم « إذا تحرك العدو أغمداً خنجر يكما في صدره إلى نصلهما ، لأن « الأموات لا يتكلمون » . ولما كانوا يعلمون يقينا أن أصحاب العائمة ذهبوا إلى القرية لشراء مئوتهم أو لقضاء بعض الوقت ، فقد عمدوا على الفور إلى الاستيلاء على العائمة ، وأطلقوها في النهر تحت قيادة « توم » بينما تولى « جو » أمر المجداف الأمامى « وهالك » ، أمر المجداف الخلفى . ووقف « توم » فى منتصف العائمة ، وعقد ذراعيه فوق صدره ، ثم بدأ يصدر أوامره إلى زميله بصوت هامس .

وتجاوزت العائمة منتصف النهر ، ووجه الغلمان مقدمها ناحية اليمين .

ثم ألقيا مجدافيهما جانبا .. ولما كان المد منخفضاً في تلك الليلة ، فإن سرعة التيار لم تكن تزيد على ميلين أو ثلاثة أميال .. ومضت ثلاثة أرباع الساعة بغير أن ينطق أحدهم بكلمة ، وكانت العائمة تمر في تلك الأثناء بالمدينة البعيدة التي نام أهلها بسلام بغير أن يفطنوا إلى ذلك الحدث الضخم الذي كان يجرى في تلك اللحظة .. ووقف المنتقم الأسود ، ثابتاً في مكانه ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره وهو يلقي نظرة أخيرة على مسرح مباهجه السابقة وآلامه الأخيرة ، ويتمنى لو ، أنها ، تستطيع أن تراه في تلك اللحظة ، وهو يركب البحر العاتي ، ويواجه الخطر والموت بقلب لا يهاب ، في طريقه إلى مصرعه وعلى شفثيه ابتسامة .. كذلك كان القرصانان الآخران يلقيان بدورهما نظرة أخيرة على القرية .. وظلت العائمة منطلقة في سبيلها ، وتصادف أن دفعها التيار خارج نطاق الجزيرة ، ولكن الصبيان اكتشفوا الخطر في الوقت الملائم ، واستطاعوا أن يتجنبوه ويوجهوا العائمة إلى نقطة آمنة عند رأس الجزيرة .. ولما شدوها إلى الشاطئ ، بدأوا يفحصون محتوياتها .. فعثروا على شراع قديم ، حملوه معهم ونشروه فوق كهف بين الحشائش ليتخذوا منه مخبأ لطعامهم . أما هم ، فقد قرروا أن يناموا في العراء ما دام الجو معتدلاً ، شأنهم في ذلك شأن القراصنة والخارجين على القانون ١١ .

وأوقدوا ناراً بجانب كتلة ضخمة من الخشب تبعدها إلى ثلاثين خطوة عن حافة الغابة ، وطهروا قطعة من لحم الخنزير في المقلاة ، ثم تناولوا عشاءهم ، وهم ينعمون بأعظم قسط من السعادة ، اعتقاداً منهم أنهم تحرروا من كل قيد . واحتلوا الجزيرة العذراء غير المأهولة التي لا يفكر أحد من البشر في المجيء إليها . . وتعاهد ثلاثتهم على ألا يعودوا إلى المدينة ، مطلقاً .

وإذ فرغوا من تناول الطعام ، تمددوا فوق الحشائش ، وهم يشعرون بأشد الارتياح .

وقال « توم » : أليست هذه حياة مريحة ؟

فقال « جو » : إنها رائعة . . ماذا عسى الصبيان يقولون لو استطاعوا رؤيتنا ؟

— يقولون ؟ لا شك في أنهم سيتلهفون على المجيء إلى هنا . . أليس كذلك يا « هاك » ؟

فأجاب « ها كبرى » : أظن ذلك . . مهما يكن من أمر ، فإن هذه الحياة تلائمني ، فأنا لا أتوق إلى شيء أفضل من ذلك . . لأنني لم أحصل على كفايتي من الطعام في يوم من الأيام — ثم إنهم لن يستطيعوا المجيء إلى هنا لمطاردتي .

فقال « توم » : إن هذا هو لون الحياة الذي يعجبني ويعجبك ، فإنك لا تضطر إلى النهوض من الفراش مبكراً في الصباح ، ولا تضطر إلى الذهاب للمدرسة ، وإلى الاغتسال ، وإلى كل تلك السخافات التي كنا نلام عليها . . أما « جو » ، فإنني حزين من أجله ، لأنه عندما يصبح ناسكاً ، سوف يضطر إلى الإكثار من العبادة ، وبذلك سيُحرم من كثير من المتعة والمرح .

فقال « جو » : آه . . هذا صحيح ، ولكنني لم أفكر كثيراً في هذا الموضوع كما تعلم . وعلى كل حال ، لقد أصبحت أفضل الآن أن أكون قرصاناً بعد أن جرّبت القرصنة . .

فقال « توم » : إن الناس لا يهتمون بالدين كثيراً في هذه الأيام مثلما كانوا يفعلون في سابق العصر والأوان . ثم إن من ضرورات حياة الناسك أن ينام فوق أصلب مكان يستطيع العثور عليه ، وأن يضع قماش الجوارات والرماد فوق رأسه ، وأن يقف في العراء أثناء هطول المطر . . .

فسأل د هاك ، : ولماذا يضع قماش الأجوالة والرماد فوق رأسه ؟

— لست أدري ، ولكنهم مضطرون إلى أن يفعلوا ذلك . . . هذا هو ما يفعله الناسكون دائماً ، ومن ثم فإنك سترغم على أن تحذو حذوهم إذا أصبحت ناسكا مثلهم ١١ .

فصاح د هاك ، هذا ما لا يمكن أن أقبله ١١ .

ولاذ الغلامان بالصمت ، وراح د ها كبرى ، يحشو غليونه بالتبغ ، ثم أخذ قطعة من الفحم المشتعل ، وأدناها من الغليون حتى أشعل التبغ ، وراح ينفث الدخان زكي الرائحة في حلقات متتابعة — وهو يشعر بأشد الارتياح . . أما القرصانان الآخران ، فكانا يحسدانه على هذه الرذيلة المستحبة ، وهما يفكران في مزاولتها في المستقبل ١

وأخيراً سأل د هاك ، : ما الذي ينبغي على القراصنة أن يفعلوه ؟

فاجاب د توم ، : أوه إنهم يقضون وقتهم عادة في العريضة — يستولون على السفن ويحرقونها ، ويستولون على المال ويدفونونه في أما كن مخيفة في جزيرتهم ، حيث تسهر الأشباح والقوى الغامضة على ملاحظته ، ويقتلون كل شخص في السفن و . . .

فقاطعه د جو ، قائلاً ولكنهم ينقلون النساء إلى الجزيرة لأنهم لا يقتلون النساء .

فقال د توم ، : نعم ، إنهم لا يقتلونهن — لأنهم نبلاء أشد ما يكون النبيل . . لأن النساء يكن دائماً جميلات أيضاً ١١

فأردف د جو ، بحماس : ثم ، ألا يرتدون أفخر الثياب ، ويتحلون بالذهب والفضة والماس ؟

فسأل د هاك ، : من هم ؟

— القراصنة .

فتطلع ، هاك ، إلى ثيابه باشمزاز ، وقال بلمجة تشف عن الحزن
والأسى : — أكبر الظن أنى لا أرتدى ثياباً تليق بقرصان ، ولكنى لا
أملك غيرها .

فقال له الغلامان إنه سوف يحصل على ثياب جميلة في المستقبل بعد
أن يبدأوا مغامراتهم ، وجعلوه يفهم أن أسما له البالية تصلح للبدء في
المغامرات ، رغم أن العادة جرت على أن يبدأ القراصنة الأثرياء عملهم
وقد ارتدوا أفخر ثيابهم ١١

وأخذ حديث الغلمان الثلاثة يخفت شيئاً فشيئاً ، بعد أن بدأ النوم
يداعب جفونهم . . وسقط الغليون من بين أصابع « ها كبرى فين » ،
واستسلم للنوم ، شأنه في ذلك شأن أى شخص نقي الضمير أضناه التعب .
أما « فزع البحار » ، و « المنتقم الأسود » ، فقد لاقيا صعوبة أكثر في
النوم . . فبعد أن أدبا صلاتهما سراً ، تمددا فوق الأعشاب — والواقع ،
أنهما كانا يفكران في التخلي عن الصلاة تماماً ، ولكنها خشياً الذهاب إلى
مثل هذا المدى البعيد ، لئلا يؤدي ذلك إلى انقضاء صاعقة مفاجئة
من السماء ١١ . وبعدئذ ، بدأ النفاس يتسرب إلى جفونهما — ولكن دخيلاً
أقحم نفسه عليهما في تلك اللحظة ، ولم يرض هذا الدخيل « بالخدلان » . .
وكان هذا الدخيل هو الضمير . . فقد بدأ الغلامان يكابدان خوفاً مبهماً
من أن يكونا قد ارتكبا إثماً كبيراً بفرارهما من أهلها . ثم انقل بهما
التفكير بعد ذلك إلى اللحم الذى سرقاه ، وهنا بدأ عذابهما الفعلى . .
حاولا أن يبرزا فعلتهما بتذكير هذا الضمير بأنهما طالما سرقا الحلوى
والتيقح عشرات المرات ، ولكن الضمير رفض أن يقتنع بمثل هذه
المبررات الواهية . وفي النهاية خيل إليهما الأسبيل أما مهما للتخلص من

الحقيقة الصامدة الصارخة ، ألا وهي أن الاستيلاء على الحلوى كان مجرد
خطف ، ، في حين أن الاستيلاء على اللحم وما يماثله من الأشياء الثمينة
إن هو إلا سرقة ١١ - وهو أمر ينهى الإنجيل عن إتيانه . ومن ثم ، فقد
عاهد كل منهما الآخر على أن يبذلا كل ما في وسعهما من جهد لجعل
القرصنة مهنة شريفة لا تفسد السرقة جلالها . . وهنا هجم الضمير . واستسلم
القرصانان الناشئان للنوم العميق !

الفصل الرابع عشر

معسكر القراصنة السعيد

عندما استيقظ «توم» في صباح اليوم التالي، تملكه العجب، وتساءل أين هو.. ثم استوى جالساً، ومسح عينيه بيديه، وتلفت حوله، وسرعان ما تذكر كل شيء.. كان ضوء الفجر لا يزال باهتا، وكان هناك إحساس جميل بالهدوء والسلام في ذلك السكون المريح الذي شمل الغابة كلها. ولم يكن يعكر هدوء الطبيعة العظيم شيء، فلا صوت ورقة شجر تهتز، ولا أية جلبة أو صخب من ذلك اللون الذي يسود المدن عندما يستيقظ الأحياء. أما الندى، فكان متجمعا على شكل قطرات من الماء فوق أوراق الأشجار والحشائش.. بينما تكونت طبقة من الرماد فوق النار التي كان ينبعث منها خيط رفيع من الدخان لا يلبث أن يبدده الهواء.. وكان «جو» و«هاك» لا يزالان يغطان في نومهما.

وفي تلك اللحظة أطلق طائر بعيد نداءه المعتاد، وفي التو أجابه طائر آخر على نداءه، ثم لم يلبث «توم» أن سمع صوت طائر ينقر الخشب. وشيئاً فشيئاً أخذ ضوء الشمس المبكرة يتغلب على ضوء الفجر الداكن، كما بدأت الأصوات تزداد وضوحاً، وبذلك دبت الحياة في السكون.. ونفضت أعجوبة الطبيعة النوم عن نفسها، وبدأت تؤدي عملها كاشفةً عن عظمتها للغلام الذي كان لا يزال مستغرقاً في التفكير. وأقبلت دودة صغيرة خضراء اللون تتلوى فوق ورقة شجرة مبللة بقطرات الندى، وهي ترفع ثلثي جسمها في الهواء من حين لآخر لتشم ما حولها، ثم عادت فاستأنفت زحفها الحثيث. وعندما اقتربت الدودة من الغلام جمد هذا في جلسته كالصخر، وأخذت آماله تتألق وتخبو كلما تقدمت الحشرة منه أو

أبدت رغبة في الابتعاد عنه — وأخيراً جاءت اللحظة الحرجة ، إذ راحت الدودة تفكر ، وقد اثنتى جسمها في الهواء ؛ ثم لم تلبث أن هبطت باصرار فوق قدم الغلام « توم » . وشعر الغلام بفيض من السعادة ، لأن الأساطير التي قرأها وسمعها كانت تقول إن الديدان فال حسن ، وأن من تقرب منه دودة ، لا بد أن يحصل على ملابس جديدة . وخيل إليه عندئذ أن هذه الملابس سوف تكون ولا شك ثياب قرصان فاخرة — وفي تلك اللحظة برز مركب من النمل من مكان مجهول ، ومضى في عمله . وكانت نملة منها تكافح بقوة لتحمل عنكبوتاً ميتاً يزيد جرمه خمس مرات على جرمها . . . كانت تحمله بين ذراعيها وتسلق به جذع شجرة . وتسلمت خنفسة غامقة اللون نصل عود طويل من الحشائش ، فقال « توم » فوقها وقال لها : « أيتها الخنفسة . . أيتها الخنفسة . . امضي إلى منزلك لأن النار مشتعلة فيه وأطفالك وحدهم ، وانصاعت الخنفسة للنصيحة ومضت بمهيدة عنه ! — ولم يدهش ذلك الغلام ، لأنه كان يؤمن منذ أمد بعيد أن هذه الحشرة تصدق كل شيء يقال عن الحرائق ، وكثيراً ما استغل الناس هذه البساطة فيها . . . وبعد ذلك بدأت الحشرات والهوام تخرج من مكانها وجحورها سعياً وراء رزقها ، وامتلاً الجو بزققة الطيور وتخريدها ، وفي تلك اللحظة رفر ف أبو زريق بجناحيه في الجو ، ثم هبط بحركة خاطفة واستقر فوق غصن قريب من « توم » ، وأدار وجهه ليتطلع إلى هؤلاء الغرباء باهتمام شديد . كما أقبل قرفدان ضخيم سنجاني اللون أشبه بالشعلب ، كان يجلس بين الحين والحين ليتأمل الفتيان ويحدق فيهم . ويبدو أن هذه الطيور والحيوانات لم تكن قدرات إنساناً من قبل في هذه الجزيرة الموحشة . . . ومن ثم لم تكن تدرى تخشى الناس أم تألفهم . . . وفي تلك الأثناء كانت الطبيعة قد استيقظت تماماً ودبت فيها الحركة ، وبدأت أشعة طويلة من الشمس تسلسل من خلال أوراق الأشجار الكثيفة ، فخطت الفراشات فوق الزهور وراحت ترفرف بأجنحتها في الهواء . . .

وأيقظ «توم» القرصانين الآخرين ، ثم انطلق ثلاثتهم مبهتمين وهم يهملون ، وبعد دقيقة أو اثنتين بدأوا ينزعون ثيابهم وهم يطاردون أحدهم الآخر ويتعثرون في ركضهم حتى بلغوا الماء الضحل فوق الحاجز الرمل الأبيض .. لم يكن أحداً منهم يشعر بالحنين إلى القرية الصغيرة النائمة بعيداً وراء ذلك الفراغ المائي الكبير . ولاحظ الفتيان أن العائمة قد اختفت فرجعوا أن تياراً قوياً ، أو مداً بسيطاً ، حمالها بعيداً ، وسرهم ذلك لأن اختفاءها كان بمثابة تحطيم القنطرة التي تصاهم بالمدينة .

وعادوا إلى معسكرهم وهم أشد ما يكونون نشاطاً ، ومرحاً ، وجوعاً ، وسرعان ما أشعلوا ناراً .. وعثر «هاك» على نبع ماء بارد صاف قريب ، واستخدم الصبية أوراق شجر البلوط كأكواب يحصلون بها على الماء العذب . ولقد جمعاتهم عنوبة الماء وجمال الطبيعة من حولهم لا يشعرون برغبة في احتساء القهوة ، وبينما كان «جو» يعد شرائح اللحم لوجبة الإفطار طاب «هاك» و «توم» منه أن يتريث قليلاً ثم انقضا سنارتيهما ، وتقدما نحو زاوية في النهر ، غمرا فيها خيظ السنانير ، وفي التو حصلا على نصيبهما من السمك .. وفرح الغلمان بصيدهم الثمين الذي هبط عليهم من السماء .

وما أن فرغوا من تناول طعام الإفطار ، حتى تمدد «توم» و «جو» في الظل ، بينما انصرف «هاك» إلى التدخين ، وبعدئذ انطلقوا لاستكشاف الغابة ، فراحوا يطأون كتل الخشب (المتعفنة) ويتعثرون في الحشائش المتشابكة وهم يضحكون ويمرحون .

وعثروا على أشياء كثيرة أثارت بهجتهم ، ولكنها لم تدهشتهم ، فقد اكتشفوا مثلاً أن طول الجزيرة قرابة ثلاثة أميال ، وعرضها حوالي ربع ميل ، وأن القناة الضيقة التي تفصلها عن الساحل أشبه بحوض سباحة صغير

وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغرب عادوا إلى معسكرهم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث . بيد أنهم لم يلبثوا أن ضاقوا بالحديث فقللوا منه ثم لم يلبثوا أن كفوا عنه . ذلك أن السكون ، والهدوء والإحساس بالوحدة والوحشة ملأ نفوسهم بالقلق .. وسرعان ما أحسوا بالحنين إلى الوطن . ولسكنهم خجلوا جميعا من إبداء ضعفهم ، ولم يجد أحدهم من الجرأة ما يسمح له بالحديث عن الحنين إلى الأهل والمدينة .

كان الفتيان قد بدأوا يسمعون صوتا غريبا مبهما صادرا من بعيد فترة من الوقت مثلما يسمع الإنسان أحيانا صوت الساعة فلا يلقى له بالا . ولكن هذا الصوت الغامض لم يلبث أن أصبح من القوة والشدة بحيث لم يعد في استطاعتهم أن يتجاهلوه . وأجفل الصبية ، وتطلع كل منهم إلى الآخر ثم أصاحوا السمع .. كان الصمت شاملا في تلك اللحظة ، ثم لم يلبث أن مزقه صوت مدفع قوى أطلق في تلك اللحظة .

وصاح « جو ، مهوتا : ما هذا ؟

فاجاب « توم ، هامسا : شد ما أعجب ماذا يكون هذا الصوت ؟

وقال « هاكبرى ، بلهجة تدل على الاضطراب : إنه ليس رعدا ، لأن للرعد ..

فقاطعته « توم ، قائلا : صه ، أصيخا السمع وكفا عن الكلام .

وانتظروا بعض الوقت ، وخيل إليهم أن دهرا قد انقضى قبل أن يمزق السكون صوت المدفع مرة أخرى .

قال « توم ، : هلموا بنا نذهب لنجلا حقيقة الأمر .

ووثبوا واقفين ، وأسرعوا إلى الشاطئ المواجه للمدينة ، وأزاحوا الأعشاب النامية فوق الشاطئ جانبا وتطلعوا من بينها عبر الماء ، فرأوا الدائمة الصغيرة على مبعده ميل تقريبا من القرية وهي تتأرجح مع التيار ،
(٩٠ - توم سوير)

وبدا كأن ظهرها العريض غاص بالناس ، وكان هناك عدد كبير من القوارب على مقربة من العائمة ، ولكن الفتيان لم يستطيعوا أن يقيّموا ما يفعله أو لئلك الأشخاص الذين احتشدوا فوق القوارب ، وبعد لحظات انبعث من العائمة صوت مخيف أعقبته سحابة كثيفة من الدخان لم تلبث ان انتشرت في الجو فصاح « توم ، :

— لقد عرفت الحقيقة الآن .. إن شخصاً ما قد غرق !

فقال « صاك ، : أصبت ، فقد رأيتهم يفعلون ذلك عندما غرق « بيل تيرنز ، في الصيف المنصرم .. لهم يطلقون مدفعاً فوق سطح الماء حتى يجعلوا الغريق يطفو فوق صفحته .. كما أنهم يجلبون عدداً من أرغفة الخبز ويحشونها بالزئبق ويلقون بها في الماء فتطفو ، إذ أنهم يعتقدون أن هذه الأرغفة لا تلبث أن تمشي إلى المنطقة التي غرق فيها الشخص وتثبت هناك ! !

فقال « جو ، : لقد سمعت مثل هذا القول ، ولكن شد ما أعجب ما الذي يجعل الخبز يفعل ذلك .

فقال « توم ، : ليس الخبز هو الذي يفعل ذلك ، وإنما يرجع الفضل إلى ما يقوله الناس وهم يلقون بالخبز في اليم ! !

فقال « هاك ، : ولكنهم لا يقولون شيئاً في هذه المناسبات ، فقد شهدت بعضها بنفسى .

فقال « توم ، : هذا أمر عجيب .. لعلهم يقولون تعاويذهم سرراً !

ووافق الغلامان الآخران على أن ما قاله « توم ، معقول ، لأن رخيص الخبز ، الجاهل ، الذي لا توجهه تعويذة ، لا يمكن أن يتصرف بمثل هذا الذكاء عندما يعهد إليه بمثل هذه المهمة الخطيرة ! !

قال « جو ، : يا للشيطان ! ليقنى كنت معهم !

فأردف : هاك ، : وأنا أيضا . . إني على استعداد لأن أدفع الشيء الكثير مقابل معرفة شخصية الغريق .

واستمر الفتيان في الإصغاء والمراقبة . وبعد قليل طرأت على « توم » ، فكرة فصاح :

— لقد علمت من الغريق أيها الفتيان . . إنه نحن !

وفي التو ، طغى عليهم شعور بالبطولة . ها هم قد حققوا نصراً مؤزراً . فقد افتقدهم الجميع فحزنوا عليهم . . إن قلوب أهل القرية جزعة من أجلهم والدموع تنهمر بسببهم . . لاشك في أن من أساءوا إلى هؤلاء الفتيان المساكين ، بدأوا يتعذبون ، بعد أن تذكروا كيف كانوا يعاملونهم بلاشفقة أو رحمة ؛ ويأسفون على ما جنت أياديهم . وأحس الغلمان الثلاثة أنهم أصبحوا حديث أهل المدينة جميعاً ، فشعروا بالفخار ، وأيقنوا أن القرصنة عمل رائع !

وعندما انتشر الظلام ، عاد القرصنة إلى معسكرهم ، وهم يشعرون بالزهو والغرور لما اتصفوا به من عظمة وما سببوه من متاعب ! واصطادوا سمكا طهوه وأطعموا به ، ثم راحوا يتخيّلون ما يقوله أهل المدينة عنهم ! ولقد شعروا بارتياح شديد ، حينما أخذوا يرسمون صوراً للجزع العام الذي سببه اختفاؤهم لأهل القرية — من وجهة نظرهم . . ولكن عندما شملتهم ظلمة الليل كفوا عن الكلام ، وظلوا يحمدون في النار ، وقد شرد تفكيرهم ! ولم يستطع « جو » ، و « توم » ، أن يطردا عنهما شبح الحنين إلى الوطن ! ولم يلبث الحنين أن تحول إلى اضطراب وشقاء ، فانفلتت التهنيدات من بين شفقتيها بدون أن يفطنا إليها . . وشيثا فشيثاً بدأ « جو » ، يحوم في حديثه بحذر حول ما عسى أن « يشعر » به الآخرون عندما يرونهم عائدين إلى الوطن بعد معامرتهم الباسلة .

وانكمش « توم » ، نافراً من الفكرة . . . وانضم « هاك » ، سريعاً إلى

« توم » في معارضة الفكرة ، فأسرع « جو » يوضح لها موقفه ، ويؤكد لها أنه لم يشعر إطلاقاً بالحنين إلى الوطن . . وهكذا وقع العصيان في مهده .

وعندما مضى بعض الليل ، بدأ النعاس يداعب جفني « هالك » ، ولم يلبث أن ارتفع غطيط الغلام . وسرعان ما حذا « جو » حذوه . . . أما « توم » فقد ظل ممدداً فوق بطنه ، وقد اعتمد ذقنه بيديه ، وراح يراقب زميليه باهتمام وأخيراً نهض واقفاً بحذر ، وأخذ يبحث بين الحشائش — على ضوء النار المشتعلة — حتى عثر على عدد من لفافات لب الشجر الرفيعة ، ففحصها بعناية ، ثم اختار منها اثنتين ، خيل له إنهما يلائمان الغرض الذي يسعى إليه . . وركع بجوار النار ، واستعان بأداة حادة ليكتب شيئاً على كل من اللفافتين بعد أن نشرهما أمامه . ثم لف إحداهما ووضعها في جيب سترته ؛ أما الأخرى فقد وضعها في قبعة « جو » ، بعد أن أبعدها قليلاً عن صاحبها ، كما وضع في القبعة بعض كمنوزه المدرسية التي يعتز بها أشد الاعتزاز — وكان من بين هذه الكمنوز قطعة من الطباشير ، ومحاة على شكل كرة ، وثلاث سنانير ، و « بلية » من الرخام . . ثم سار فوق أصابع قدميه مبتعداً بحذر بين الأشجار حتى تأكد من أنه أصبح بعيداً عن نطاق السمع ، وعندئذ انطلق يركض في اتجاه الحاجز الرملي . .

الفصل الخامس عشر

« توم » يزور المنزل خلسة!

بعد دقائق قليلة ، كان « توم » يخوض في ماء الحاجز الضحل في طريقه إلى شاطئ « النيوى » ، وقبل أن يبلغ منتصف الحاجز ، أخذ التيار يعاكسه . ومن ثم طفق يسبح بثقة وقوة حتى قطع المائة الياردة التي تفصله عن الشاطئ المقابل ، فلما بلغه وضع يده في جيب سترته ، فعثر على لفة لباب الشجر سليمة ، وعندئذ دلف إلى الغابة وهو يتتبع الشاطئ ، والماء يتقاطر من ثيابه . وقبل أن تبلغ الساعة العاشرة بقليل ، خرج إلى منطقة مكشوفة مواجهة للقرية ، فرأى عائمة بخارية راسية في ظل الأشجار والساحل المرتفع . كان كل شيء هادئاً تحت النجوم المتألقة ، وزحف الغلام حتى بلغ الشاطئ وهو يتطلع في كل اتجاه بحذر شديد ، ثم تسلل إلى الماء ، وسبح قليلاً حتى وصل إلى العائمة فتسلقها . . وانكش أسفل عوارضها وانتظر بصبر .

وبعد قليل دق ناقوس العائمة ، وأصدر شخص أمراً بالإبحار ، وإن هي إلا دقيقة أو نحوها حتى تحركت العائمة وبدأت رحلتها . وشعر « توم » بسعادة غامرة لما حققه من نجاح ، لأنه كان يعلم أن هذه هي آخر رحلة للعائمة في تلك الليلة . وبعد قرابة ربع ساعة ، توقفت العائمة عن الحركة ، فتسلل « توم » من مكانه ، وهبط إلى الماء ، ثم سبح إلى الشاطئ في الظلام . وخرج عند نقطة تبعد عن العائمة حوالى خمسين ياردة ليكون يما من من عيون الرقباء .

وانطلق في الطرقات غير المطروقة ، وبعد دقائق ألقى نفسه أمام السياج الخلفي لمنزل عمته ، فتسلقه ، وتقدم من البناء الملحق بالمنزل ، وتطلع من

نافذة غرفة الجلوس ، فقد كان الضوء ينبعث منها ، وعندئذ رأى العمّة « بولى » و « سيدنى » و « مازى » ، وأم « جو هاربر » جالسين فى الحجرة . وهم يتحدثون . . كانوا يجلسون بجوار الفراش . وكان الفراش يفصلهم عن الباب . ومن ثم فقد تقدم « توم » من الباب ، وبدأ يرفع مزلاجه برفق ، ثم ضغط الباب بلطف ، ففتح قليلاً ، واستمر الغلام يدفع الباب بحذر وينتفض كلما صدر عنه صرير ، حتى اطمأن إلى أن فى إمكانه أن يسترق السمع !

قالت العمّة « بولى » : ما الذى يجعل لب الشموع يهتز هكذا . ؟

وأسرع « توم » بالدخول . . واستطردت عمته تقول : ما هذا ؟ إن الباب مفتوح . . نعم . إنه مفتوح . . لست أدرى إلى متى ستحدث هذه الأشياء الغريبة . . هيا اذهب واغلقه يا « سيدنى » !

واختفى « توم » أسفل الفراش فى الوقت المناسب . وقبّع فى مكانه . بعض الوقت ريثما تهدأ أنفاسه ، ثم زحف حتى كاد يلمس قدمى عمته .

قالت العمّة « بولى » : كنت أقول إنه لم يكن شريراً . . كان (شقيماً) . فقط . . نعم ، كان طائشاً فحسب . . إنه لم يكن يقصد تحطيم قلبى ، كما أنه كان أطيب الصبيان قلباً . . ويجب علينا ألا نحمله من المسئولية أكثر مما يذبحى .

وبدأت العمّة « بولى » ، تنتحب . . فقالت « مسز هاربر » :

— كذلك كان الأمر بالنسبة لابتى « جو » . . كان (شقيماً) أبعـد ما تكون الشقاوة ، ولكنه لم يكن أنانياً . وكان عطوفاً — فليغفرلى الله ما عاملته به من قسوة ، فقد ضربته بالسوط لأنه شرب القشدة (الكريمة) . وكنت قد نسيت أن أتخلص منها لأنها فسدت . ولكنى لن أراه مرة أخرى فى هذا العالم . . لن . . لن . . مسكين هذا الغلام !

وبدأت « مسز هاربر ، تبكى بحرقة خيل لتوم أن قلبها يوشك أن
ينفجر .

فقال « سيدنى ، : أرجو أن يكون « توم ، سعيداً حيث هو الآن . .
ولكن كان ينبغي . . .

فقالت العمّة « بولى ، بلهجة جعلت « توم ، يعتقد أن عمته تتطلع شذراً
إلى « سيدنى ، :

— « سيدنى ، ! لا تنطق بكلمة واحدة ضد « توم ، ما دام قد رحل
عنا ! إن عناية الرحمن ترعاه . . ولا تزعج نفسك من أجله يا سيدنى !
أوه . . يا « مسز هاربر ، ، لست أدري كيف أنساه وأستسلم للقدر !
لست أدري ! لقد كان مصدر الراحة لقلبي ، رغم ما كان يديه من عبث
يعذبني .

ثم قالت والدة « جو ، :

— « الرب أعطى . . الرب أخذ — فليكن اسم الرب مباركاً ، (١)
لكن الموقف عصب مؤلم — أو اه إنه موقف شديد الإيلام ! فى يوم
السبت، الماضى فقط « فرقع ، ابنى « جو ، كبسولة أمامى فاطمته بعنف
فسقط على الأرض . . إتنى لم أكن أعلم أننى سأفقداه عما قريب . . أو اه !
لو أن الأيام عادت القهقرى ثانية ، لا حتويته بين أحضانى وباركته على
ما فعل !

— نعم . . نعم . . نعم . . لئن أقدر إحساسك حق قدره يا مسز
« هاربر ، . . فعند ظهر أمس ، أمسك « توم ، بالقطعة وملاً جوفها بالدواء
(قائل الألم) حتى خيل إلى أن القطعة سوف تحطم المنزل تحطياً . .
فليرحمى الله . . فقد (قرصت) أذن « توم ، المسكين بعنف . . « توم ،

(١) منقولة عن آية وردت فى الإنجيل استخدمها المؤلف بنصها .

المسكين الميت .. ولكنه تخلص من جميع متاعه الآن .. لقد كانت آخر كلمات سمعتها منه تأنيباً ..

ولم تحتمل أعصاب المرأة العجوز هذه الذكرى ، فانخرطت في بكاء شديد . . . أما « توم » فقد أحس في تلك اللحظة بالأسف من أجل نفسه أكثر من إحساسه به من أجل أى شخص آخر . . . وكان فى استطاعته أن يسمع « ماري » وهى تنتحب وتنطق بكلمة تكشف عن عطفها عليه بين حين وآخر . وعندئذ بدأ يعتبر نفسه أنبل ، ما كان يظن فى أى يوم من الأيام . . . ولقد طغى عليه التأثر لما أبدته عمته من حزن مفرط ، حتى لقد كان يتمنى لو أنه اندفع خارجاً من تحت الفراش ليثبعتها لثماً وتقبيلاً . . . ولكنه دفع عن نفسه هذا الخاطر على الفور !

ومضى « توم » يصغى ، فاستطاع أن يعلم من الحديث الذى دار بين السيدتين أن أهل القرية ظنوا بادنء الأمر أن الغلامين - « توم » و « جو » - ذهبا ليستحما فى النهر فغرقا ، ولكن ما أن اكتشف اختفاء العائمة ، وما أن ذكر بعض الغلمان أن الصبيين المفقودين كانا قد قالا أن القرية سوف « تسمع أنباء هامة عما قريب » ، حتى أدرك الجميع أن الغلامين هربا بالعائمة وأنها لن يلبثا أن يظهرأ فى المدينة المجاورة عما قريب . ولكن العائمة وُجدت عند الظهر مرتطمة بشاطئ المسيسى على مبعدة قرابة خمسة أو ستة أميال جنوب القرية - وعندئذ ضاع الأمل . وأيقن الجميع أن الغلامين لا بد قد غرقا ، وإلا فإن الجوع كان خليقاً بأن يحملهما على العودة إلى المنزل عند حلول الظلام ، إن لم يكن قبل ذلك . . . وكان المعتقد أن البحث عن جثتيهما يعتبر مجهوداً ضائعاً ، لأنها إذا كانا قد غرقا فلا بد أنهما غرقا فى قلب التيار ، كما أنهما كانا يجيدان السباحة ، وبذلك كان بوسعهما أن يصلا سالمين إلى الشاطئ ما لم يجرفها التيار . . . وإذا كان ذلك فى ليلة الأربعاء ، قدّر سكان القرية أنه اذا ظل الغلامان غائبين حتى يوم

الأحد ، فلن يكون هناك ثمة أمل في العثور عليهما ، ومن ثم تقام لهما صلاة الموتي في صباح ذلك اليوم .

وانتفض « توم » . . .

ونفضت « مسز هاربر » ، متشاقلة ، وتعانقت المرأتان وهما تنتحبان ، ثم حاولت كل منهما أن تهدي من روع الأخرى . . . وأخيراً افترقتا . . . ولقد كانت العمه « بولي » ، رقيقة بشكل لم يسبق له مثيل عند ما حيت « سيدنى » ، « ماري » ، قبل ذهابها إلى مخدعها ولاحظ « توم » ، أن « سيدنى » كان شاخراً بأنفه ، بينما كانت « ماري » ، تبكي بحرقة .

وركعت العمه « بولي » ، على ركبتيها وراحت تصلي من أجل « توم » ، بحرارة ، وكانت كلماتها تكشف عن حب عميق ، كما كان صوتها مؤثراً حتى لقد انهمرت الدموع بشدة من عيني الغلام قبل أن تفرغ عمدته من صلاتها .

واضطر « توم » ، إلى التزام السكون فترة طويلة بعد أن صعدت عمدته إلى فراشها لأنها كانت لا تفتأ تنهد بقوة ، وتتقلب من جنب إلى آخر ، تنطق بكلمات مفعمة باللوعة والحزن . ولكن النوم لم يلبث أن غلبها على أمرها فاستسلمت له . . . وعندئذ تسلل الغلام من مخبأه ، ونهض ببطء حتى وقف بجوار الفراش ، وظلل الشمعدان بيده ، وراح يتأمل عمدته وقد أغمم قلبه بالعطف عليها ، ثم أخرج اللقافة المكتوبة من جيبه ووضعها بجوار الشمعدان ، ولكن خاطراً طراً على باله ، جعله يتريث طويلاً ، ثم أسرع فأعاد اللقافة إلى جيبه على عجل ، وتهلل وجهه في تلك اللحظة ، فقد استقر رأيه على أمر . وفي اللحظة التالية انحنى وقبل شفقي عمدته النائمة بحذر ، وبعدئذ تسلل من الباب بهدوء وأغلقه خلفه بالمزلاج .

وعاد أدراجه إلى مرسى العائمة ، وإذ لم يجد بها أحداً ، صعدي إلى سطحها بشجاعة ، لأنه كان يعلم أن حارسها الهرم اعتاد أن ينتهز كل فرصة تسنح له

للاستمتاع بإغفاءة طويلة يود لو أنها استمرت إلى الأبد... وفك السلسلة التي تشد العائمة إلى الشاطئ ، وبعد لحظات كان يجدف بحذر متبعداً بالعائمة عن القرية ، فلما أصبحت المسافة بينه وبين القرية ميلا ، بدأ يعمل بكل نشاط حتى استطاع أن يصل إلى البر الثاني ، بسهولة فقد كان مثل هذا العمل مألوفاً لديه ، وأحس برغبة ملحة تدعوه إلى الاستيلاء على العائمة ، وراح يجادل نفسه قائلاً أنه يمكن اعتبارها سفينة ، ومن ثم فإنها تكون غنيمة مشروعة للقرصان ، ولكنه كان يعلم أن أصحابها لن يلبثوا أن يقلبوا الأرض بحثاً عنها ، وقد يؤدي ذلك إلى افتضاح أمره وأمر زميليه ، ومن ثم فقد هبط منها إلى الشاطئ ، وتركها وشأنها ، ثم سار مسرعاً نحو الغابة .

وجلس فترة طويلة ريثما يستريح ، وبذل مجهوداً جبّاراً حتى يظل مستيقظاً ، وبعدئذ بدأ رحلته إلى المعسكر ، وكان الليل قد أوشك على الانتهاء . وعندما وصل إلى الحاجز كان النهار قد طلع ، فاستراح ثانية حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء ، ثم عبر النهر سباحة ، وبعد قليل وقف على أبواب المعسكر وثيابه تقطر ماء ..

وسمع دجوج ، يقول : كلا يا دهاك ، .. إن دتوم ، غلام شريف ، سوف يعود ثانية .. إنه لن يهرب ، لأنه يعلم أن الفرار عمل شائن بالنسبة للقرصان ، و دتوم ، شديد الكبرياء من هذه الناحية .. لا أشك في أنه ذهب ليأتي لنا بشيء ما .. ترى ما هذا الشيء ؟

— على أية حال ، اعتقد ان هذه الأمتعة أصبحت ملكاً لنا .

أليس كذلك ؟

— تقريباً ولكن ليس بصفة نهائية .. فإن الرسالة تقول إن هذه الأشياء

تصبح ملكاً لنا إذا لم يعد في موعد تناول الإفطار .

وصاح دتوم ، وهو يبرز من خلف إحدى الأشجار ، ويتقدم بعظمة

وخيلاه نحو المعسكر :

... ولقد اوفيت بوعدى

وتناول الفتيان طعاماً شبيهاً مكوناً من السمك واللحم المقدد ، وراح
« توم » يقص على زميليه أبناء مغامرته بكثير من التنميق ، وعندما انتهت
قصته كانوا جميعاً يشعرون بأنهم أبطال ، وبعدئذ اختفى « توم » فى ركن
ظليل لينام حتى الظهر ، أما القرصانان الآخران فقد استعدا لصيد السمك ،
والاستكشاف .

الفصل السادس عشر

الصيدية يدخنون !

بعد أن تناولت الجماعة طعام الغذاء ، انطلقت تبحث عن بيض السلحفاة
البحرية .. واستخدم الغلمان الثلاثة العصي في البحث عن هذا البيض
المدفون في الرمل وكانوا كلما عثروا على بقعة لينة جثوا فوق ركبهم وحفروا
بأيديهم ، وفي بعض الأحيان كانوا يخرجون عددا يتراوح بين خمسين وستين
بيضة من حفرة واحدة ، وكان هذا البيض أشبه بكرات صغيرة بيضاء أصغر
حجماً من الجوز الإنجليزي ، وفي تلك الليلة تناول الفتیان عشاء شهياً مكوناً من
البيض المقل ، كما تناولوا وجبة إفطار رائعة منه أيضا في صباح يوم الجمعة .

وبعد أن فرغوا من تناول طعام الإفطار انطلقوا يتصايحون ويتواثبون
فوق الحاجز الرمي ، يطارد أحدهم الآخر في دوائر واسعة وهم يخلعون
ثيابهم أثناء عدوهم حتى أصبحوا عرايا ، واستمروا في هذه المطاردة وهم
يخوضون في الماء الضحل ، ثم في قلب التيار القوي الذي لم يلبث أن
أفقدهم توازنهم ، فكانوا يسقطون على وجوههم في الماء فيزدادون مرحا
وصخباً . . وكانوا يتجمعون معا من آن لآخر ، فيقذف كل منهم وجه
صاحبه بالماء ، ويحاول كل منهم أن يخل بتوازن زميله فيسقطون جميعاً
في الماء وقد تشابكت سيقانهم وأيديهم البيضاء ، ثم يصعدون إلى سطح الماء وهم
يضحكون ويشهقون في وقت واحد !

وعندما كان الإعياء يستولى عليهم ، كانوا يخرجون من الماء ويركضون
على الشاطئ ، ثم يتمددون فوق الرمل الجاف الدفيء ، ويغطون أجسامهم
ببطيخة من هذا الرمل ، وما يكادوا يستريحون حتى يستأنفوا السباحة والعبث

مرة أخرى . وأخيراً خطر لهم أن جلدهم العارى أشبه كثيراً بجلود
البهلوانات ، فرسموا حلقة فوق الرمل جعلوا منها « سيركا » ، وانطلقوا
يؤدون أدوار البهلوانات ا

وبعدئذ انصرفوا إلى لعب (البلي) وظلوا يتلهون بذلك إلى أن ضاقوا
به . ثم ذهب « جو » ، و « هاك » ، للاستحمام مرة أخرى ، أما « توم » فقد
رفض ، لأن طالسما « حجاباً » كان يعتز به ويؤمن بأنه يقيه شر الخطر قد
فقد منه وهو يخلع سرواله . ولم يجرؤ على السباحة بعدئذ إلا بمد أن عثر
عليه . وراح الغلمان الثلاثة يتسكعون هنا وهناك منفردين ، وإذا أصبح
كل منهم بعيداً عن الآخر ، راح كل منهم يتطلع بشوق وحنين عبر النهر
العريض إلى حيث توجد القرية الهادئة . . . وألني « توم » نفسه يكتب اسم
« بيكي » بإصبع قدمه فوق الرمل ، ولكنه أسرع فحاه ، وثار على نفسه لما
بدا منه من ضعف ، ولكنه كتب الاسم مرة أخرى ، فما كان في وسعه أن
يقاوم القوة الخفية التي كانت تدفعه إلى ذلك . . . ومحا الاسم ثانية ، وإذا أراد
أن يتخلص من هذا الإغراء نادى زميليه وانضم إليهما ا

ولكن روح « جو » المعنوية كانت قد انهارت تماماً . . . كان يشعر
بحنين جارف إلى الوطن ، حتى أنه لم يعد يحتمل ما كان يعانیه من شقاء
وتعاسة . وترقرقت الدموع في عينيه . . . وكان « هاكبرى » مغموماً أيضاً . .
أما « توم » فكان مثقل القلب بدوره ، ولكنه بذل قصارى جهده كيلا
يفضح نفسه . . . كان يكتم سرا ، ولكنه لم يكن على استعداد الإفشاء به في
تلك اللحظة . لقد قرر أن يحتفظ به إلى أن يشق زميلاه عصا الطاعة
ويتمردا ، وعندئذ قد يفضي به إليهما . . .

قال متظاهراً بالمرح : أراهن أنه كان بهذه الجزيرة قراصنة . . . ومن
ثم يحسن بنا أن نقوم بجولات استكشافية أخرى . . . لا شك في أن
هؤلاء القراصنة دفنوا كنوزهم في مكان ما بهذه الجزيرة . . . ترى ماذا

سيكون شعوركما عندما تعثران على صندوق عتيق مملوء بالذهب والفضة .

ولكن ذلك لم يثر في الغلامين إلا قدرا ضئيلا من الحماس لم يلبث أن اختفى . كما أن أحدا منهما لم يجب على سؤال «توم» . . وحاول «توم» أن يثير حماس الغلامين بشتى الوسائل ، ولكنه أخفق ، فقد راح «جو» يعبت بالرمل بعصاه القصيرة ، وقد بدت على وجهه علامات الاكتئاب الشديد ، وأخيرا قال «جو» :

.. كفى مغامرة ، ولنعد إلى المنزل فإن .. فإن العزلة هنا لا تطاق

فقال «توم» : أوه كلا يا «جو» ، سوف تتحسن حالتك ألا تفكر في صيد السمك هنا ؟

— لست أعبا بصيد السمك .. لأنى أريد العودة إلى المنزل

— لك ذلك لن تجد مكانا يصلح للسباحة كهذا المكان .

— لأنى لا أهتم كثيرا بالسباحة .. وما كنت لأمارسها لولا أننى أرغمت على ذلك ، ومهما يكن الأمر ، فإننى مصمم على العودة إلى المنزل .

— كفى هذيانا أيها الطفل ! أكبر الظن أنك تريد أن ترى أمك !

— نعم اريد أن أرى أمى — إنك لا تشعر بقوة الحنين إلى الأم .

لأنك لا أم لك !!

وشمخ «جو» ، بأنفه قليلا ، فقال «توم» ساخرا :

— حسنا ، فلندع الطفل الباكي يرجع إلى أمه أليس كذلك يا «هاك» ، مسكين هذا الطفل — إنه يريد أن يرى أمه ! ليمكن ما يريد .. إنك تحب هذا المكان يا «هاك» .. أليس كذلك ؟ سنبقى إذن .. ألا توافقنى ؟

فقال «هاك» بلمهجة يشوبها التردد : نعم .. نعم ..

وقال «جو» وهو ينبعث واقفا : لن أخاطبك يا «توم» ما حبيت ،

لأننى ذاهب

وابتعد عن زميله وشرع يرتدى ثيابه

فقال « توم » . لست آبه لذلك ا إن أحداً لا يريد منك أن تخاطبه . .
عد إلى القرية لكي يسخر الجميع منك . يالك من قرصان جرىء شجاع ا
أما « هاك » . . وأنا فلسنا طفلين باكيين . دعه يذهب إذا أراد يا « هاك » . .
فأ كبر ظني أننا نستطيع أن نمضي في حياتنا هنا بدونه .

ورغم ذلك كان « توم » يشعر بالقلق ، وقد أفرعه أن يرى « جو »
يمضي في ارتداء ثيابه بغير اكتراث . . وزاد قلقه حينما لاحظ أن « هاك »
يتأمل استعداد « جو » للرحيل بحسد ، لا تبدأ بصمت لا يبشر بالخير ،
وأخيراً وبغير كلمة وداع ، بدأ « جو » سيره ، نحو شاطئ « الينوى » فغاص
قلب « توم » بين جنبيه ، وتطلع إلى « هاك » . ولم يستطع « هاك » احتمال
نظرته ، فغض من بصره . . ثم قال :

-- أنا أيضاً أريد أن أمضي . . كانت الوحدة هنا لا تطاق منذ بادىء
الأمس ؛ وأحسب أننا لن نطبقها بعد اليوم . . دعنا نذهب أيضاً
يا « توم » .

-- كلا . . لن أذهب . . يمكنك أن تذهباً إن شئتما . أما أنا ، فلن
أغادر هذا المكان .

-- « توم » . . يحسن بي أن أمضي .

-- حسناً . . اذهب . . من الذى يمنعك ؟

وبدأت « هاك » يلتقط ثيابه المبعثرة . . وقال :

-- لكم أتمنى أن تأتي معنا يا « توم » . . وعلى أية حال سوف ننتظرك
عند الشاطئ ا

فقال « توم » : يمكننى أن أقول لك إنكما ستنتظران طويلاً !

وابتعد « هاك » ، آسفاً . . وبقى « توم » يتبعه بنظره ، وقد طغمت عليه

رغبة جارفة في التخلي عن كبريائه والانضمام إلى زميليه .. وكان يأمل أن يتوقف الغلامان عن سيرهما ، ولكنهما مضيا لا يلبيان على شيء . وفجأة خيل لتوم أن وحشة المكان وهدوءه أصبحا لا يطاقان . ولكنه ناضل كبريائه نضالا جبارا ، وأخيراً انطلق في إثر صديقيه وهو يصيح :

وانظرا ! انظرا ! فإني أريد أن أقول لكما شيئاً !

وتوقف الغلامان عن السير ، وتحولا إليه . وعندما لحق بهما ، بدأ يكشف لهما عن السر ، فأصغيا إليه بهدوء ، حتى إذا ما فطنا إلى الهدف الذي كان يرمى ، راحا يطلقان صيحات الحرب ، ويصفقان في مرح قائلين إن الفكرة « رائعة » ثم أضافا أنه لو كان قد حدثهما بجملة الأمر منذ البداية ، لما فكرا في الرحيل . وفي الحق أن « توم » لم يُفـض إليهما بالسر الحقيقي خشية ألا يجعلهما هذا السر يبقيان معه طويلاً . . . ومن ثم حرص على إبقاء سره الدفين طي الكتمان ليستعمله كوسيلة لإغراء نهائية !

وعاد الغلامان أدراجهما إلى معسكرهما وقد استبد بهما الفرح . واستأنفا رياضتهما ، وراحوا جميعاً يتجاذبون أطراف الحديث في خطوة « توم » الرائعة ، ويبدون إعجابهم بما انطوت عليه من عبقرية . وبعد أن تناولوا عشاء مكوناً من البيض والسمك قال « توم » إنه يريد أن يتعلم التدخين وأعجبت الفكرة « جو » فقال إنه يرغب أيضاً في تجربة التدخين . وفي التو أعد « هاك » لهما غليونين حشاهما بالتبغ . ولم يكن الغلامان قد مارسا التدخين من قبل . . . فتمددا على الأرض ، وارتكزا على مرفقيهما وراحا يدخان طعم غير مستساغ ، ومن ثم فقد زماً شفثيها قليلاً ، ولكن « توم » قال :

— إن التدخين أمر سهل جداً لو أنني كنت أعرف أن ذلك هو كل ما في الأمر لتعلمته منذ أمد طويل .

وقال « جو » : وأنا كذلك .. إنه عمل بسيط جداً .

فقال « توم » : لطالما تأملت القوم الذين يدخنون وتمنيت أن
أخذو حذرهم ، ولكن لم يخطر ببالى مطلقاً أنى أستطيع مجاراتهم .

فقال « جو » : ذلك هو شأنى أيضاً .. أليس كذلك يا « هاك » ؟
ألم أقل لك ذلك من قبل ؟

فقال « هاك » : نعم لقد قلت لى ذلك مرارا وتكراراً .

فقال « توم » : وأنا أيضاً قلته لك مئات من المرات .. وقلته لك مرة
ونحن عند المجزر .. ألا تذكر ذلك يا « هاك » ؟ لقد كان « بوب تانر »
و « جونى ميلر » و « جيف تاتشر » موجودين عندى - عندما قلت ذلك .. هل
تذكر ذلك يا « هاك » ؟

فأجاب « هاك » : نعم هذا صحيح .. لقد كان ذلك فى اليوم اللاحق لليوم
الذى فقدت فيه المدينة البيضاء .. كلا . بل كان ذلك فى اليوم السابق له .
فقال « توم » : ها هو « هاك » يذكر المناسبة .

وقال « جو » : أعتقد أن فى استطاعتى أن أدخن الغليون طوال النهار .
فإننى لا أشعر بأى دوار .

فقال « توم » : ولا أنا أيضاً .. إننى أستطيع أن أمضى فى التدخين ..
طوال اليوم ، ولكنى أراهن على أن « جيف تاتشر » لا يستطيع ذلك .
- « جيف تاتشر » ، لا شك فى أنه سيسقط إعياءه إذا حاول التدخين

دعه يجرب وسوف يرى ا

- نعم .. سوف يرى .. وكذلك « جونى ميلر » ، كم أود أن أرى
« جونى ميلر » يدخن الغليون ا

فقال « جو » : إننى أراهن على أن « جونى ميلر » لا يستطيع أن
يدخن الغليون .. إن « نفساً » واحداً كفيل بأن يطرحه أرضاً

- بالطبع يا د جو ، -- بودى لو استطاع الصبية أن يشاهدوا
ما نفعل الآن !

- وأنا أيضاً بودى ذلك .

وهنا تدخل د ها كبرى ، فى الحديث قائلاً :

- هل أدابكم على طريقة تجعلكم أبطالا فى نظر هؤلاء الصبية ؟ . .
عندما نعود إلى الوطن ، ، سوف أسألك أمامهم : هل معك غليون
ياه جو ، ؟ . إننى أريد أن أدخن ، فتقول بلهجة تشف عن عدم المبالاة كما
لو كان الأمر تافهاً . . تقول د نعم . إن معى غليونى القديم ، وغليوننا
آخر ، ولكن التبغ الذى معى ليس جيداً . . فأقول : دأوه . . حسناً
يكفى أن يكون قوياً بدرجة كافية ، . . وعندئذ تخرج الغليونين ، ويشعل
كل منا غليوننا ، ثم نراقب النظارة !

- يا إلهى ! سوف يكون ذلك متعة مدهشة . . بودى لو حدث
ذلك الآن !

وقال د توم ، :

- وأنا أيضاً أود ذلك . . ثم ألا تظن أنهم سوف يتمنون لو أنهم
كانوا معنا عندما نقول لهم إننا تعلمنا التدخين حينما كنا نلعب دور
القراصنة ؟

- أراهن على أنهم سوف يتمنون ذلك !

وعلى هذا النحو سار الحديث ، ولم يلبث أن فتر بعد قليل ، ثم تقطع ،
وطالت فترات الصمت ، وكثير بصاق الغلامين د توم ، و د جو ، ،
وأصبحت جميع مسام خديهما أشبه ينبوع ماء متدفق ، ولم يستطيعا السيطرة
على اللعاب الغزير الذى بدأ ينسال من أسفل لسانيهما ، ويجرى فى حلقيهما ،
واصفر وجهاهما ، وبدت عليهما علامات الضيق والتعب . ولم يلبث ،

غايون ، جو ، أن سقط من بين أصابعه التي فقدت إحساسها العصبي ،
وأعقبه غليون « توم » . . وما لبث « جو » أن قال بإعياء :

— لقد فقدت مديتي ، وأظن أنه يحسن بي أن أذهب للبحث عنها

فقال « توم » ، بشفتين مرتعشتين وفي كلمات متقطعة :

— سأعاريك في البحث عنها . . إرض أنت في هذا الطريق وسأمضي

أنا في ذلك . . أما أنت « يا هاك » ، فابق حيث أنت !

وهكذا لزم « هاك » مكانه . . ومضت ساعة ، ولم يعد الغلامان ، وعندما

أحس « هاك » بشدة وطأة الوحدة ، مضى يبحث عن زميليه . . .
ووجدهما في مكانين متباعدين في الغابة ، وكان كل منهما مصفر الوجه وهما
مستغرقان في نوم عميق .

ولم يكثر الغلامان من الحديث في تلك الليلة . . وكانت نظراتهما تدل
على الضيق ، وعندما أعد « هاك » غليونه بعد العشاء ، وشرع يعد لهما
غليونيهما ، رفضا ذلك قائلين إن حالهما الصحية ليست على ما يرام —
وأضافا أنهما يعتقدان أن شيئاً ما في الطعام الذي تناولاه لم يلائم معدتيهما .

واستيقظ « جو » حوالى منتصف الليل ونادى زميليه . . . كان الجو
شديد الركود ، مقبضاً يندثر بالشر . . وتجمع الصبابة معاً ، واقتربا من
النار ، رغم أن الجو كان حاراً يكتم الأنفاس . . وجلسوا جامدين ، وهم
يصيخون السمع ويترقبون . . واستمر الصمت الكئيب . وفيما وراء نطاق
النار المشتعلة كان الظلام دامساً . وجفأة ، ومض ضوء أنار الغابة كلها ،
ثم اختفى . . وبعد لحظة ، ومض الضوء مرة أخرى ، وكان أقوى قليلاً في
هذه المرة ، وأعقبته ومضة ثالثة ، وعلى أثر ذلك سمع الفتيان صوتاً أشبه
بتأوه ضعيف يتردد بين أغصان الأشجار ، وأحسوا كأن أنفاساً عابرة تلمح
« وجوههم » ، فانتفضوا جزعاً : فقد توهموا أن روحاً خفية مرت بهم . ثم
سادت فترة من الصمت . ولكن لم تلبث ومضات الضوء أن تتابعت جاعلة

من الليل نهاراً ، فصاروا يميزون أعواد الحشائش التي حولهم بوضوح ..
أما الفتيان أنفسهم ، فقد اصفرت وجوههم . وفي اللحظة التالية اهتزت
الأرض إثر هزيم رعد شديد أخذ يتحرك بطول السماء وعرضها ليتلاشى
على البعد السحيق . . وهبت ريح باردة محملة بالبرد الصغير الذي غطي
أوراق الأشجار وتناثر فوق النار المشتعلة . . ثم ومض البرق بشدة ، وأعقبه
صوت انفجار مخيف جعل الفتيان يعتقدون أن الأشجار سوف تقتلع
من جذورها وتسقط فوق رؤوسهم ، فتشبث كل منهم بالآخر بقوة
وفزع ، ثم أظلمت الدنيا مرة أخرى ، وبدأت قطرات كبيرة من المطر
تساقط فوق الأشجار !

صاح « توم » : هلموا بنا إلى المعسكر سريعاً !

ووثبوا مبتعدين وهم يتعثرون في الحشائش المتشابكة . . ودوى هزيم
الرعد بعنف بالغ مرة أخرى ، فجعل كل شيء فوق الأرض يترنح ويتأرجح ،
واشتدت قوة الرياح ، وومض البرق متتابعاً متلاحقاً ، وتحول المطر إلى
سيل جارف ، وراح الفتيان ينادون أحدهم الآخر ، ولكن هزيم الرعد
وشدة تساقط المطر أغرقت أصواتهم تماماً . بيد أنهم استطاعوا في النهاية
أن يلوذوا بالمعسكر ، وهم ينتفضون من شدة البرد ومن الفزع ، بينما كانت
ثيابهم تقطر ماء . . إلا أن تجمعهم معاً أشاع الطمأنينة في قلوبهم . . وتعذر
عليهم أن يسمع أحدهم الآخر لأن الشراع العتيق كان يرفرف بقوة ، محدثاً
ضوضاء عالية . . واشتدت العاصفة عنفاً ، وسرعان ما انفصل الشراع من
مكانه وطار مع العاصفة ، فأمسك الفتيان كل منهم بيدي زميله ، وركضوا
هاربين ، فأصيبوا بجروح وخدوش كثيرة وهم يتعثرون ، إلى أن استطاعوا
الوصول إلى شجرة بللوط ضخمة عند شاطئ النهر فاحتموا بها . . وكانت
العاصفة قد بلغت ذروتها في تلك الأثناء ، وظل وميض البرق يضيء السماء .

بينما ثار ماء النهر وهدر ، وراح رذاذه يتطاير إلى مسافات بعيدة
ولاحظ الفتيان أن أشجاراً كثيرة لم تحتمل وطأة العاصفة ، فاستسلمت
وانهارت من جذورها ساقطة على الأشجار الصغيرة . . . وازداد قصف الرعد
عنفاً حتى صم الآذان . . وتأزرت جميع عناصر الطبيعة الغاضبة كأنما تريد
أن تحشد قواها لنزق الجزيرة ، وتحرقها ، وتغرقها ، وتصم أذني كل كان
سحى على ظهرها . . كانت ليلة مروعة للفتيان الصغار الذين لا مأوى لهم .

وأخيراً ، خفت وطأة العاصفة . . وأخذت قوى الطبيعة الغاضبة
تنكمش رويداً رويداً . . وبدأ السلام والهدوء يعودان إلى الجزيرة مرة
أخرى . . وعاد الفتيان إلى معسكرهم ، وهم ينتفضون من فرط الخوف ،
ولكنهم لم يلبثوا أن حمدوا الله حين تبين لهم أن الشجرة الضخمة التي
ينامون تحتها قد سقطت أثناء غيابهم !!

كان كل شيء في المعسكر غارقاً في الماء ، كما انطفأت النار .

ولقد أثارهم انطفاء النار ، لأنهم كانوا يرتعدون من شدة البرد والبلل ،
ولكنهم سرعان ما سرى عنهم ، عندما اكتشفوا أن هناك ناراً خافتة
ما زالت مشتعلة تحت كتلة الخشب الهائلة ، التي كانوا قد أوقدوا نارهم
بجوارها . وفي التو ، شمروا عن سواعدهم ومضوا يجمعون بعض قطع
الخشب والأغصان الجافة ، وبدأوا يحمون النار حتى اشتد طهيها ، فملأ الفرح
قلوبهم ، وراحوا يصطلون ويجففون ثيابهم المبللة . كما جففوا ما لديهم من
اللحم المسلوq ، وتناولوا طعام العشاء وهم جالسون حول النار ، وظلوا في
يقظة إلى أن طلع النهار ، لأنهم لم يعثروا على مكان جاف يستطيعون
النوم فيه !

وعندما أشرقت الشمس ، أحس الفتيان بالنعاس يداعب أجفانهم .

فمضوا إلى الحاجز الرملي وتمددوا فوقه ثم استسلموا للنوم . ولكنهم لم يلبثوا أن أفاقوا بعد فترة من الوقت ، وبدأوا يعدون طعام إفطارهم بإكتئاب . . . وبعد أن فرغوا من تناول الطعام أحسوا بتصلب في مفاصلهم ، كما عاودهم الحنين إلى الوطن ، مرة أخرى ولم تخف علامات الحنين إلى الوطن ، على توم ، رغم أنه حاول إشاعة الابتهاج في قلبى القرصانين بقدر استطاعته . ولإذ وجد زميليه راغبين عن البقاء فى الجزيرة ، ذكرهما بالسردفين ؛ واستطاع بذلك أن يثير اهتمامهما ثم لم يلبث أن لجأ إلى حيلة أخرى للاستئثار تماما باهتمامهما . . قال لهما إنه يحسن بهم أن يتخلوا عن القرصنة ويلعبوا دور الهنود الحمر على سبيل التغيير . وراقت الفكرة للغلامين الآخرين . وتجرد الجميع من ثيابهم ، وخططوا أجسامهم بالطين حتى أصبحوا أشبه بمسير الوحش ، ثم انطلقوا عبر الغابات ليهاجموا المستعمرات الإنجليزية . . . فقد كانوا جميعاً يلعبون دور رؤساء القبائل !

وفيما بعد ، انقسموا إلى ثلاث قبائل متعادية ، وراحوا ينقضون على بعضهم البعض من مكانهم ، وهم يطلقون صيحات الحرب المدوية .

وهكذا مضى اليوم فى مرح وسعادة واجتمعوا فى المعسكر عندما حان موعد تناول طعام العشاء ، وقد عضهم الجوع بنابه ، ولكنهم كانوا سعداء - وهنا صادفتهم مشكلة ، فإن الهنود المتعادين لا يتناولون الطعام معا إلا بعد أن يعقدوا صلحاً ، وكان ذلك مستحيلاً ما لم يدخنوا غليوناً رمزاً للسلام . ولم تكن هناك وسيلة أخرى للتغلب على هذه العقبة ، ومن ثم فقد تمنى اثنان من الهنود فى تلك اللحظة لو أنهما ظلا قرصانين . إلا أنهما لم يستطيعا الإفلات من هذا القيد . وبعد لحظات أشعل الغليون وراحوا يتبادلونه وهم يتظاهرون بالمرح .

ولقد سرهم أن لعبوا دور الهنود الحمر بعد أن تبين لهم أن تأثير

التدخين لم يرغمهم هذه المرة على الذهاب للبحث عن المديّة المفقودة !
أو بعبارة أخرى ، لأن التدخين لم يسبب لهم في هذه المرة غمينا نا خطيرا
كما حدث في المرة السابقة .. ولكنهم - رغم ذلك - تحفظوا في التدخين
بعد العشاء ، فمضوا أمسية رائعة .. والآن فلندع هؤلاء الصغار في سعادتهم
ومرحهم وتدخينهم وثرثرتهم ، لأننا ان نفيد منهم شيئا في اللحظة الراهنة .

الفصل السابع عشر

القراصنة يشهدون جنازة أنفسهم!

لم يكن أحد من أهل القرية الصغيرة يشعر بأى مرح أو ارتياح بعد ظهر يوم السبت التالى . . ولقد اتشحت أسرتا « هاربر ، والعمة » بولى ، بالسواد ، وشملهما حزن عميق بينما انهمرت الدموع بغزارة من عيون جميع أفراد أسرتهما . . أما القرية نفسها ، فقد عمها سكون غير عادى . وراح القرويون يزاولون أعمالهم العادية وهم ذاهلون ، ومقلون فى الكلام ، ومكثرون فى الآهات . . وبدأت عطلة يوم الأحد عبئاً ثقيلاً على عاتق الأطفال ، فلم يشعروا بأية بهجة من ألعابهم الرياضية ، ومن ثم انصرفوا عنها . وبعد الظهر ، وجدت « بيكى تاتشر » نفسها تتجول فى ساحة المدرسة المهجورة ، وقد استولى عليها حزن رهيب ، ولكنها لم تجد شيئاً يخفف من لوعتها ، فراحت تناجى نفسها قائلة :

— أواه ليتنى أستطيع أن أستعيد المقبض النحاسى ثانية . . . إننى لا أملك الآن شيئاً يذكرنى به « توم » ،

وخنقتها العبرات . . ثم سرعان ما توقفت عن السير وقالت تناجى نفسها :

— حدث ذلك هنا . ! أواه . . لو أمكن أن يعود ذلك اليوم — لما قلت له كلمة واحدة تغضبه حتى ولو أعطيت العالم كله . ! ولكنه ذهب الآن . . ولن أراه ثانية .

وتمزق قلبها عندما ساورها هذا الحائط ، فابتعدت عن ذلك المكان والدموع تنهال من عينيها وتنحدر فوق خديها وفى تلك اللحظة ، أقبلت

جماعة من الفتيان والفتيات - كانوا زملاء «توم» و«جو» في اللعب ..
ووقفوا يتأملون سباح الملعب ويتكلمون بأصوات خافتة قائلين إن «توم»
كان يفعل «كذا وكيت» عندما رأوه لآخر مرة، وكيف أن «جو» قال
هذا أو ذلك - وراح كل متكلم يشير بالدقة إلى المكان الذي كان الغلامان
يقفان عنده في ذلك الوقت .. أو يضيف شيئاً مثل : وأما أنا فكنت أقف
هنا - كما أقف الآن ، وأما هو فكان واقفاً حيث تقف أنت . لقد
كنت قريباً منه جداً .. هكذا .. ولقد ابتسم لي بهذه الطريقة - - - وعندئذ
تملكني إحساس غريب - إحساس مقبض ولكنني لم أدرك معناه بالطبع
بيد أنني أستطيع أن أفهم هذا المعنى الآن !

وهنا احتدم الجدل بين بعض الفتيان ، وكان مداره : من كان آخر من
رأى الغلامين الغائبين على قيد الحياة ؟ وأصر كثيرون على أن يكون
الانفراد بهذا الشرف من نصيبهم ، وقدموا الأدلة على ذلك . وعندما بت
في النهاية فيمن كانوا آخر من رأوهما فعلاً ، وتبادلوا معهما آخر كلمات ،
راح الباقون يتطالعون إليهم بحسد ، أما الذين ظفروا بهذا الشرف ، فقد
اعتبروا أنفسهم أشخاصاً على أعظم قدر من الأهمية !!

وكان بين الجماعة غلام مسكين لم يجد شيئاً عظيماً يستطيع أن يفخر به ،
فقال وكأنه يشعر بالفخر من جراء الذكرى :

- مسكين «توم» .. لقد ضربني ذات يوم ضرباً مبرحاً لا أزال
أذكره !

ولكنه أخفق في انتزاع إعجاب زملائه : لأن أغلبهم كان يستطيع أن
يقول مثلما قال ، ومن ثم فقد قلل ذلك من قيمة المجد الذي كان الغلام يهفو
إلى الفوز به .. وبعدئذ بدأت الجماعة تتسكع هنا وهناك وهي تسعيد ذكريات
البطلين المفقودين بلهجة حزينة .

وعندما انتهت فترة نشاط مدرسة الأحد في صباح اليوم التالي ، بدأ ناقوس الكنيسة يدق دقاته الحزينة بدلا من دقاته العادية . كان يوما صامتا حزينا ، وبدا كأن دقات الناقوس الحزينة تتلام تماما مع ذلك الجو الرهيب الذى ساد القرية . . وبدأ القرويون يتجمعون ، وهم يتلكأون لحظات فى الممشى ليتبادلوا بعض الكلمات الهامسة تعقيبا على تلك المأساة الأليمة ، ولكنهم ما يكادون يدخلون إلى قاعة الصلاة حتى يلوذوا بالصمت فلا يسمع غير حفيف أثواب النساء وهن يأخذن مقاعدهن فى القاعة . ولم يكن أحد من الحاضرين يتذكر مناسبة سابقة امتلأت قاعة الكنيسة على النحو الذى امتلأت به فى ذلك اليوم . . وأخيراً أقبلت العمدة « بولى » ، يتبعها « سيدنى » ، و « مارى » ، ثم أسرة « هاربر » . وجميعهم يتشحون بالسواد وفى الترو وقف المصلون جميعا ، كما وقف الواعظ الكهل ، وظل واقفا إلى أن جلس أفراد الأسرتين المذكورتين فى الصف الأول من المقاعد . . وعاد الصمت بساد القاعة مرة أخرى ، ولم يكن يعكسه إلا صوت البكاء المكتوم . وفى تلك اللحظة نهض الواعظ ، وبسط يديه أمامه وبدأ يصلى . ثم رتل « الشمامسة » ، ترتيلة حزينة أعقبها قول الواعظ : « أنا البعث والحياة » .

وأثناء الصلاة ، راح الكهنة يرسمون صوراً لشمال الغلامين المفقودين والأمل العظيم الذى كان يرتجى منهما . وكانت الصور واضحة رائعة إلى درجة جعلت جميع الحاضرين يشعرون بأشد الألم كلما تذكروا أنهم كانوا يصرون على ملاحظة أخطاء الغلامين دون حسنانهما . . وذكر الواعظ كثيرا من المناسبات المؤثرة فى حياة الراحلين ، فكشف بذلك عن طبيعتهما الحلوة الكريمة . . وكلما أفاض الواعظ فى حديثه المؤثر ، ازداد المصلون ألماً وعجزوا عن حبس دموعهم ، فانفجروا جميعا باكين ، ولم يستطع الواعظ نفسه أن يتمالك رباطة جأشه فانخرط فى البكاء وهو واقف فوق المنبر . وانبعثت ضوضاء خفيفة من بحر الكنيسة ، ولكن أحداً لم ينتبه إليها ، وبعد لحظة فتح الباب فرغ الواعظ عينيه ، المبللتين بالدموع فوق منديله . .

وفي التوجهد في مكانه مستمراً . . . وبدأت العيون تتبع نظرة الواعظ. على الفور ، وسرعان ما نهض المصلون جميعاً وراحوا يحدقون ، بينما دخل الفتيان الثلاثة (الأموات) وأخذوا يتقدمون في مشى الكنيسة . . .

كان « توم » يسير في المقدمة يتبعه « جو » ، ثم « هاك » . وكان الأخير يسير منكمشاً ذليلاً يتعثر في ثيابه المهلهلة وكانوا قد اختبأوا في ممر الكنيسة غير المطروق ليصغوا إلى الصلاة التي أقيمت على أرواحهم !

وألقت العمة « بولى » و « ماري » وآل « هاربر » بأنفسهم فوق طفليهما اللذين بعثا من الموت ، وغمروهما بالقبلات ، كما ارتفعت أصواتهم بالشكر لله . . . أما « هاك » المسكين ، فقد وقف وحيداً قلقاً لا يعرف ماذا يفعل أو أين يختبئ ليتجنب نظرات الاستنكار التي كانت تسدد إليه . . . وهم « هاك » ، بالتراجع ، ولكن « توم » أمسك به من ذراعه وقال :

— إن ذلك ليس عدلاً يا عمتي « بولى » . . . يجب أن يكون هنا من يفرح بعودة « هاك » .

فقالت العمة « بولى » : نعم . إنني جد سعيدة برؤية هذا المخلوق المسكين يتيم الأم !

وأشبعته تقبيلاً حتى لقد شعر الغلام التعس بالاضطراب أكثر من ذي قبل .

وجأة صاح الواعظ بأعلى صوته :

— مبارك اسم الرب الذي يمنحنا جميع البركات — انشدوا — وانشدوا من أعماق قلوبكم .

وانشد الحاضرون بصوت مهمل ، بينما راح « توم سوير » القرصان يتطلع حوله ناظراً إلى الفتيان الذين كانوا يتطلعون إليه بحسد جعله يشعر بأن تلك اللحظة هي أسعد لحظات حياته .

وبينما كان المصلون ينصرفون من الكنيسة قالوا لهم على استعداد لأن
يصبحوا موضع السخرية مرة أخرى لكي يسمعوا هذا الإنشاد ثانية ا
وفاز د توم ، بقدر كبير من القبل في ذلك اليوم - وكان ذلك متوقعا
من العمة د بولي ، وهي في حالتها النفسية تلك - يزيد على ما فاز به منها
في عام كامل ، ولكنه لم يكن يدري هل كانت تلك القبل للتعبير عن الشكر
لله أم حبا لشخصه .

الفصل الثامن عشر

«توم» يذيع سر حلمه!

كان ذلك هو سر توم العظيم - خطة العودة إلى الوطن، مع زميليه القرصانين وحضور صلاة الجنازة... وكان الفتیان الثلاثة قد عبروا النهر فوق كتلة ضخمة من الخشب عند الغسق يوم السبت، وهبطوا إلى الشاطئ على مبعده خمسة أو ستة أميال جنوب القرية، وناموا في الغابة عند حافة المدينة حتى طلع الفجر، ثم سلكوا الطرقات والأزقة الخلفية حتى وصلوا إلى ممر الكنيسة الجانبي فاستأنفوا نومهم فيه بين المقاعد المحطمة.

وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار في يوم الاثنين، أضفت العمدة بولي، و «ماري»، من حبهما الشيء الكثير على «توم»، وكانتا تلبيان جميع رغباته. ولقد أفاض الجميع في الحديث، وقالت العمدة «بولي» في خبث مرح:

— حسناً... لست أعتقد أنها كانت دعاية لطيفة يا توم، أن تجعلوا الجميع هنا يتمدون أسبوعاً كاملاً، بينما تقضون أنتم رقتاً طيباً، ولكن بما يوسف له حقاً أن قلبك الغليظ سمح لك بأن تجعلني أتعذب على هذا النحو المؤلم... فما دمتم قد استطعتم العودة فوق كتلة من الخشب لتشهدوا جنازتك، فقد كان في استطاعتك أن تأتي وتلمح لي بطريقة ما، أنك لست ميتاً، وأنت هارب فقط.

فقالت «ماري»: نعم كان في استطاعتك أن تفعل ذلك يا توم... وأكبر ظني أنه كان ينبغي عليك أن تفعل ذلك لو أن الأمر خطر ببالك...

وتتهال وجّه العمّة د بولى ، وسألت بلمفّة : هل كنت تفعل يا د توم ، ؟
«أخبرنى ، هل كنت تفعل ذلك لو أنه خطر ببالك ؟
— إننى إننى لست أدرى . . . لقد كان ذلك خليقاً بأن يفسد
بكل شىء . . .

فقالّت العمّة د بولى ، بصوت يدل على الألم مما جعل الغلام يضطرب :
— د توم كنت آمل أن تحببى أكثر من ذلك . . . ولا شك فى
أنك كنت تدخل برد الراحة على قلبى ، لو أنك عنيت بالتفكير فى الأمر حتى
ولولم تنفذه !

فقالّت د مارى ، مناشدة : كفى بالله عليك يا عمى . . إنه طيش
د توم ، كما تعلمين — فهو دائماً مندفع هكذا ، حتى ليعتذر عليه أن يفكر
فى أى شىء . .

— هذا أمر يؤسف له . . . لو كان د سيدنى ، فى مكانه لفكر فى
هذا الأمر ، ولجاء وفعل ذلك أيضاً . . . د توم ، سوف يأتى اليوم الذى
تنطلع فيه إلى الورا — ولكن بعد فوات الأوان — وتتمنى لو أنك بذلت
لى اهتماماً أكثر ، بما كان ليكافك إلا القليل . .

فقال د توم ، : أنت تعرفين ولا ريب أننى أهتم بأمرى يا عمى .
— كان خليقاً بهذه المعرفة أن تصبح أنم ، لو أنك سلكت سلوكاً لائقاً .

فقال د توم ، بلهجة النادم : بودى لو أننى فكرت فى الأمر . ولكنى
كنت أحلم بك على كل حال . وأظن أن ذلك أمر له أهميته . أليس
كذلك ؟ .

— ليس لهذا أهمية كبرى . . . فإن القطة تفعل ذلك . . ولكنه خير من
الاشىء على كل حال . . . لكن ماذا حلت ؟ .

-- حلت ليلة الأربعاء الماضى أنك كنت جالسة بجوار الفراش ،

و« سيدنى ، بجانب الصندوق الخشبى ، بينما كانت « مارى ، تجلس بجواره .
- حسنا . . لقد كنا فعلا نجلس كذلك - فهذه جلستنا المعتادة دائما ،

ولكننى مسرورة لأنك تذكرتنا فى الحلم !!

- وحميت أيضاً أن أم « جوهار بر ، كانت معكم .

- يا إلهى : لقد كانت هنا اهل حميت بأكثر من ذلك ؟ .

- أوه . . كثيرا . ولكن التفاصيل أو شكيت أن تمنحنى الآن .

- حاول أن تتذكر . . ألا تستطيع ؟ .

وقد خيل إلى أن الريح . . . أن الريح كانت تعبت . . .

- فكر أكثر « يا توم ، . لقد عبثت الريح بشىء . . هيا تكلم .

فضغط الغلام جبهته بيده كأنما ليتذكر . وأخيرا قال :

- آه . . لقد تذكرت . كانت تعبت بلهب السمعة .

- يا للسماوات . استمر يا « توم ، . . استمر ا

- ويخيل إلى أنك قلت إن الباب . . .

- استمر يا « توم ، .

-- دعينى أفكر لحظة . . لحظة واحدة . . آه . نعم . . قلت إنك تعتقدين

أن الباب مفتوح .

- لقد قلت ذلك بكل تأكيد . . أليس كذلك يا « مارى ، ؟

استمر ا .

- وبعده . . وبعده . . حسناً . . لست متأكددا ، ولكن يخيل إلى

أنك طلبت من « سيدنى ، أن يذهب . . و . .

-- استمر . . استمر . . ماذا طلبت منه أن يفعل « توم ، ؟ ماذا ؟

- طلبت إليه أن يغلق الباب .

- يا للسموات ! إننى لم أسمع عن مثل هذه المعجزة طوال حياتى ألا تقولون ؟
إن الأحلام مجرد خزعبلات . . . سوف أفضى إلى « مسز هاربر » بكل
ذلك قبل أن تنقضى ساعة واحدة . . . فإننى أريد أن أعلم كيف يمكنها أن
تفسر ذلك بيدعها السخيفة . . . استمر يا « توم » .

- آه : لقد تذكرت الآن كل شىء بوضوح . . . بعد ذلك قلت إننى لم
أكن شريراً ، ولكنى كنت (شقيماً) وطائشاً فقط ، وأنه لا ينبغى أن يحملنى
الناس من المسؤولية فوق طاقتى .

-- هكذا قلت فعلاً . . . يا للسماء . استمر يا « توم » .

-- تم بدأت تبكين

- نعم .. هذا صحيح . ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى بكيت فيها . . .
ثم ماذا ؟

- ثم انخرطت « مسز هاربر » فى البكاء أيضاً ، وقالت إن « جو »
كان مثلى ، وأنها كانت تتمنى لو أنها لم تضربه بالسوط لأنه شرب القشدة
(الكريمة) الفاسدة .

- « توم » ، لقد كانت « الروح » تتقمصك ! لقد كنت تنبأ . . .
نعم ، هذا ما كنت تفعله ! امض فى حديثك . . .

- عندئذ قال « سيدنى » . . . قال « سيدنى » . . .

فقاطعه « سيدنى » قائلاً : لا أظن أننى قلت شيئاً

فقال « مارى » : بل تكلمت يا « سيدنى » ،

وصاحت عمتها : اصمتا ، ودعا « توم » يتكلم ! ماذا قال « سيدنى » .

« يا توم » ؟

قال .. أظن أنه يأمل أن أكون سعيداً حيث كنت . ولكن
كان ينبغي ..

هل تسمعان ؟ أن هذه هي عين الكلمات التي نطق
« سيدنى ، بها !

ولكنك نهرته وطلبت إليه أن يصمت ..

هكذا فعلت الاشك أن ملاكا كان هناك .. لقد كان هناك ملاك

فعلا !

فأردف « توم » : وقالت « مسز هاربر » إن « جو » أفزعها حين
(فرقع) كبسولة أمامها ، وذكرت أنت قصة القطة والدواء الذي يقتل الألم !

— هذا صحيح على طول الخط ، ا

— ثم تحدثتم بعد ذلك عن البحث عنا في النهر ، وعن إقامة الجنازة
في يوم السبت ، وبعدها تعانقتما — أنت « ومسز هاربر » — وبكيتما .
ثم انصرفت هي .

هذا ما حدث بالضبط ! إنك ما كنت تستطيع أن تصف ما حدث
بمثل هذه الدقة ، لو أنك كنت موجودا معنا يا « توم » ، ثم ماذا بعد ذلك ؟ .
استمر .

— وبعدها خيّل إلى أنك صليت من أجلى — وكان في استطاعتي أن
أراك وأن أسمع كل كلمة تنطقين بها . ولقد أسفت من أجلك ، حتى لقد
أخرجت لفاقة من لب الشجرة وكتبت لك رسالة عليها قلت فيها : « إننا لم
نمت — ولكننا اختفينا لنزاول القرصنة ، ووضعت هذه الرسالة بجانب
الشمعدان فوق المنضدة ، وتطلعت إليك وأنت نائمة ، فأخذتني الشفقة
عليك وأظن أنني ملت عليك وقبّلت شفتيك .

— أحقا يا « توم » ؟ هل فعلت ذلك ؟ إنني أعتذر لك كل ما بدر منك

(١١ م - نوم سوير)

من أجل ذلك . ثم ضمت الغلام إلى صدرها بعنف جعله يشعر بأنه أكثر الأشرار إثمًا في العالم .

فتمتم « سيدنى ، ا بصرت مسموع : كان ذلك عملا رحيما رغم أنه حدث في . . الحلم ا

فصاحت عمته : صه يا « سيدنى ، إن الجسم يأتي في الحلم ما قد يفعله في اليقظة . . خذ هذه التفاحة الكبيرة التي احتفظت لك بها لأقدمها لك يوم يعثرون عليك يا « توم ، . . والآن ، اذهب إلى المدرسة . . إننى عاجزة عن شكر الله الرحمن الرحيم ، أبيتنا جميعاً ، لأنك عدت إلى ، ولو أنى لا أستحق عفوهِ ورضاه . . اذهبوا جميعاً إلى المدرسة فقد أضعت منى وقتاً طويلاً .

وانصرف الصغار إلى المدرسة ، بينما مضت العمّة العجوز لزيارة « مسز هاربر ، والإفضاء إليها بحلم « توم ، العجيب ! ! وهكذا أصبح « توم ، بطلاً عظيماً الآن . . لم يعد يعبت ويصخب كما كان يفعل من قبل ليجتذب الأنظار ، وإنما راح يمشى مخملاً مثلما يفعل القرصان الذى يشعر بأن عيون الجماهير تلاحقه ! ! ولقد كانت العيون تلاحقه فعلاً . ومن ثم حاول أن يتجاهل نظرات الجميع وتعليقاتهم أثناء مروره بهم ، وإن كانت هذه النظرات والتعليقات قد أصبحت عنده بمثابة الطعام والشراب ! ! وكان يسير فى أعقابه جمع من الفتيان الذين يصغرونه سناً ، وهم يشعرون بالزهو كهارآم زملائهم معه بغير أن يضيق بهم ! وهكذا أصبح « توم ، مثل قارع الطبول الذى يسير على رأس الموكب ، أو الفيل الذى يقود عرضاً للوحوش الغريبة على خشبة مسرح ! . أما الغلمان الذين كانوا يبلغون من الأعمار مثلما يبلغ ، فقد تظاهروا بأنهم لم يعلموا بغيبته إطلاقاً ، ولكن الغيرة كانت تنمش قلوبهم ! ولا شك فى أنهم كانوا على استعداد لأن يدفعوا أى ثمن مقابل أن تكون لهم بشرته السمراء التى لفحتها الشمس ، وتلك

النظرات اللامعة التي تدل على (الشقاوة) . ولكن « توم » ما كان ليتنازل
عن إحداها مهما كان الثمن !

وفي المدرسة ، لقي « توم » و « جو » ، تقديراً عظيماً من زملائهما ،
وأصبحا موضع الإعجاب والتقدير . . . وبدأ الغلامان يسردان مغامراتهما على
السامعين المتعطشين - ولكنها كانت مجرد بداية فقط ، إذ لم يكن من
المتوقع أن تكون للقصة نهاية ، فقد كان البطلان يتمتعان بخيال خصب
يستطيع أن يجد دائماً المادة المشوقة . . . وأخيراً أخرج الغلامان غليونيهما ،
وراحا ينفثان الدخان من فيهما ، فاستطاعا بذلك أن يبلغا قمة المجد في أعين
الزملاء الصغار !

ورأى « توم » أنه من الخير أن يهمل شأن « بيكي » تاتشر ، في ذلك
الوقت ، مكتفياً بالمجد الذي بلغه ، بعد عودته المظفرة . . . لقد أصبح « توم » ،
بطالاً لامعاً ، ولعلمها تريد الآن أن تعيد العلاقة التي كانت بينهما - ولم
تلبث أن انقطعت - إلى ما كانت عليه من قبل ! . . . حسناً . . . دعها تحاول ،
فلسوف تدرك أن في استطاعته أن يصطنع من الدلال ما يصطنعه بعض
الكبار ! . . . وبعد قليل وصلت « بيكي » فتظاهر « توم » بأنه لم يرها . ومشى
مبتعداً إلى حيث انضم إلى جماعة من الفتيان والفتيات ، وبدأ يتكلم . . .
وسرعان ما لاحظ أن الفتاة كانت تخاطر بمرح جيئة وذهابا وقد تورد
وجهها ، والتمعت عيناها ، وهي تتظاهر بأنها منهمكة في مطاردة زملائها
وزميلاتها ، وتضحك بطريقة تشبه الصراخ كلما استطاعت أن تمسك واحد
أو واحدة منهم ، ولكن « توم » لاحظ أن « بيكي » تعتمد ألا تمسك
بزملائها وزميلاتها إلا على مقربة منه ، وأنها لا تنفأ تختلس النظر إليه
كلما فعلت ذلك ، فأرضى مسلكها غروره الشرير ، وبدلاً من أن يجعله
ذلك يسعى إلى إصلاح ذات البين بينهما ، تمادى في غيه وكبريائه ، وازداد
إمعاناً في تجاهل وجودها ، وسرعان ما تخلت الفتاة عن حركاتها المسرحية وأخذت

تسير بخطى وثيدة على مقربة منه ، وهي تتهد مرة أو اثنتين ، وتطلع خلسة إلى حيث وقف « توم » . وما لبثت أن لاحظت أن « توم » كان يؤثر « أمى لورنس » بحديثه ، فأحست بألم عميق ، وانتابها القلق فى الحال . وحاولت أن تتعد ، ولكن ساقها خذلناها وحملناها نحو الجماعة التى كان « توم » يتصدرها .. ثم قالت لفتاة كانت تقف بجوار « توم » بلهجة مرحة مفتعلة :

— أهذا أنت يا « مارى أوستن » ، يا لك من فتاة شريرة ... لماذا لم تأتى إلى مدرسة الأحد ؟

— لقد أتيت . ألم ترىنى ؟

— كلا . ولكن هل أتيت حقاً ؟ أين كنت تجلسين ؟

— كنت فى فصل الأئمة « بيترز » الذى اعتدت أن أذهب إليه ... ولقد رأيتك هناك .

— أحقاً ؟ من العجيب أننى لم أرك ، فقد كنت أريد أن أتحدث إليك عن الرحلة ، التى سوف تقوم بها

— أوه ! هذا بديع . لكن من الذى سيهداها ؟

— والدتى

— مدهش ! أرجو أن تسمح لى بالحضور

— نعم ! ... فقد أعدت هذه « الرحلة » من أجلى ، ومن ثم فإنها ستسمح بحضور كل من أريد حضوره ، وأنا أريد حضورك .

— أشكرك على جميل شعورك .. ومتى ستمت هذه « الرحلة » ؟

— قريباً ، ربما فى العطلة

— لا شك فى أنها ستكون نزهة رائعة ! هل ستدعين جميع الفتيات

والفتيات ؟

- نعم . كل من تربطني به رابطة الصداقة - أو يريد أن يصبح
صديقى !!

وتطلعت خلسة إلى «توم» لكنه استمر فى حديثه مع «أمى لورنس»
عن العاصفة العاتية التى هبت على الجزيرة ، وكيف أنها اقتلعت الشجرة
الضخمة من جذورها ، بينما كان يقف على مبعده ثلاثة أقدام منها !!
وسألت «جراسى ميلر» : «أوه هل آتى أنا أيضا ؟

- نعم

وقالت «سالى روجرز» : «وأنا ؟

- نعم

وسألت «سوزى هاربر» : «وأنا أيضا ؟ و «جو» ؟

- نعم

واستمر الصخب بين تصفيق الجميع وتهليلهم ، حتى لقد طالب الجميع
بإدعوتهم إلى هذه النزهة ، فيما عدا «توم» و «أمى لورنس» !!

وفى تلك اللحظة ، استدار «توم» وهو يتكلم ، ومضى مبتعداً ومعه
«أمى» . . . فارتعشت شفقتا «بيكى» ، واغرورت عيناهما بالدموع ، ولكنها
بادرت بإخفاء هذه الانفعالات وهى تتظاهر بالمرح . ومضت تثرثر ،
ولكن (النزهة) فقدت كل جاذبيتها فى تلك اللحظة ، وانتهزت «بيكى»
أول فرصة سنحت لها ، وانسحبت بعيداً ، إلى حيث احتجبت عن العيون
وانفجرت تبكى بحرقة . وحينما تمالكت روعها ، راحت تفكر فى كبرياتها
الجزرية حتى دق الناقوس ، فهضت ، وقد ارتسمت فى عينيها نظرة أشبه
بنظرة شخص حزم أمره على الانتقام من شخص آخر أساء إليه . . .

وفى المؤخرة ، ظل «توم» يغازل «أمى لورنس» ، وقد بدا عليه
الارتياح الشديد ، وراح يتنقل معها من مكان إلى آخر باحثاً عن «بيكى»

ليمن في إغاظتها ، وأخيراً رآها . ولكنه لم يلبث أن أحس بعقارب الغيرة تلدغه ، فقد كانت تجلس فوق مقعد خلف بناء المدرسة ، وبجوارها « الفريد » تمبل ، وهما منصرفان إلى مشاهدة كتاب مصور ، وكانا مستغرقين في مشاهدة الصور وقد تقارب رأساهما ، وكانهما يعيشان في عالم آخر وبدأ « توم » يلوم نفسه لأنه أضيع الفرصة التي عرضتها « بيكي » عليه للصالح .

وأخذ يؤنب نفسه على جهالته وحماقته ، وقد أحس بالرغبة في البكاء . من فرط الغيظ .. أما « أمي » فقد مضت تحدته بمرح وهما يسيران جنباً إلى جنب ، لأن قلبها كان يرقص طرباً ، ولكن لسان « توم » فقد قدرته على الحركة كأنما أصابه شلل مفاجيء ، ولم يسمع الغلام ما كانت « أمي » تقوله وظل « توم » يتجول مع « أمي » وهو يحرص أشد الحرص على أن يكثر من الذهاب إلى حيث جلست « بيكي » مع « الفريد » ، وكان كلما وقعت عيناه عليهما في جلستهما الهادئة ، يحس بأن رأسه توشك أن تنفجر ، ولقد زاده ضيقاً ما كان يبدو على « بيكي » من علامات الاستخفاف بأمره ، وكأنها كانت تريد أن توحى إليه أنها لم تعد تدرك أنه لا يزال حياً يرزق ويدب على ظهر الأرض !! ولكن الواقع كان غير ذلك . فقد كانت « بيكي » تراه ، كما كانت تعلم أنها رجت المعركة ، وقد سرها أن تراه يتعذب ويتألم مثلما تعذبت وتألمت !!

وضاق « توم » بثثرة « أمي » ، فاعتذر بأن لديه أعمالاً هامة عاجلة ، وبأن الوقت يمضي سريعاً !! ولكن الفتاة تجاهلت اعتذاره فقال « توم » لنفسه « لعنة الله عليها . . ألا أستطيع التخلص منها ؟ . . ثم قال لها إنه مضطر إلى الانصراف لأن هذه الأعمال لا تحتمل الإرجاء . فقالت بلا كياسة أنها سوف « تنتظره » ، عندما تنتهي الدراسة ، وعندئذ أسرع بالابتعاد عنها وهو يستشعر أشد الكراهية لها .

وعض « توم » شفثيه وهو يقول لنفسه : ألم تجد غير هذا الغلام ؟ لو أنها صادقت أحداً غير هذا الغلام الذي يعتبر نفسه أكثر فتیان المدينة

أناقة وأرستقراطية ، لما آهت له ! أوه ! حسنا . . لقد ضربتك يوم أن
رفدت على هذه المدينة يا سيدى . وسوف أضربك ثانية ! انتظر حتى أظفر

بك ! سوف أتحرش بك و . . .

وظل « توم » نهباً لعواطفه الشائرة وهو يتهدد الغلام ، ويأتى بحركات
من يديه ورجليه كما لو كان يضرب غلاماً أمامه ويقول : انتظر . . . انتظر . . .
إنك تصرخ كثيراً ، اليس كذلك ؟ خذ من ذلك عبرة ودرساً !

وعند الظهر عجل « توم » بالذهاب إلى المنزل . . ولم يستطع ضميره
أن يحتمل مزيداً من سعادة « أمى » وثرثرتها ، بينما الغيرة تنهش قلبه . .
أما « بيكى » فقد استأنفت مشاهدة الكتاب المصور مع « الفريد » ، ولكنها
كانت - كلما مرت الدقائق متشاقلة غير منبثة بعودة « توم » - تشعر
بتضاؤل نشوة انتصارها ، وسرعان ما فقدت الرغبة في مشاهدة الصور .
ولقد أصاحت السمع مرتين أو ثلاثاً عندما تنهى إلى أذنيها صوت وقع
أقدام مقبلة ، ولكنه كان أملاً زائفاً ، لأن « توم » لم يأت . . وأخيراً
بدأت تحس بالتعاسة ، وتمنت لو أنها لم تتباد في انتقامها إلى هذا الحد .
وعندما أدرك « الفريد » التعس أنه يوشك أن يفقد الفتاة ، راح يحاول
إثارة اهتمامها ، فكان لا يفتأ يصيح بين الحين والحين : أوه ! ها هى صورة
رائعة ! أنظرى إلى هذه ! . . ولكنها فقدت صبرها فى النهاية ، فقالت له
« لا تضايقنى ! إننى لا آبه لها ، . . وانفجرت باكياً ، ونهضت ، ثم سارت
مبتعدة عنه .

وبادر « الفريد » باللحاق بها ، وكان يهم بمحاولة تهدئتها عند
ما قالت له :

— اذهب ودعنى وحدى .. اذهب . . ألا تسمع ؟ ! إننى أكرهك !

وكف الغلام عن متابعتها ، وهو يتسامل عما عساه يكون قد فعله فأثارها
إلى هذا الحد - - ذلك أنها كانت قد قالت له أنها ستتنصع معه جميع الصور

خلال فترة الظهر - ولكنها تركته وابتعدت عنه باكية . . . واضطر
« الفريد » إلى تركها ، وذهب إلى الفصل الشاغر وهو مستغرق في التفكير . .
كان يشعر بالامتهان والغضب ، ولم يصعب عليه الوصول إلى الحقيقة -
لقد اتخذت الفتاة منه أداة لإظهار حقدتها على « توم سوير » . . . وعندما
وصل إلى هذا الحد من تفكيره ، كانت كراهيته لتوم قد تضاعفت مرات
ومرات ، وكان يتمنى لو استطاع أن يعرف طريقة تمكنه من إثارة المتاعب
لهذا الغلام بغير أن يجازف بتعريض نفسه لنقمته . . . وبقية ، وقع بصره
على كتاب الإملاء الخاص بتوم ، فأيقن أن الفرصة قد واثته للانتقام منه ،
وفتح الكتاب عند الدرس الذي سيقرأونه بعد الظهر ، وسكب المداد
فوق الصفحة ١١

وتصادف أن كانت « بيكي » تتطلع من النافذة التي خلفه في تلك اللحظة ،
ورأت ما فعل ، فأسرعت لتبتعد عن النافذة بغير أن تدع « الفريد » يلحقها ،
ثم كرت عائدة إلى المنزل وهي تعتزم لقاء « توم » وإطلاعه على الحقيقة ،
فليس من شك في أن « توم » سوف يشكرها على حسن صنيعها ، وبذلك
ينتهي ما بينهما من سوء تفاهم ، ولكنها عادت فعدلت عن رأيها في الطريق ،
فقد تذكرت سوء معاملة « توم » لها حينما كانت تتحدث مع زميلاتها عن
« النزهة » المرتقبة ، وكيف أنه تعمد إذلالها وتحقيرها . . . ومن ثم قررت
أن تدعه يضرب بالسوط لما انسكب على كتاب الإملاء من مداد ، وأن
تكرهه إلى الأبد جزاء وفاقاله على ما نالها من سوء معاملته .

الفصل التاسع عشر

« لم يخطر ببالى ! »

عندما وصل « توم » إلى المنزل ، كان في حالة نفسية تعسفة ، وقد دله أول حديث دار بينه وبين عمته على أن أحزانه لن تلقى أى عطف أو تقدير ، قالت له : إننى أفكر فى أن أسلخ جلدك حياً يا « توم » ،

— ماذا فعلت يا عمتى ؟

— فعلت ما فيه الكفاية ، فقد ذهبت إلى « مسز هاربر » وأنا أتوقع أننى سأجعلها تصدق كل السخافات التى قلتها لى عن ذلك الحلم ، ولكنى لم ألبس أن فوجئت بأنها عرفت من « جو » أنك جئت إلى هنا خلسة واسترقت السمع إلى حديثنا فى تلك الليلة .. « توم » لست أدرى ماذا يحق بغلام يرتكب مثل هذا الإثم .. إننى أقشعر كلما فكرت فى أنك سمحت لنفسك بأن تجعلنى أذهب إلى « مسز هاربر » وأقف مثل هذا الموقف المخجل بغير أن تنطق بكلمة واحدة .

كان هذا وجهاً جديداً للموقف ، فقد كان « توم » يعتقد أن ما أبداه من مهارة فى الصباح ، كان دعابة طيبة تدل على عبقرية فذة ، أما الآن فقد بدأ يعتبر ذلك ندالة وضعة .. فنخفض رأسه ، واستعصى عليه التفكير ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ..

وأخيراً قال :

— ليقنى لم أفعل ذلك يا عمتى .. بيد أنه لم يخطر ببالى .. !
— أواه أيها الطفل .. لم يخطر ببالك ... إنك لا تفكر فى أى شىء غير أنانيتك .. إنك تستطيع أن تفكر فى القيام بهذه الرحلة الطويلة

إلى جزيرة « جاكسون » ، في جوف الليل لتسخر من متاعبنا ، وتستطيع أن تفكر في السخرية منى بأكذوبة كبيرة عن ذلك الحلم ، ولكن لم يخطر ببالك مطلقاً أن ترأف بنا وتجنبنا كل ما تكبدها من ألم !

— لقد تبين لي الآن أن ذلك كان عملاً وضعياً يا عمتهى ، ولكنى لم أكن في الواقع أتعمد ذلك .. نعم يا عمتهى ألم أكن أتعمد ذلك ، ثم أننى لم آت إلى هنا في تلك الليلة لأسخر منكم .

— إذن لماذا جئت ؟

— جئت لأقول لك ألا تقاقي علينا ، وإنما لم نغرق ا

— « توم » .. « توم » .. أوكد لك أنتى أصبح أسعد امرأة ، لو أننى استطعت أن أصدق أن مثل هذه الفكرة النبيلة خطرت ببالك ، ولكن الواقع هو أن الأمر لم يكن كذلك .. إننى واثقة من أنه لم يكن كذلك يا « توم » .

— أوكد لك يا عمتهى أن هذا هو ما جئت من أجله ..

— أوه الا تكذب يا « توم » ، كلا ، لا تكذب ، لأن ذلك يزيد الموقف سوءاً .

.. إننى لا أكذب يا عمتهى ، فذلك هى الحقيقة . لقد كنت أبغى دفع شبح الخوف عنك . ولهدا زرت المنزل سراً لأترك لك رسالة أشرح فيها حقيقة الأمر

— إننى على استعداد لأن أدفع أى ثمن لأصدقك — لأن ذلك كفيل باصلاح كل ما ارتكبهته من آثام ، لكن الأمر لا يبدو معقولاً ، وإلا فلماذا لم تقل لي ذلك أيها الطفل ؟

— عندما سمعتمكم تتكلمون عن الجنازة سيطرت على فكرة واحدة ، ألا وهى الاختفاء داخل الكنيسة لئرى جنازتنا بأنفسنا . . ومن ثم أعدت

الرسالة إلى جيبى ولزمت الصمت ..

-- أية رسالة ؟

— رسالة كنت قد كتبتها لك على لفافة من لب الشجر ، ذكرت فيها
أنا ذهبنا للقرصنة .. بودى لو أنك استيقظت عندما قبلتك .. نعم ، بودى
لو أنك فعلت ذلك .

فانفجرت أسارير السيدة العجوز ، ونجسنت في عينيها نظرة تنطوي
على الحنان ؟

— هل قبلتني يا د توم ، ؟

... نعم . . .

— هل أنت واثق من ذلك يا د توم ، ؟

— نعم يا عمتى .. لأننى واثق من ذلك تماماً !

— ولماذا قبلتني يا د توم ، ؟

— لأننى أحبك .. وقد انفطر قلبى حزناً من أجلك ، عندما سمعتك

تأوهين ..

كان الغلام يتكلم بلهجة صادقة ، ولم تستطع السيدة أن تغالب عاطفتها
فقال بصوت مرتعش :

— قبلتني مرة أخرى يا د توم ، ثم انصرف إلى المدرسة ولا تضايقنى
أكثر من ذلك .

وما كاد الغلام ينصرف ، حتى أسرع عمته إلى المطبخ ، وخرجت
تحمّل بقايا السترة (الجاكتة) التى ارتداها د توم ، عندما ذهب للقرصنة
ثم توقفت وقالت لنفسها :

— الآن سوف أطمئن .. مسكين هذا الغلام .. أعتقد أنه كذب على

في هذا الشأن أيضاً - ولكنها كذبة محمودة .. محمودة لأنها تجلب لي راحة عظيمة ... ولاني لأحمد الله - وليرحمني الله - لأن الغلام كان طيب القلب جداً حين أفضى إليّ بهذا القول .. ولكنني لا أريد أن أكتشف أنها كانت أ كذوبة !!

وأعادت السترة إلى مكانها ، ووقفت تفكر قليلاً .. ثم مدت يدها مرتين لتلنقط السترة ، وهي تجفل .. وبعدئذ استجمع شجاعتهما وهي تقول مناجية نفسها : « إنها أ كذوبة حسنة - أ كذوبة حسنة - لن أدعها تحرنتني ، وتحسست جيب السترة ، وبعد لحظة كانت تقرأ رسالة « توم ، والدموع تظفر من عينيها ، ثم قالت في استطاعتي أن أصفح الآن عن هذا الغلام حتى ولو كان قد ارتكب مليوناً من الآثام ، ا

الفصل العشرون

« توم » يتلقى عقوبة « بيكي »

أدرك « توم » أن شعوراً غير عادي كان يسيطر على عمته « بولي » حينها قبلته ، لأن ذلك الشعور اكتسح انهيار روحه المعنوية وجعله يستشعر السعادة مرة أخرى .. كان الحظ قد جعله يلتقي ببيكي تاتشر عند « ميدولين » وهو في طريقه إلى المدرسة .. ولما كانت حالته النفسية هي دائماً التي تملي عليه تصرفاته ، فقد ركض نحوها بلا تردد وقال لها :

— لقد تصرفت تصرفاً وضيعاً اليوم يا « بيكي » ، وإني لآسف على ما بدر مني ، وأؤكد لك أنني إن أفعل ذلك ثانية طالما حييت — فأرجو الصفح ..

فتوقفت الفتاة عن السير وتطلعت إليه في سخرية .. وقالت :

— أكون شاكرة لو أنك احتفظت باعتذارك لنفسك يا مستر « توماس سوير » ، فإنني إن أخاطبك ثانية .. وشمخت بأنفها ، ومضت في سيرها . جمد في مكانه مسمراً ، ولم يسعه تفكيره حتى يقول لها « ومنذا الذي يأبه لقولك هذا يا آنسة ؟ » وبذلك أفلتت منه الفرصة . ومن ثم فقد صمت ، ولكنه كان يهدر من الغضب كالبركان وانطلق إلى المدرسة وهو يكظم غيظه . وعندما رآها أمام المدرسة ، توجه إليها بملاحظة لاذعة . فقابلته بملاحظة أشد لذعاً وعندئذ انفجر غضبه .. وخيل لبيكي ، في ثورة غضبها ، إنها لن تستطيع أن تنتظر حتى تبدأ الدراسة لتتأثر لنفسها .. كانت تشعر بنفاد صبر شديد ، إذ كانت ترغب في أن ترى « توم » يضرب ضرباً مبرحاً بسبب المداد الذي انسكب على كتاب الإملاء .. ومع أنها كانت قد

راودتها فكرة كشف أمر الفريد تمبل ، إلا أن هذه الفكرة لم تلبث أن تلاشت تماما من رأسها بعد أن سخر توم ، منها .

مسكينة هذه الفتاة ! لقد كانت تجهل ما يخبئه القدر لها من متاعب .. ذلك أن المدرس ، « مستر دو بينز » ، كان قد بلغ منتصف العمر ولما يحقو طموحه ، فقد كان كل أمله في الحياة أن يصبح طبيباً ، ولكن الفقر قرر ألا يجعله أكثر من مدرس في قرية .. وفي كل يوم كان يخرج كتاباً غامضاً من مكتبه ، يستغرق في مطالعته عندما يكون تلاميذه منصرفين إلى استنكار درسه . ولقد حرص « مستر دو بينز » ، على الاحتفاظ بسرية هذا الكتاب ، فكان يغلق درج مكتبه بالمفتاح . ولهذا كان جميع من في المدرسة يتحرقون شوقاً إلى إلقاء نظرة واحدة على محتوياته ، ولكن الفرصة لم تسنح لأحد منهم . وكان لكل غلام وفتاة رأى خاص في طبيعة هذا الكتاب . ولكن رأيين من هذه الآراء لم يكونا متشابهتين ، ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة الحقيقة .. وقد اتفق أن كانت « بيكي » ، تتر بالمكتب في هذا اليوم ، فلاحظت أن المفتاح موجود في القفل كانت فرصة ذهبية .. فتلفتت حوله ، وحينما وجدت نفسها وحيدة ، فتحت درج المكتب وأخرجت الكتاب منه .. كان عنوان الكتاب « كتاب الأستاذ فلان في التشريح » ، ولم تفهم الفتاة معنى كلمة « تشريح » ، ومن ثم بدأت تقلب صفحات الكتاب ، وسرعان ما وقعت عينها على لوحة جاذبة ملونة لجسم الإنسان -- عارياً .. وفي تلك اللحظة سقط ظل على الصفحة ، ودخل « توم سوير » ، من الباب ولمح الصورة .. فارتبكت الفتاة ، وحينما همت بغلق الكتاب ، شاء سوء حظها أن تتمزق صفحة الرسم من منتصفها .. ودفعت « بيكي » ، بالكتاب في درج المكتب ، وأدارت المفتاح في القفل ، ثم انفجرت باكياً وهي تشعر بأشد الحزى .

وصاحت : « توم سوير » .. إنك وضع أشد الضعة . كيف تجرؤ

على اختلاس النظر إلى ما يتطلع إليه الآخرون ا

— وكيف كان يمكنني أن أعرف أنك تتطلعين إلى شيء كهذا ؟

— يجب عليك أن تخجل من نفسك يا د. توم سوير ، . . لاشك في أنك ستشقى بي . . أواه ياربي ا ماذا عساي أفعل . . ماذا عساي أفعل ؟ سوف أضرب بالسوط ، أنا التي لم أضرب في المدرسة من قبل إطلاقاً .

ضربت الأرض بقدمها الصغيرة في عنف واستطردت :

— كن وضعياً إن شئت ا إنني أعرف أن شيئاً ما سيحدث لك : انتظر فسوف ترى ا إنني أكرهك . . أكرهك . . أكرهك ا

ثم انطلقت من الغرفة وهي تضحك بشدة . .

وجمد د. توم ، في مكانه وقد أذهلته المفاجأة . . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه :

— يالها من فتاة حمقاء غريبة الأطوار . لم يسبق لها أن ضربت في المدرسة . ا هذا سخف ، إذ لماذا يخجل الإنسان من الضرب ؟ هكذا شأن الفتيات — إن جلدهن رقيق للغاية وقلوبهن ضعيفة أيضاً . . حسناً .. بالطبع أنا لن أقول لمستر د. دوينز ، شيئاً عما ارتكبته هذه الحمقاء الصغيرة ، لأن هناك وسائل أخرى ليست على هذا القدر من الضعة للشار منها . . لكن ماذا سيحدث ؟ سوف يسأل د. مستر دوينز ، من الذي مزق الكتاب ؟ وإن يجيب أحد على هذا السؤال ، وعندئذ سيلاًجأ إلى الطريقة التي يتبعها دائماً — فيسأل أول تلميذ أمامه ، ثم ينتقل إلى غيره وهلم جرا . . . وعندما يصل إلى الفتاة المذنبه سيعرف الحقيقة بغير أن يحدثه أحد عنها ، لأن وجوه الفتيات تفضهن دائماً . . وعندئذ سوف يضربها بقسوة . . مهما يكن ، سيكون موقف الفتاة حرجاً غاية الحرج ا

وأطال «توم» التفكير في الموقف . ثم قال : حسناً . . إنها تعنى
لو استطاعت أن ترانى فى مثل هذا المأزق . فلتتل إذن جزاءها !

وانضم «توم» إلى زملائه الذين كانوا يلعبون فى ساحة المدرسة . .
وبعد دقائق قليلة وصل المدرس وانتظم التلاميذ والتلميذات فى الفصل . .
ولم يشعر «توم» بأية رغبة فى متابعة دروس «مستر دوبينز» . وكان كلما
ألقى نظرة فى اتجاه مقاعد البنات ووقع بصره على وجه «بيكى» ، انتابه
قلق شديد . . صحيح أنه كان حائقاً عليها أشد الحنق ، ولكنه كان . . رغم
ذلك - لا يتمالك نفسه من العطف عليها . . وبعد قليل اكتشف المسكين
حادث الكتاب الملوث بالمداد . وعندئذ انصرف تفكير «توم» كله إلى
متابعه الخاصة .

أما «بيكى» فقد رفضت الجود عنها ، وراحت تراقب ما يحدث باهتمام
شديد . . فقد كانت لا تتوقع أن يتمكن «توم» من التخلص من متاعبه
بمجرد إنكار أنه سكب المداد على الكتاب ! ولقد صح ما توقعته ، إذ يبدو أن
الإنكار جعل الموقف يرداد سوءاً بالنسبة للغلام . ولقد افترضت «بيكى»
أن متاعب «توم» ستسرهما ، وحاولت أن تجعل نفسها تؤمن بأنها مسرورة ،
ولكنها لم تلبث أن اكتشفت أنها ليست واثقة من ذلك . . فعندما تخرج
الموقف ، أحست برغبة ملحة تدفعها إلى كشف الحقيقة ، ولكنها بذلت
بمجرداً جباراً كيلا تفعل ذلك ، وأرغمت نفسها على السكوت لأنه - كما
قالت لنفسها - «سوف يشي بي ويقول أنني مزقت الصورة» . . إن أقول
كلمة واحدة ولو كانت هذه الكلمة هى التى ستنقذ روحه !

وتلقى «توم» جزاءه ضرباً مبرحاً ، ثم عاد إلى مكانه بغير أن يشعر
بأنه مظلوم ، لأنه ظن أن من الجائز أن يكون قد قلب المحبرة على صفحات
الكتاب بغير أن يفتن للأمر - صحيح أنه أنكر أنه فعل ذلك ، ولكن
ما قاله لم يكن عن إيمان وإنما بدافع من العادة . .

ومرت ساعة ثم جلس المدرس فوق (عرشه) ، وأحس بثقل أجفانه ، فقد انصرف تلاميذه وتلميذاته إلى استذكار دروسهم . . ولكنه سرعان ما اعتدل في جلسته ، وتثأب ، ثم فتح درج مكتبه ، ومد يده فأخرج الكتاب ، فرجع معظم التلاميذ رؤوسهم وتطلعوا إليه بفتور ، بيد أن اثنين منهم كانوا يراقبان حركاته باهتمام شديد . . وأخذ «مستر دو بينز» ، يقلب صفحات الكتاب بتراخ ، ثم هز رأسه واستعد للقراءة ! وفي تلك اللحظة ألقى «توم» نظرة خاطفة على «بيكي» ، وعندئذ رق قلبه لمنظرها ونسى مشاجرتة معها . . كان لابد من أن يفعل شيئاً سريعاً ، ولكن خطورة الموقف شلت تفكيره تماماً . . وحدثته نفسه بأن يثب من مكانه ، ويخطف الكتاب من يد المدرس ويهرب به ، ولكن تفكيره هذا استغرق لحظة أضاعت منه الفرصة - فقد فتح المدرس الكتاب . . وبذلك ضاعت الفرصة نهائياً . . لم يعد في استطاعته أن يساعده بيكي . . وفي اللحظة التالية واجه المدرس الفصل فغض التلاميذ والتلميذات من أبصارهم أمام نظرتة الصارمة . . وسادت صمت رهيب . ثم قال المدرس بصوت مخيف . .

— من الذى مزق هذا الكتاب ؟

ولم يجب أحد . . وظل الصمت شاملاً . . وراح «مستر دو بينز» يتأمل الوجوه باحثاً عن أية علامة تكشف عن المجرم الأثيم .

صاح فجأة : هل مزقت هذا الكتاب يا «بنيامين روجرز» ؟

ونفى الغلام ذلك . . وسادت الصمت مرة أخرى .

— هل مزقته يا «جوزيف هاربر» ،

ونفى الغلام ذلك أيضاً . .

وبعد أن استعرض المدرس وجوه التلاميذ فكرر لحظة ، ثم انثنى نحو

مقاعد البنات . وسأل :

- د آى لورنس ، . . هل مزقت هذا الكتاب ؟
وهزت الفتاة رأسها سلباً .

- د جراسى ميلر ، ؟

وأنكرت الفتاة أنها مزقت الكتاب .

-- د سوزان هاربر ، . . هل فعلت ذلك ؟

ونفت الفتاة ارتكابها هذا الوزر . . .

وكانت الفتاة التالية هى د بيكى تاتشر . . وكان د توم ، ينتفض من
قمة رأسه إلى أخمص قدميه من فرط الانفعال ، كما سيطر عليه إحساس بأن
الموقف قد أصبح ميثوساً منه .

- وبيكا تاتشر [وتطلع د توم ، إلى وجهها - كان الفزع مجسماً
عليه] هل مزقت الكتاب ؟ - . . أنظري إلى عيني هل مزقت هذا
الكتاب ؟

وخطرت ببال د توم ، فكرة أشبه بالبرق . . فوثب واقفاً وصاح :

- أنا الذى فعلت ذلك !

وحلق الجميع فى وجهه ، وقد اتابهم الخيرة إزاء هذه الجملة غير المعقولة . .
أما د توم ، فقد لزم مكانه لحظة ريثما يستجمع أفكاره المشتتة ، وعندما تقدم
نحو المدرس ليلقى جزاءه ، أحس بأن الدهشة ، والشكر ، والحب التى كانت نظرات
ديكى ، المسكينة تشف عنها ، تعتبر أحسن مكافأة له عما سيناله من أذى . . وزغم أن
الضرب الذى تعرض له كان مبرحاً جداً ، إلا أنه تقبله بهدوء وبغير أن تفلت من
شفتيه آهة واحدة ، حتى لقد جعل ذلك د مستردوينز ، محققاً غاية الحق ، فلم يكتف
بما أنزله بالعلام من عقاب ، وإنما أمره بالبقاء فى المدرسة ساعتين بعد
انصراف التلاميذ - وكان د توم ، يعلم أن هناك من سينظره بالخارج ،
حتى يفرج عنه كربته ، ولهذا لم يعبأ كثيراً بهذه العقوبة .

وعندما آوى «توم» إلى فراشه في تلك الليلة كان يدبر خطته للانتقام
من «الفريد تمبل»؛ فقد أفضت إليه «بيكي» بالحقيقة في ذلة وندم، ولكنها
لم تحاول إخفاء خيانتها...

وحينما غلبه النعاس، كانت كلمات «بيكي» الحلوة لاتزال ترن في
«أذنه»:

«توم... إنك نبيل غاية النبيل»!

الفصل الحاربي والعشرون

يا للبلاغة !

اقرب موعد العطلة ، فازدادت غلظة « مستر دو بينز » وقسوته لأنه كان يسعى إلى إظهار تلاميذه وتلميذاته بمظهر يشرّفه في يوم الامتحان . . . ومن ثم فإن عصاه لم تكف عن الضرب والإيذاء . وكان أكثر التلاميذ تعرضاً للأذى صغارهم . أما كبار التلاميذ والفتيات اللاتي بلغن الثامنة عشرة فلم يمسسهم أذى . . . وكان ضرب « مستر دو بينز » للتلاميذ مبرحاً في هذه الفترة ، إذ رغم أنه كان أصلع الرأس يخفي صلعه أسفل شعر مستعار ، فإنه كان لا يزال في منتصف العمر ، ولم تكن هناك أية علامة تدل على ضعف عضلاته . . . وعندما اقترب اليوم العظيم خيل إليه أنه يشعر بتمتة عظيمة كلما عاقب أحد تلاميذه لأقل هفوة . وكانت نتيجة ذلك ، أن كان صغار التلاميذ يقضون يومهم في فزع شديد وعذاب أليم ، وليلمهم في رسم الخطط للانتقام من المدرس القاسي . . . ولم يكونوا يضيعون أية فرصة تعرض لهم للإساءة إلى المدرس ، ولكنه ظل مسيطراً عليهم تماماً .

وأخيراً جاءت المناسبة الكبرى . . . ففي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت المدرسة تتألق بالأضواء الباهرة ، وقد انتشرت في أرجائها باقات الزهور ، وجلس المدرس فوق عرشه المرتفع بعظمة ، وخلفه السبورة . وكان يبدو مهيباً في جلسته ، وعلى كل جانب من جانبيه ثلاثة صفوف من المقاعد وأمامه ستة ، وكانت جميعاً مشغولة بالتلاميذ والتلميذات وأولياء أمورهم . وعن يساره ، وخلف صفوف المواطنين كانت هناك منصة عريضة أعدت مؤقتاً وجلس فوقها التلاميذ والتلميذات الذين كان من المقرر أن يشتركوا في تمارين هذه الليلة . . . صفوف من صغار الفتيان يرتدون ثياباً

تنظيفه وإن بدا عليهم الضيق ، وصفوف من كبار الفتيان (والأشقياء) ، ثم صفوف من الفتيات الصغيرات والآنسات ، يرتدين ثياباً من المسلمين ، وأذرعهن عارية ، وقد تزين بحلي جداتهن العتيقة ، وحلين صدورهن بأشرطة حمر وزرق ، وشعورهن بالزهور .

وبدأت الاختبارات . . فنهض تلميذ صغير جداً ، قال في خجل :
« لاشك في أنكم لا تتوقعون من شخص في مثل سني أن يقف فوق المنبر ليتكلم ، .. الخ . وهو يحرص على أن يقرن كلماته بإشارات تعبيرية مدروسة من الممكن أن تؤديها أية آلة — بفرض أن الآلة مصابة بعطل بسيط . . . ولكن الغلام استطاع أن يؤدي دوره إلى النهاية ، فقبل بعاصفة من التصفيق . ثم انحنى للحاضرين واختم .

ونفضت فتاة صغيرة خجول ، رددت أسطورة « ماري تملك حملاً صغيراً ، . . وبعد أن نالت حظها من التصفيق المتواصل ، تراجعت إلى مكانها .

وبرز « توم سوير ، فوق المنبر وقد بدا عليه الغرور وألقى حديثاً استهله بقوله « امنحوني حرية أو دعوني أهلك ، وكان يلوح بيديه في عنف ، ولكنه لم يلبث أن توقف في منتصف الحديث ، فقد ارتبك وتبخرت بقية الحديث من ذاكرته ، . . وركبه الفزع وخيل إليه أن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله ، وأنه يوشك أن يختنق . . صحيح أن جميع الحاضرين أحسوا بالعطف عليه — ولكن صمتهم ادى إلى مزيد من التوتر أيضاً ، وقد أساء ذلك إلى الغلام أبلغ إساءة ، وزاد من حرج موقفه وقطب المدرس حاجبيه وبذلك اكتملت عناصر الكارثة . . وراح « توم ، يجاهد لعله يتذكر بقية الحديث ، ولكنه فشل ، فراجع ثم انسحب . ورغم أن النظارة حاولوا أن يصفقوا له ، إلا أن تصفيقهم انتهى سريعاً .

ومثلت بعد ذلك رواية تمثيلية كما ألقيت بعض الخطب الرنانة ، وبعدئذ

أجريت اختبارات في القراءة والهجاء ، أما فريق اللغة اللاتينية فقد أبدع وأجاد. وعلى أثر ذلك حل دور الجزء الرئيسي في الحفل ... « الإنشاء » وهو يتضمن قيام التلميذات كبيرات السن بقراءة الموضوعات الإنشائية التي أعدتها خصيصاً لهذه المناسبة ، فكانت كل واحدة منهن تتقدم من المنصة ، وهي تحمل في يدها كراسة أنيقة مربوطة بشريط أحمر جميل ، قرأ منها الموضوع الإنشائي الذي أعدته لهذه المناسبة بلهجة خطابية رائعة . ولقد كانت جميع الموضوعات من ذلك الطراز المألوف الذي عالجته أمهات هؤلاء الفتيات وجداتهن ، بل وجميع أسلافهن من النساء إلى عهد الحروب الصليبية ١١ . فكانت هناك موضوعات عن « الصداقة » و « ذكريات الأيام الغابرة » ، و « الدين في التاريخ » ، و « أرض الأحلام » ، و « مزايا الثقافة » ، و « أشكال الحكومات - أبحاث مقارنة » ، و « الأحزان » ، و « أشواق القلوب » .. الخ

ولقد كان الطابع الغالب في هذه الموضوعات هو الطابع الحزين ، كما كانت جميعها تتصف بالإسراف في استعمال المحسنات اللفظية والعبارات المنمقة والأسلوب الخلاب والكلمات الطنانة التي ألفتها الأذن وارتاحت إليها .

وقامت فتاة تتلو موضوعها ، فاستولت على مشاعر السامعين ، الذين سرت بينهم هممة تعبر عن التقدير ، وكانت تلك الهممة مصحوبة بين الحين والحين بهمسات تقول : « ما أجمله موضوع » ، - « يا للبلاغة » - « ما أصدق ما تقول » ، ... الخ . وإذا فرغت الفتاة من تلاوة موضوعها بعد أن سردت موعظة مؤثرة ، كان التصفيق ينم عن حماسة بالغة ١١

ثم وقفت بعد ذلك فتاة نحيفة يبدو عليها الحزن ويرتسم على وجهها ذلك النوع المثير من الإعياء الذي يأتي نتيجة لسوء الهضم وتناول العقاقير ١١ وراحت تقرأ قصيدة شعرية قوبلت بعاصفة من التصفيق .

ولم يكن هناك من بين الكثيرين الذين استمعوا إلى تلك القصيدة سوى عدد ضئيل جداً منهم فهم معنى الكلمات الغريبة التي ضمنها الفتاة مقطوعتها الشعرية . ولكنهم جميعاً أعربوا مع ذلك عن استحسانهم لما سمعوا !!

ثم وقفت بعد ذلك فتاة سمراء الملامح ، سوداء العينين ، فاحمة الشعر . وبعد فترة مؤثرة من الصمت ، خلعت على وجهها طابعاً تمثيلاً ، وراحت تتلو بلهجة جدية رزينة مقالا إنشائياً عنوانه « رؤيا ، ا

وتعاقب التلاميذ والتلميذات ، فقرأ كل منهم ما أعده من موضوعات إنشائية !!

ويحسن بنا قبل اختتام هذا الفصل أن نوجه أنظار القراء إلى أن جميع هذه الموضوعات كانت منقولة حرفياً من كتاب « الشعر والنثر » ، وأن جميع أولئك الذين استمعوا إليها لم يفطنوا إلى تلك الحقيقة !!

الفصل الثاني والعشرون

« هاك فين » يتلو آيات من الكتاب المقدس

انضم « توم » إلى جماعة « الأنصار الأطهار » بعد أن تأثر بمبادئها السامية ، فوعد بالإقلاع عن التدخين ، ومضغ التبغ ، وارتكاب أية رذيلة طالما هو عضو بالجماعة . ولم يلبث أن اكتشف شيئا جديدا . . . ذلك أن تعهد الإنسان بالامتناع عن أداء شيء معين هو الطريق المحقق للدفاع نحو هذا الشيء بالذات . ومن ثم ، فسرعان ما ألقي « توم » نفسه أشد ما يكون شوقا إلى تلك الرذائل ، ولم تلبث هذه الرغبة أن اشتدت . ولم يخل بينه وبين إرضائها غير أنه في أن تتاح له فرصة الظهور أمام الناس وهو يتحلى بشريط الجماعة الأحمر الذي يميز أفراد تلك الجماعة في المناسبات القومية والحفلات العامة والجنائز .

وركز « توم » آماله في القاضي الكهل « فريزر » - قاضي السلام - الذي كان يعالج سكرات الموت ، فهو - حين يموت - ستقام له جنازة ، يستطيع « توم » ان يسير في مقدمتها مرتديا الشريط الأحمر !

ومضت ثلاثة أيام كان « توم » خلالها يلتبع أنباء مرض القاضي بلهفة شديدة ، وفي بعض الأحيان كانت آمال « توم » تنتعش إلى درجة أنه كان يخرج شريط الجماعة ويقف أمام المرأة ليتدرب على ارتدائه ، ولكن القاضي رفض أن يستسلم للموت ، وأخيراً أعلن أنه تجاوز مرحلة الخطر - وأصبح في دور النقاهة ، فاغتاظ « توم » أيما غيظ ، وانتابه ضيق شديد . . . وبادر فقدم استقالة من الجماعة - وفي الليلة ذاتها انتكس القاضي ومات ! . وعندئذ قرر « توم » ألا يثق بمثل هذا الرجل مرة أخرى !!

كانت الجنازة حدثاً فريداً ، فقد اصطف أعضاء جماعة (الأنصار الأطنار) بطريقة ابتكرت خصيصاً لإغاظة « توم » ، العضو السابق وقتله من الجسد . ومع ذلك فقد شعر « توم » ، بأنه أصبح حراً - وكان في ذلك بعض عزائه . . إذ أصبح في استطاعته أن يشرب ويسب -- ولكن شعوره بالتححرر لم يلبث أن تبدد عندما تبين له أنه لم يعد يشعر بالرغبة في ارتكاب هذين الإثمين . . ولقد ازداد دهشة حينما تبين له أنه يستطيع أن يتخلص من هذه الرغبة بسهولة رغم ما فيها من جاذبية وإغراء .

ولم يلبث « توم » أن تولاه العجب حينما لاحظ أن العطلة التي كان يترقبها بدأت تثقل على نفسه . .

حاول أن يعد دفترأ يسجل فيه الأحداث اليومية - ولكن حدثاً واحداً لم يقع خلال أيام ثلاثة ، فاضطر إلى صرف النظر عن هذه المحاولة .

وجاءت إلى المدينة أول جماعة من المنشدين الزوج ، وأثار مجيئها ضجة . وأنشأ « توم » ، و « جو » ، فرقة تمثيلية وبذلك تحققت لهما السعادة مدة يومين .

وهطل مطر غزير في تلك الأثناء ، فأفسد الترتيبات التي كانت قد وضعت لتأليف موكب لاستقبال أعظم رجل في العالم (كما ظن « توم ») ، وهو « مستر بنتون » ، أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكي . كما أن شخصية الرجل نفسه جعلت « توم » يشعر بخيبة أمل - لأن طول مستر « بنتون » لم يكن خمسة وعشرين قدماً كما كان « توم » يظن .

وجاء إلى المدينة سيرك . . وفيما بعد أعد الغلمان سيركا بداخل خيام مشيدة من بقايا سجاجيد عتيقة ممزقة ، واستمروا يلعبون في هذا السيرك ثلاثة أيام ، وقد جعلوا دخوله مقابل ثلاثة دبايس للصبيان ودبوسين للفتيات - ثم لم يلبثوا أن هجروا السيرك .

وجاء عراف ومنوم مغناطيسى إلى المدينة... ثم ذهباً عنها ، تاركين
المدينة أشد كآبة وانقباضاً من ذى قبل

وأقيمت للفتيان والفتيات حفلات شديدة البهجة ، ولكنها كانت قليلة
جداً . ومن ثم كان انتهاء إحداها يترك أثراً مؤلماً في النفس .

أما « بيكى تاتشر » فقد رحلت إلى منزل الأسرة في مدينة بعيدة لتقيم
مع أباها خلال العطلة - وهكذا لم يصبح في الحياة جانب واحد يشيع
السرور في النفس .

وظل سر جريمة القتل الرهيبة مصدر تعاسة مزمنة لتوم . فقد كان
« السر » الرهيب ينغص حياته دائماً .

ثم اكتسح المدينة وباء الحصبة . .

وبقى « توم » سجيناً في المنزل أسبوعين طويلين ، انقطعت خلالها كل
صلة بينه وبين أحداث العالم ، واشتدت عليه العلة فلم يعد يهتم بشيء ، وعندما
استطاع أن يقف على قدميه مرة أخرى ، كان يشعر بضعف شديد . ولما
غادر المنزل ، خيل إليه أن تغييراً كبيراً شمل كل شيء وكل مخلوق . . كان
هناك « بعث » جديد ، فقد لاحظ الغلام أن « النعرة الدينية » تفشت ليس
فقط بين الكبار ، وإنما أيضاً بين الفتيان والفتيات . . وراح « توم »
يتجول هنا وهناك ، وهو يأمل أن تقع عيناه على وجه واحد يتصف
صاحبه بالذيلة ، ولكن خاب فاله في كل مكان . فقد التقى بجواهربر ، فإذا
به يستذكر فصلاً من الإنجيل ، فسعى إلى « بن روجرز » فوجده يتردد على
الفقراء وهو يحمل لهم سلة مملوءة بالهدايا . فبحث عن « جيم هوليس »
ولكن هذا خيب رجاءه فيه . . إذ وجه نظره إلى أن إصابته بالحصبة تعتبر
بركة إلهية شملته . . وهكذا كان كل غلام يصادفه يضيف ضيقاً آخر إلى
ما كان يحس به من ضيق ، وعندما استولى عليه اليأس لجأ إلى آخر صديق
له ، وهو « هاكلبرى فين » ، فاستقبله هذا الصديق بسرد بعض فقرات من

الإنجيل اوعندئذ انفطر قلب «توم» ، جزعاً ، وتسلسل إلى منزله حيث لزم الفراش ، وهو يدرك أنه الوحيد في المدينة كلها الذي فقد ضميره إلى الأبد !! وفي تلك الليلة ، هبت على المدينة عاصفة شديدة مصحوبة بمطر غزير وهزيم رعد يصم الآذان ، ووميض برق يعمى العميون . وغطى «توم» رأسه ، وانتظر الموت في خوف وتوتر شديدتين ، فلم يكن يساوره أدنى شك في أن جميع آثامه تلاحقه . . . كان يؤمن بأن القوى العلوية لم تستطع احتمال هذه الآثام بعد أن بلغت حدها الأقصى ، فكانت النتيجة تلك العاصفة الجبارة !! .

وبعد فترة من الزمن ، استنزفت العاصفة قواها ، ثم لم تلبث أن تلاشت بغير أن تحقق هدفها . . . وكان أول خاطر طاف بذهن «توم» ، هو أن يشكر الله ويستقيم . أما الخاطر الثاني فكان يحفزُه على التريث - فقد لا تثور عواصف أخرى !!

وفي اليوم التالي زاره الأطباء وأعلنوا أنه أصيب بنكسة . وقضى ثلاثة أسابيع وهو ممدد على ظهره ، فخيّل إليه أن الأسابيع الثلاثة دهر طويل ، وعندما استطاع أن يتغلب على المرض ويستأنف حياته ، لم يستشعر غبطة أو مرحاً ، لأن الوحدة كانت تعذب روحه ! . وأخذ يسير في الطريق بثاقل ، ولم يلبث أن التقى بجيم هوليس ، فوجده يلعب دور القاضي في محكمة مؤلفة من الغلمان لمحكمة قط ارتكب جريمة قتل وكانت المحاكمة بحضور الضحية ، وهي طير . . . والتقى «توم» بجو هاربر ، وهالك فين ، في أحد الطرقات الجانبية ، وكانا يلتهمان بطيخة مسروقة . . . مساكين هولا . . . الفتيان ا فإنهم - مثل «توم» - قد أصيبوا بنكسة !! .

الفصل الثالث والعشرون

خلاص « ماف بوثر »

وأخيراً دُبت الحياة في الجو الراسك — ودبت فيه بشدة . . فقد تقدمت قضية جريمة القتل للحكمة . وأصبح موضوعها هو مادة كل حدث في القرية . . ولم يستطع « توم » ، أن يهرب من تأنيب الضمير ، إذ كانت كل إشارة إلى الجريمة تجعل قلبه يطرق بعنف شديد . وكاد ضميره ومخاوفه ينجحان في إقناعه بأن هذه الملاحظات إنما كانت تُقال أمامه عمداً ، ولكنه لم يستطع أن يدرك كيف يعرف الناس أنه يُخفي شيئاً يعرفه عن الجريمة . ومع ذلك ، فإنه لم يكن يشعر بأية راحة وسط هذه الأحاديث ، ولم يلبث أن تولاه الفزع . فانتحى بها مكاناً منعزلاً ليتحدث إليه ، فقد كان يحس بأن إطلاق العنان قليلاً للسانه ، مع شخص يشاطره احتمال عبء هذا السر ، خليق بأن يفرج كربه . ثم إنه كان يريد أن يستوثق من أن « هاك » ، مازال أميناً على السر .

-- أخبرني يا « هاك » . . هل حدثت أحداً عن — ذلك ؟

— عن ماذا ؟

— إنك تعلم ماذا أقصد .

— أوه ! هل تقصد سر جريمة القتل ؟

— نعم . . أقصد ذلك ! هل قلت شيئاً لأحد ؟

— لم أقل شيئاً لأحد ! . ما الذي جعلك تسألني عن ذلك ؟

— إنه الخوف .

— ثق أنك ما كنت لتعيش يومين متعاقبين يا د توم سوير ، لو أن السر
ذاع وشاع . . . إنك تعلم ذلك بغير شك ! وأحس د توم ، براحة أكثر .
وقال بعد فترة صمت قصيرة .

— أخبرني يا د هاك ، ألا يستطيع أحد أن يرغمك على الكلام ؟

-- يرغمني ؟ لو أنني رغبت في أن يفتك هذا الشرير بي ، لجعلتهم
يرغموني على الكلام . فليس هناك ثمة سبيل ثان .

— حسنا إذن . . . اعتقد ألا خطر علينا طالما حرصنا على التزام
الصمت . . . لكن دعنا نعيد القسم على كل حال ، لأن في ذلك تأكيد أقوى .
— لا بأس .

وكرر الغلامان قسمهما بلهجة جدية .

وسأل د توم ، : إذن فيم كانت كل هذه الأحاديث يا د توم ، ؟ فقد
سمعت منها الشيء الكثير !

— أحاديث ؟ إنه د ماف بوتر ، . . د ماف بوتر ، . . د ماف بوتر ،
طول الوقت . والحق أن هذه الأحاديث تملأ قلبي فزعاً مستمراً مما يجعلني
أود أن أختبئ في مكان ما .

— هذا هو أيضاً ما كان يدور بخاطري كلما سمعت هذه الأحاديث . . .
أكبر ظني أن د ماف بوتر ، مقضى عليه بالهلاك . . . ألا تشعر بالأسف
من أجله أحياناً ؟

— بل يجب أن أشعر بهذا الأسف دائماً — دائماً . . . إنه ليس شخصية
هامية ، ولكنه لم يفعل ما يسيء إلى أي إنسان . إنه يصطاد السمك ليحصل
على قليل من النقود يحتسى بها الخمر — كما أنه كثير التسكع ولكن ، يا إلهي
إننا جميعاً أو معظمنا على الأقل ، نفعل ذلك . إن د ماف بوتر ، رجل
طيب — فقد أعطاني نصف سمكة ذات مرة د مع أنه لم يكن يملك سمكاً يكفي

شخصين ، وفي كثير من المناسبات ، كان الرجل يشهد أزرى عندما يتخلى
الحظ عنى .

- هذا حق ... ولقد ساعدنى أنا الآخر كثيراً ..

- بودى لو استطعنا إنقاذه .

- إننا لا نستطيع ذلك يا ، توم ، ثم إن ذلك لن ينفعه فى شيء لأنهم
لن يلبثوا أن يقبضوا عليه ثانية

-- نعم .. هذا صحيح .. ولكنى أكره أن يسيئوا معاملته هكذا رغم
أنه لم يرتكب الجريمة .

- وأنا أيضاً يا ، توم ، .. لقد سمعتم يقولون إنه أفضح الأشرار
منظراً فى هذه البلاد ، وكثيرون يعجبون لماذا لم يشنق من قبل .

- نعم . إنهم يتحدثون على هذا النحو طوال الوقت ، وقد سمعتم
يقولون إنه إذا أفرج عنه فسوف يفتكون به .

- وأحسب أنهم سيفعلون ذلك .

وطال حديث الغلامين ، ولكن حديثهما لم يجلب لهما أى ارتياح ،
وعندما بدأ الليل يرخى سدوله ، وجدا نفسيهما على مقربة من السجن
المنعزل . ولعل أملاً غير مفهوم كان يراودهما فى أن يحدث شيء ما ، يخلصهما
من متاعبهما ولكن هذا الشيء لم يحدث ، إذ يبدو أنه لم يكن هناك ملائكة
أو جنيات يهمن أمر السجين سيء الحظ .

وعمل الغلامان ما عملاه كثيراً من قبل - تقدهما من نافذة السجن
وقدما لبوتر بعض التبغ وأعواد الثقاب ، فقد كان الرجل سجيناً فى الطابق
الأرضى بغير أن يحرسه أحد !

وكان شكره لهما على هداياهما يعذب ضميرهما من قبل - أما اليوم فقد
شعرا بقلبيهما يتمزقان . كما أحسا بأنهما نذلان خائنان إلى أقصى حد ..

قال د بوتر ، لقد كنتما دائماً شديدي العطف علىّ - كنتما أكرم من
أى شخص آخر في المدينة . وإن أنسى لكما ذلك .. لن أنساه .. لأننى كثيراً
ما أقول لنفسى ، لقد اعتدت أن أصلح طائرات جميع الفتيان ، وأدلمهم على
أحسن الأماكن لصيد السمك ، وأصدقهم قدر طاقتى . ولكنهم جميعاً
نسوا د بوتر ، التعس الآن . عندما أطاحت به الكوارث بيد أن د توم ،
و د هاك ، لم ينسياه . إنهما لا ينسيانه ، وأنا لن أنساهما .. لا تحزنا أيها
الغلامان ، فقد ارتكبت أمراً بشعياً - ثملت وجذنت فى ذلك الوقت -
ذلك هو تقديرى للموقف - وقد حق علىّ أن أعدم من أجل ذلك . وأظن
أن هذا هو العدل . إنه الصواب ! وقد يكون أحسن علاج للموقف -
أرجو ذلك على كل حال .. حسناً ، إننا لن نطرق هذا الموضوع ، لأننى لا
أريد أن أسىء إلى شعوركما بعد أن صادقتما ، ولكن ما أريد قوله لكما هو :
إياكما واحتساء الخمر - فإن ذلك هو وحده الكفيل بعدم مجيئكما إلى هنا .
قفوا إلى الغرب قليلاً - هكذا - فإنه لما يجلب الراحة للإنسان ، أن يرى
وجوهاً صديقة عندما تحيط به نكبة كهذه ، وينصرف الجميع عنه فلا يبالي
أحد غيركما بمتاعبه .. إن وجهيكما وجهان طيبان صديقان . فليصعد أحكما
فوق ظهر الآخر ويحملنى المس وجهه .. هذا حسن .. فلينتصافح - إن
أيديكما تستطيع الدخول من بين قضبان النافذة ، أما يدي فغليظة .. إن
أيديكما صغيرة وضعيفة - ولكنها ساعدت د ماف بوتر ، أجل مساعدة ،
وليس من شك فى أنها ما كانت لتتججم عن تقديم مزيد من المساعدة لو كان
ذلك فى طاقتها .

وعاد د توم ، إلى المنزل وهو يشعر بأنه أصبح أشقى الناس جميعاً ..
كانت أحلامه مفعمة بأسباب الفزع فى تلك الليلة . وفى اليوم التالى ، أخذ
الغلام يتسكع حول قاعة المحكمة ، وهو يشعر بحافز قوى يدفعه إلى دخول
القاعة ، ولكنه نجح فى مقاومته والبقاء خارجها .. ولقد عانى د هاك ، من
عذاب مماثل .. وحرص كل من الغلامين على تجنب لقاء الآخر .. كان كل

مهما يهيم على وجهه من حين لآخر ، ولكن سحر القاعة كان لا يفنأ يجتذبهما إليها . وكان د توم ، يرهف السمع كلما خرج المتفرجون من قاعة المحكمة ، ولكنه كان يسمع دائماً أنباء تثير الجزع - كانت الحلقة تضيق بعنف حول عنق د بوتر ، التعس شيئاً فشيئاً ، وعند نهاية اليوم الثاني كان حديث القرية كلها ، يدور حول شهادة د انجان جو ، وكيف إنها محكمة حاسمة ، وأنه ليس هناك أدنى ريب فيما سيكون عليه الحكم الذي سيصدره المحلفون .

وظل د توم ، خارج المنزل حتى ساعة متأخرة في تلك الليلة ، وتسلى إلى فراشه من النافذة كعادته في بعض الأحيان . كان في حالة انفعال شديد . وانقضت ساعات طويلة ، قبل أن يتمكن من النوم . وفي صباح اليوم التالي انطلق سكان القرية جميعاً نحو قاعة المحكمة لأن ذلك اليوم كان يوم النطق بالحكم ، وقد مثل الجنسان بعدد متساو تقريباً من الحاضرين وازدحمت القاعة بشكل لم يسبق له مثيل .. وبعد فترة انتظار طويلة اصطف المحلفون في أماكنهم . ثم جرى د بوتر ، وكان بادى الإعياء والخوف والجزع ، وهو مكبل بالأغلال ، وأجلس في مكان يتيح لجميع النظارة أن يحملقوا فيه ، ولم يكن د انجان جو ، بمستثنى من هؤلاء النظارة ، ولكنه كان جامداً كعادته . ومرت فترة انتظار أخرى ، ثم وصل القاضي ، وأعلن العمدة بدء المحاكمة . فسرت في التواهمسات المعتادة بين المحامين الذين راحوا يقلبون أوراقهم استعداداً للنضال .. ولقد خلق هذا التريث جواً غامضاً مثيراً .

واستدعى شاهد قرر أنه رأى د ماف بوتر ، يغتسل في رافد النهر في ساعة مبكرة من صباح اليوم الذي اكتشفت فيه الجريمة ، وأنه بادر بالابتعاد وبعد أن نوقش الشاهد قليلاً قال وكيل النيابة :

- هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

ورفع السجين حاجبيه لحظة ، ولكنه لم يلبث أن دهش حينما قال محاميه :

— لا أريد أن ألقى عليه أية أسئلة .

وقرر الشاهد الثاني أنه عثر على السجين بالقرب من جثة القتيل ، فقال وكيل النيابة :

— هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

فأجاب محامى « بوتر » ، : لا أريد أن ألقى عليه أية أسئلة .

وأقسم الشاهد الثالث على أنه كثيراً ما رأى هذه السكين فى حوزة « بوتر » .

— هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

ورفض محامى « بوتر » ، أن يسأل الشاهد . . . فبدأ الغضب على وجوه النظارة ، وراحوا يتساءلون : هل يعتزم المحامى القضاء على حياة موكله بغير أن يبذل أى مجهود للدفاع عنه ؟

وشهد كثيرون بأن سلوك « بوتر » كان مريباً جداً عندما جرى به إلى مسرح الجريمة . ثم سمح لهم بمغادرة منصة الشهود : عندما أعلن المحامى أنه لا تريد إلقاء أية أسئلة عليهم .

وهكذا سرد الشهود بالتفصيل جميع الظروف التى أحاطت بمسرح الجريمة فى ذلك اليوم المشئوم ، ومع ذلك فإن محامى « بوتر » لم يحاول أن يستبقى أحداً منهم لسؤاله . وعندئذ سرت بين الحاضرين همهمة دلت على مدى ما يشعرون به من قلق وعدم ارتياح حيال تصرف المحامى ، كما أن القاضى والمحلفين أنفسهم كانوا يتطلعون إلى المحامى بعيون يتمثل فيها التأنيب .

وأخيراً قال وكيل النيابة :

— بحق قسم الشهود الذين تعلو كلمتهم الصادقة فوق كل ريبة ، لقد أثبتنا

هذه الجريمة المروعة بلا أدنى ريب على السجين التعس . . وإنا لنترك القضية عند هذا الحد .

وتأوه « بوتر ، المسكين ، وأخفى وجهه بين راحتيه ، وراح يهتز بجسمه من جانب إلى آخر ، بينما شمل القاعة صمت عميق . . وبدا التأثير على أكثر الرجال ، أما النساء فقد غلبتهن عاطفتهن فبكين . . وعندئذ نهض الدفاع وقال :

- يا صاحب السعادة ، لقد حاولنا ، في بدء هذه المحاكمة ، أن نبرهن على أن موكلنا ارتكب هذا الجرم البشع وهو واقع تحت تأثير الهديان المخيف الذي أحدثته الخمر . . ولما كنا لا نتمسك اليوم بهذا الدفاع ، ولن نتقدم إليكم مطالبين بالرفقة بالمتهم (وتحول إلى كاتب الجلسة وقال له :)
ناد « توماس سوير » :

وبدت على وجوه جميع الحاضرين علامات الحيرة المقترنة بالدهشة ، وكان أشدها امتقاعاً وجه « بوتر ، نفسه . وتركزت جميع العيون باهتمام لا يخلو من الدهشة في « توم ، وهو ينهض ويأخذ مكانه فوق المنصة . وكان الغلام يبدو شديد الانفعال ، والخوف . . وبعد أن حلف الشاهد اليمين سأله محامي المتهم :

- أين كنت « يا توماس سوير ، حوالى منتصف ليلة ١٧ يونيو ؟

وتطلع « توم ، إلى وجه « انجان جو ، الجامد ، وفي التو خذله النطق . . وحبس النظارة أنفاسهم ليسمعوا كلمات الغلام ، ولكن الكلمات رفضت أن تخرج من فم « توم ، ، غير أنه استطاع في النهاية أن يستجمع بعض شجاعته ، وقال بصوت خافت لم يسمعه سوى بعض الحاضرين :

- في الجبابة ا

- ارفع صوتك قليلاً . . لا تخف . . كنت في . . .

- الجبابة .

وانفرحت شفتا « انجان جو » عن ابتسامه غاضبه .

— هل كنت على مقربة من مقبرة « هورس ويليامز » ؟

— نعم يا سيدى .

— تكلم بصوت أكثر ارتفاعاً . . ماذا كانت المسافة بينك وبينها ؟

— كالمسافة التي بيني وبينك الآن ؟

— هل كنت مختبئاً أم ماذا ؟

— كنت مختبئاً .

— أين ؟

— خلف شجرة البلوط القائمة عند حافة القبر .

وأجفل « انجان جو » ، ولكن أحداً لم يفتن إلى اضطرابه .

— هل كان معك أحد ؟

— نعم يا سيدى . . ذهبت إلى هناك مع . . .

— انتظر . . انتظر لحظة . . لا ضرورة لذكر اسم زميلك ، فسوف

تقدمه للمحكمة في الوقت المناسب . هل كنت تحمل شيئاً عندما ذهبت إلى
الجبانة ؟

فتردد « توم » ، وبدأ عليه الاضطراب . فقال المحامى .

— تكلم يا بنى لا تردد لأن الحق محترم دائماً . . ماذا أخذت معك ؟

— فقط . . فقط . . قطة ميتة . . .

وكاد النظارة ينفجرون ضاحكين ، ولكن المحكمة طالبتهم بالتزام

بالصمت . .

وقال المحامى : سنقدم جثة هذه القطة فيما بعد . . والآن ، قل لنا كل

ما حدث يا بنى . . قل بطريقتك الخاصة — ولا تغفل شيئاً ، كذلك لا تخف .

وبدأ توم يسرد قصته - بتردد أول الأمر ، ثم سرعان ما مضى في حديثه ، فأخذت الكلمات تندفق بسهولة أكثر وأكثر . . وبعد قليل ، هدأت جميع الأصوات إلا صوت الغلام . وحدقت جميع العيون فيه ، وراح النظارة يستمعون إليه وقد أنفجرت شفاههم ، واحتبست أنفاسهم ، بغير أن يأبهوا لمرور الوقت ؛ فقد خلبت القصة المشيرة لهم . . وبلغ التوتر ذروته حينما قال الغلام :

- وبينما كان الدكتور يلتقط قطعة الحديد من فوق شاهد القبر ويضرب ماف بوتر ، بها ليخمد أنفاسه ، وثب « انجان جو ، والسكين في يده و ...

وعندئذ ارتفع صوت تحطيم زجاج في القاعة . اوفى سرعة خاطفة . وثب « انجان ، من النافذة كالسهم المنطلق ، وشق طريقه بقوة وسط معارضيه . . ثم اختفى ا

الفصل الرابع والعشرون

أيام رائعة وليال مخيفة

أصبح «توم» بطلاً ونجماً متألقاً مرة أخرى - يدللّه الكبار ويحسده الصغار . . . بل لقد ظهر اسمه في الصحف ، فأشادت به صحيفة القرية . وكان هناك أشخاص يعتقدون أنه سوف يصبح رئيساً للولايات المتحدة ، إذا نجا من الموت !!

وكالعادة ، حنت الدنيا التي لا تفكر على «ماف بوتر» ، ودلته بسخاء مثلاً أسرفت في الإساءة إليه .. ولكن لما كان هذا اللون من السلوك في مصلحة المجتمع ، يجدر بنا ألا نحاول النيل منه !!

كانت أيام «توم» فترات مجد وطرب ، ولكن لياليه كانت مواسم رعب وفزع ، فقد كان شبّح «انجان جو» ، يفسد عليه أحلامه ، إذ كان يتمثل له والغدر في عينيه ، ولهذا كان من المستحيل إغراه الغلام بالخروج من المنزل بعد أن يسدل الليل ستاره على الدنيا . . . وكان «هاك» ، التعس يعانى من حالة مماثلة من الرعب والفزع . . . كان «توم» ، قد أفضى بالقصة كلها إلى محامى «بوتر» في الليلة السابقة على يوم النطق بالحكم في القضية وكان «هاك» يرتعد خوفاً خشية أن يعرف شيء عن دوره في المأساة رغم أن فرار «انجان» أعفاه من الإدلاء بشهادته في المحكمة . . . كان الغلام التعس قد حصل على وعد من المحامى بالتزام السرية . لكن ما جدوى هذا الوعد؟ لقد أفلح ضمير «توم» ، وما أنزله به من عذاب في دفع الغلام إلى الذهاب لمنزل المحامى ليلاً ، وسرد القصة كلها عليه ، رغم القسم الذى أقسمه «مير» ، «هاك» ، وهكذا تزعزعت ثقة «هاك» بالجنس البشرى قاطبة !

وكان ، ماف بوتر ، يعرب لتوم عن شكره كل يوم ، مما جعل الغلام يشعر بالسرور لأنه تكلم ، ولكن ما أن يجن الليل حتى يعود فيتمنى لو أنه ظل ، طبقا شفقيه ا

كان ، توم ، يخشى ألا يقبض على ، انجان ، ، كما كان يخشى القبض عليه بعد فوات الأوان . . وكان يشعر بأنه ان يستطيع أن يتنفس بحرية حتى يموت هذا الرجل ويرى جثته بعينه .

وقدمت لتوم مكافأة ، لما أبداه من شجاعة في تطهير المدينة ، ولكن أحدا لم يستطع العثور لانجان على أثر . وجىء من سانت لويس بمفتش بوليس سرى من أولئك الذين يفعلون الأعاجيب . . وراح المفتش يبحث هنا وهناك ، ثم لم يلبث أن هز رأسه سلباً ، وبدأت عليه أمارات الجد ، وقال إنه لم يستطع أن يعثر على دليل ، . وما أن كاد المفتش البوليس السرى يقتسى من عمله . يعود إلى منزله حتى عاد ، توم ، إلى قلقه وخوفه .

ومضت الأيام متشاقلة . . وكان كل يوم منها يخاف وراه حملا أثقل من الخوف .

الفصل الخامس والعشرون

البحث عن الكنز المدفون

في حياة كل غلام قوى البنية ، وقت تعتمل خلاله في نفسه رغبة جارفة تدفعه إلى الذهاب إلى مكان ما للبحث عن كنز مدفون . وقد أحس «توم» بهذه الرغبة فجأة في أحد الأيام ، فانطلق يبحث عن «جو هاربر» ولكنه فشل في إقناعه بمرافقته ، فمضى لمقابلة «بن روجرز» ولكنه علم أنه ذهب لصيد السمك .

وأخيراً التقى بصديقه «هاكلبرى» الذي وافق على مرافقته ، فأخذ «توم» إلى مكان منعزل وفتح في الموضوع بثقة . ووافق «هاك» على الفكرة ، فقد كان «هاك» على استعداد للاستجابة دائماً ، والاشترك في أي مشروع يبشر بمتعة بدون أن يستلزم أي رأسمال ، سوى الوقت ، الذي كان يملك منه رصيماً لا نهاية له .

وقال «هاك» : ولكن أين الكنز ؟

— في أي مكان ؟

— لماذا ؟ هل الكنز مخبأ في كل مكان ؟

— كلا بالطبع . . . لأنه مخبأ في أماكن معينة يا «هاك» . . . فأحياناً يخفي في جزر ، وأحياناً أخرى في صناديق متناكدة تحت جذع شجرة عتيقة ميتة حيث يسقط الظل عند منتصف الليل . ولكنه يخفي في أكثر الأحيان أسفل (أرضية) المنازل المسكونة بالأشباح .

— ومن الذي يخبئه ؟

— من ؟ اللصوص بالطبع .. وإلا فمن الذين يخبئونه ؟ المشرفون على مدارس الأحد ؟

— لست أدري .. لو كان الكنز كنزى لما أخفيته ، وإنما أنفقه وأستمع بوقت طيب .

— كذلك أنا . ولكن اللصوص لا يفعلون ذلك .. إنهم يخبئون كنوزهم ، دائماً ويتركونها حيث هي .

— ألا يجيئون بعدئذ لاستعادتها ؟

— لا .. إنهم يظنون أنهم سيفعلون ذلك ، ولكنهم ينسون عادة العلامات . أو يموتون .. ومهما يكن ، فإن الكنز يظل مدفوناً حيث هو وقتاً طويلاً حتى يصدأ . وفي يوم ما ، يعثر شخص ما على ورقة كبيرة قديمة صفراء اللون تبين كيف يمكن العثور على العلامات — ورقة يجب أن ينقضى أسبوع قبل النجاح في حل رموزها ، لأن هذه الرموز تكون غالباً عبارة عن علامات ومعالم

— معالم ؟

— نعم معالم — صور وأشياء يبدو وكأنها لا تعنى شيئاً :

— هل لديك ورقة منها يا د توم ، ؟

— لا

— إذن .. كيف ستعثر على العلامات ؟

— لست بحاجة إلى أية علامات ، فإن اللصوص يدفنون الكنوز دائماً أسفل منزل مسكون بالأشباح ، أو في جزيرة أو أسفل شجرة ميتة لها فرع واحد بارز .. على أية حال ، لقد ألفنا جزيرة جاكسون بعض الشيء ويمكننا أن نعود إليها ثانية في وقت ما .. وهناك أيضاً المنزل العتيق المسكون في دستيل — هاوس ، كما أن هناك عدداً كبيراً من جنوع

الأشجار الميتة !

- وهل الكنز أسفلها جميعا ؟
- ما هذا الذى تقوله ؟ لا ..
- إذن كيف ستعرف أيها هو الذى يجب أن تذهب إليه ؟
- سأذهب إليها جميعا !
- ولكن ذلك سيستغرق الصيف كله
- فليكن .. وماذا فى ذلك ؟ لنفرض أننا عثرنا على قدر نحاسى بداخله مائة دولار وجميعها يعلوها الصدا .. أو على صندوق متآكل ملوئ بالماس فإنا نرى ذلك ؟
- فتأملت عينا « هاك » وقال .
- هذه ثروة .. ثروة كبيرة بالنسبة لى .. يكفى أن تعطىنى المائة دولار، فإننى لست بحاجة إلى الماس .
- حسنا ما تقول .. فإننى لن أتخلى عن الماس . فإن بعض قطعة، تساوى عشرين دولارا لكل قطعة — وعلى كل حال ، لن يقل ثمن أية قطعة منها عن ستة بنسات أو دولار 11
- أحقا ؟
- بالتأكيد — فى استطاعة أى شخص أن يقول لك ذلك .. ألم تر قطعة ماس من قبل يا « هاك » ؟
- لست أذكر ذلك
- أوه .. إن الملوك يملكون كميات ضخمة منها .
- ولكننى لا أعرف ملوكا يا « توم » !
- هذا حق .. ولكن إذا أتيتك الذهب إلى أوروبا ، فستجد

عدداً كبيراً منهم يتبخثرون بعظمة في كل مكان .

— هل هم « يتبخثرون » ، حقاً ؟

— لا أيها الأبله ؟

— ... إذن لماذا قلت إنهم يفعلون ذلك ؟

— فقط أردت أن أقول إنك سوف تراهم — ولكنهم لا يتبخثرون .

بالمعنى الذي يخيل إليك ... إنني أقصد أنك تراهم يتنقلون بعظمة وخيلاء .

في كل مكان بصفة عامة .. مثل ذلك الملك الأحذب « ريتشارد » ،

— « ريتشارد » ، ما اسمه الآخر ؟

— ليس له اسم آخر .. فليس للبلوك غير اسم واحد

— أحقاً ؟

— هذا صحيح

— ما دام ذلك يعجبهم يا « توم » ، فليكن لهم ما يريدون .. ولكنني

لا أريد أن أصبح ملكاً حتى لا أحمل اسماً واحداً مثل الزوج .. والآن

دعنا من هذا كله ، أين سنبدأ البحث عن الكنز ؟

لست أدري .. لكن ما رأيك في أن نبحث عند تلك الشجرة العميقة

القائمة فوق التل على الجانب الثاني من « ستيل — هاس » ، ؟

— أوافق

وهكذا أحضرامه ، لا عتيقا ومجرفة ، وشرعاً في رحلة طولها ثلاثة

أميال !! . وأخيراً وصلنا إلى غايتهمما وهما يلتمان . قهالكافوق الأرض

في ظل شجرة مجاورة ، ريثما يستريحان ريدخنان .

قال « توم » ، أني أحب هذا المكان .

— وأنا كذلك

— أخبرني يا هـاك ، .. إذا عثرنا على كنز فماذا ستفعل بنصيبك منه ؟
— لست أدري .. سأتناول فطيرة محشوة بالجبن ، وأشرب زجاجة
من الصودا كل يوم ، وسأذهب إلى كل سيرك يأتي إلى المدينة . وأراهن
على أنني سوف أقضى وقتا طيبا !

— ألا تقتصد شيئا منه ؟

— أقتصد ! ولماذا ؟

— حتى يكون لديك رصيد تعيش منه على مرور الزمن

— أوه لا فائدة من ذلك ، فإن أبي لن يلبث أن يعود إلى المدينة في
أحد الأيام وينشب أظفاره فيه ، إذا لم أنفقه ، وأؤكد لك أنه سوف
يستنزف « الرصيد » سريعا .. وأنت ماذا ستفعل بنصيبك يا هـ توم ، ؟

— سأشترى طبله جديدة ، وحساما قاطعا ، ورباط عنق أحمر اللون ،

وأتزوج ...

— تتزوج !

— نعم

— « توم ، ... أنك — يبدو أنك لست متبالكا قواك العقلية .

— انتظر — وسوف ترى

— حسنا ... هذا أحق شيء يمكنك أن تفعله ... اعتبر بأبي وأمي ...

لقد كانا يتشاجران طوال الوقت .. إنني أتذكر ذلك جيدا .

— ليس ذلك بندي بال ، فإن الفتاة التي سأزوجها لن تشاجر .

— « توم ، أعتقد أنهن جميعا سواء ... إنهن جميعا (ينحلن وبر الرجال) ؟

فيحسن بك أن تفكر في الأمر مليا ... لكن ما اسم الفتاة ؟

— سأذكره فيما بعد ...

— لك ما تريد ، ففي هذا الكفاية .. ولكن إذا تزوجت فتاتك فساأشعر
أنا بشدة وطأة الوحدة !!

— .. لن تشعر بشيء من ذلك .. فستأتى لتعيش معي ... والآن
دعنا من ذلك ولنبدأ الحفر .

وشرعا في الحفر ، والعرق ينسأل منهما ، واستمرا يحفران
نصف ساعة ، ولكن بلا حدودى . . . فمضيا يحفران نصف ساعة أخرى
بغير أن يصادفا نجاحاً . وأخيراً قال « هاك » :

— هل يدفنون كنوزهم على مثل هذا العمق دائماً ؟

— أحيانا — وليس دائماً ، أكبر طنى أنالم نختر المكان الصحيح .

واختارا بقعة أخرى شرعا يحفران فيها ، ومع أنها كانا يحفران بفتور
نتيجة لما حلّ بهما من تعب ، فقد مضيا يحفران بإصرار .

وأخيراً اتكأ « هاك » فوق فأسه ، وجفف العرق الذى انسال فوق
جبهته بكم قبضه . وقال :

— أين سنحفر بعد أن نفشل هنا ؟

— لعله يحسن بنا أن نحفر أسفل الشجرة القائمة فوق « كارديف هيل » ،
حلاف قصر الأرملة « دو جلاس » ؛

— أعتقد أنها فكرة حسنة ، ولكن ألا تعتقد أن الأرملة سوف

تستولى على الكنز إذا وجدناه ، مادامت الأرض أرضها ؟

— تستولى عليه ؟ قد نحاول ذلك . . ولكن القاعدة هى أن الذى يمشر
على كنز مخبوء ، هو صاحب الحق فى الاستيلاء عليه ، بصرف النظر بمن
يكون صاحب الأرض !!

واقترح « هاك » بهذا الرأى ، واستمر الغلامان فى العمل ، وبعد فترة
قال « هاك » :

— لاريب أننا لم نوفق إلى المكان المنشود مرة أخرى ... مارأيك ؟
إنه لأمر جد غريب ، ياهاك ، ، ولإني لعاجز عن فهم الموقف ، ومهما
يكن ؛ فإن الساحرات يتدخلن أحيانا ، وأكبر ظنى أن هذا هو السبب فيما
أجهه الآن من فشل .

— حديث خرافة .. فإن الساحرات لا يمكن أية قوة في النهار !

— هذا صحيح . الحق أنني لم أفكر في ذلك .. أوه ! لقد فهمت كل
شيء يا لنا من غيبين ! إن علينا أن نحدد بالضبط النقطة التي ينتهى
عندها ظل فرع الشجرة في منتصف الليل . وعند هذه النقطة نشرع
في الحفر .

— ياللاهول ! إذن فقد ذهبنا جهودنا كلها أدراج الرياح .. وما دام
الأمر كذلك ، فيجب علينا أن نعود إلى هنا ليلا .. ولكن الطريق طويل
كما تعلم ثم هل تستطيع أن تخرج من المنزل ليلا ؟
— أراهن على أنني أستطيع ذلك . ثم إننا يجب أن ننهي العمل الليلية ،
فقد يرى أحد هذه الحفر ، فيدرك لنوه حقيقة الأمر ، ويسعى لإخراج
الكنز .

— ربما .. سأتى إلى منزلك الليلة ، فانتظرى !

— ليكن .. دعنا نخفي الأدوات في الأدغال .

وعاد الغلامان إلى هذه المنطقة في الوقت المحدد تقريبا أثناء الليل
وجلسا في الظل ، في انتظار انتصاف الليل . كان مكانا منعزلا ، فخييل
إليهما أن الأرواح تهمس بين أوراق الأشجار ، وأن الأشباح تترصد في
الأماكن المعتمة . وفي تلك اللحظة ارتفع من بعيد نباح كلب ضال ، فأجابته
بومة قريبة بصوتها المفزع . وأحس الغلامان بالفرع يسرى في قلوبهما ،
فعمدا إلى الكلام للتسرية عن نفسيهما ، وبعد قليل خييل لهما أن الليل قد

انتصف ، فحددا المكان الذى انتهى عنده ظل فرع الشجرة ، وراحا يحفران . .
وسرعان ما انتعش أملهما ، وازداد اهتمامهما ، وازداد تبعا لذلك
انهما كهما فى العمل . وكان قلباهما يثبان من فرط الفرح الممزوج بالخوف ، كلما
ارتطم أحد فأسيهما بشيء فى باطن الحفرة ، ولكنهما سرعان ما كانا يصابان
بخيبة الأمل ، عندما يتبين لهما أن ذلك الشيء لا يعدو أن يكون حجرا أو
جذرا من جذور شجرة كانت قائمة فى هذا المكان فى غابر الأيام .
وأخيرا قال دتوم : « لافائدة من الاستمرار يا دهاك » ، فإننا نحفر فى
مكان لا يبشر بالخير مرة أخرى .

— ربما ، ولكنى أعتقد أننا لم نخطيء ، فقد حددنا المكان بالضبط .
— أعرف ذلك ، بيد أن هناك أمرا آخر .
— وما هو ؟

— لقد حددنا وقت منتصف الليل ، جزافا ، ومن المحتمل أن يكون
تحديدنا له غير دقيق .

فألقي دهاك ، بالمجرفة على الأرض وقال :

— أصبت .. تلك هى المشكلة ، ويجب علينا أن نتخلى عن هذه الحفرة .
ولكننا لانستطيع أن نحدد الوقت بالدقة ، ولا تنس أن العمل بغيض فى
جوف الليل ، والساحرات والأشباح تملأ الفضاء من حولنا . إننى لأشعر
بأن الأشباح تطاردنا ، وأخشى التطلع خلفى ، إذ من الجائز أن تكون
أشباح أخرى واقفة أمامى تنحين هذه الفرصة ! إن جسمى يقشعر منذ
جئنا إلى هنا . . .

— لا تخف .. هذا هو شعورى أيضا يا دهاك ، .. فى أغلب
الأحوال يدفن اللصوص جثة ميت عندما يدفنون كنزا تحت شجرة ، حتى
تحرس الجثة الكنز !

— يا إلهى !

-- نعم ، إنهم يفعلون ذلك ، فقد سمعت ذلك من أشخاص كثيرين .
-- « توم ، ، ، . إننى لا أرتاح إلى العبث فى الأماكن التى يوجد بها
أموات فإن ذلك خلىق بأن يثير لنا أشد المتاعب .
-- وأنا لا أحب أن أثير الموتى . ، انفرض أن الميت الموجود هنا
رفع حجته وقال شيئاً !

-- كفى يا « توم » ، هذا مخيف !
-- مهما يكن . إنها الحقيقة يا « هاك » ، وأنا لا أشعر بأى ارتياح
-- إذن فلنغادر هذا المكان يا « توم » ، ولنحفر فى مكان آخر .
-- حسناً ، أظن أن ذلك هو خير ما يمكننا أن نفعله .

-- وأين سنحفر ؟

ففكر « توم » قليلاً . ثم قال :

-- فى المنزل المهجور . . . نعم ، هذا المكان المناسب .
-- إننى لا أحب المنازل المهجورة يا « توم » . . . فإنها تثير الفزع
تأثير ما تثيره جثث الموتى . صحيح أن جثث الموتى قد تتكلم ، ولكنها
لا تبرز لك فى الظلماء وأنت جاهل بأمرها ، ثم تتطلع من فوق كتفك فجأة ،
كما تفعل الأشباح . . . إننى لا أستطيع احتمال مثل هذه الحالة بل إننى
لا أظن أن إنساناً يستطيع احتمالها يا « توم » .

-- هذا صحيح ، ولكن الأشباح لا تظهر إلا فى الليل فقط ، ومن ثم
فإنها لن تعوقنا عن الحفر هناك نهائياً .

-- إنك على حق . . . بيد أنك تعلم ولاشك ، أن الناس لا يذهبون إلى
هذا المنزل فقط نهائياً أو ليلاً .

-- لعل السبب فى ذلك هو أن الناس لا يحبون الذهاب إلى أى مكان .

وقعت فيه جريمة قتل — ومع ذلك ، فإن شيئاً ما لا يظهر حول هذا المنزل إلا أثناء الليل — لأنها بعض أضواء زرقاء اللون تمر بالنوافذ — ولكن لا تظهر أشباح منتظمة على ما أظن !

— حسناً ، حينما ترى ضوءاً من هذه الأضواء الزرقاء ، كن على يقين من وجود شبح خلف هذا الضوء مباشرة ، وليس من شك في أن ذلك هو التعليل الصحيح ، لأن الأشباح وحدها هي التي تستخدم مثل هذه الأضواء . — أصبت . . . وعلى كل حال ، فإن الأشباح لا تظهر نهاراً ، فما الذى يحملنا على الخوف ؟ .

— الحق معك إذن . . سنحفر فى المنزل المهجور مادمت تريد ذلك ، ولكى أعتقد أنها مجازفة . . .

كانا قد بدما ينحدران من التل فى تلك الأثناء ، وما لبثا أن رأيا ، المنزل المهجور ، فى قلب الوادى ، وقد سقطت عليه أشعة القمر ، فأبرزته فى شكل مخيف . . . فقد تهدم سياجه منذ أمد بعيد ، ونبقت الأعشاب الطويلة من حوله ، بل فوق عتبهته ، والدرج المؤدى إلى بابه ، أما المدخنة فقد تحطمت ، بينما كانت النوافذ مجردة من الزجاج والخشب ، كما اختفى جزء من السقف . . . وحمق الغلامان لحظات فى المنزل وهما يتوقعان رؤية ضوء أزرق يمرق من أمام إحدى النوافذ . ثم أخذتا يتحدثان بصوت هامس ، ولم يلبثا أن انحدرا ناحية اليمين فى طريقهما إلى المنزل ، عبر الغابات .

الفصل السادس والعشرون

الصوص الحقيقيون يستولون على صندوق الذهب

حوالى ظهر اليوم الثانى ، وصل الغلامان إلى الشجرة الميتة التى كانا يخفيان تحتها أدواتهما . . وكان « توم » أشد ما يكون لطفة على الذهاب إلى المنزل المهجور ، ولم يكن « هاك » أقل منه لطفة على ذلك ، ولكنه قال بغتة :

— اصغ إلىّ يا « توم » . . الا تعلم فى أى يوم من أيام الأسبوع نحن ؟
وفكر « توم » ، فى أيام الأسبوع ، ثم لم يلبث أن رفع رأسه وقد تبدت فى عينيه نظرة تدل على الفزع .

وقال : رباه ! إننى لم أفكر فى ذلك إطلاقاً يا هاك ، ا

— وأنا أيضاً لم أفكر فيه . . ولكننى تذكرت فجأة أن اليوم هو يوم الجمعة .

— إن الإنسان لا يستطيع أن يكون حذراً دائماً « يا هاك » . . لاشك فى أنه ربما كان من المحقق أن تصادفنا متاعب جمّة ، لو أننا انصرفنا إلى العمل فى يوم الجمعة .

— هناك أيام تجلب الحظ ، ولكن يوم الجمعة ليس واحداً منها .
— إن أى أحق يعرف ذلك . . ولست أعتقد أنك أول من اكتشف هذه الحقيقة يا « هاك » .

— حسناً . إننى لم أقل إننى مكشفتها ، أليس كذلك ؟ ثم إن ذلك ليس كل شيء ، فقد حملت حليماً سيئاً ليلة أمس — حملت بالفئران .

(م ١٤ — توم سوير)

— أحقا؟ إنها علامة محققة تنبيء بكثير من المشا كل . . هل كانت
تشاجر؟

— لا

— هذا مخيف يا هاك . . فما دامت الفئران لم تشاجر ، فعنى ذلك
أن هناك بعض المشكلات ، ومن ثم يجب علينا أن نلزم الحذر التام ، وأرى
أن نتخلى عن محاولة البحث عن الكنز اليوم ونلعب . . هل تعرف روبن
هود ، يا هاك ، ؟ .

— لا . . من هو « روبن هود » هذا ؟

— كان رجلا من أعظم رجال إنجلترا — وأكرمهم . . كان لصا . .

— ليقنى كنت مثله . . لكن من الذين كان يسرقهم ؟ .

— العمدة والأساقفة والأثرياء والملوك وما أشبههم فقط ، وإكته لم
يزعج الفقراء مطلقاً ، فقد كان يحبهم . ولهذا كان يقسم الغنائم معهم بعدل .

— لا ريب أنه كان إنسانا عظيما .

— لقد كان كذلك يا هاك . . إنه من أنبل الرجال الذين عرفهم هذا
العالم ، وما أظن أن في الدنيا رجلا مثله الآن . . كان في استطاعته أن
يهزم أى رجل ، وإحدى يديه مربوطة خلف ظهره ، كما كان في استطاعته
أن يستعمل قوسه المصقول في إصابة قطعة من ذات العشر بنسات على مبعدة
ميل ونصف ميل ! .

— ما هو القوس المصقول يا توم ، ؟

— لا أعلم . . أنه نوع من الأقواس على كل حال . . وكان إذا أصاب
حافة قطعة النقود دون قلبها ، يلقى بقوسه على الأرض وينخرط
في البكاء — والسب . مهما يكن ، لم بنا نلعب « روبن هود » . .
وسأعلمك كيف يكون اللعب .

- هلم بنا .

وهكذا قضيا فترة بعد الظهر كلها أوهما يلعبان دور « روبن هود » ، وكانا لا يكفان عن التطلع بلهفة إلى المنزل المهجور ، وينطقان بملاحظة عما يينظرهما في غدهما من مفاجآت في هذا المنزل . وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغرب ، كرا عائدتين إلى المنزل ، ولم تلبث غابات « كارديف » هيل ، أن ابتلعتهما .

وعند ظهر يوم السبت ، كان الغلامان قد وصلا إلى الشجرة الميتة ، وبعد أن دخنا قليلا وتجاذبا أطراف الحديث وهما جالسان في ظل شجرة شرعا يوسعان قليلا في الحفرة التي سبق لهما أن حفرها ، لا لأنهما كانا يتوقعان أية نتيجة من وراء ذلك : وإنما لأن « توم » قال إن هناك حالات كثيرة جداً تخلى فيها الباحثون عن الكنوز عن العمل وهم قاب قوسين أو أدنى من النجاح ، ثم جاء أشخاص آخرون استأنفوا الحفر حيثما تخلى عن الحفر من سبقوهم ، ففازوا بالغنيمة بغير كبير عناء . ومع ذلك ، فقد فشل الغلامان في العثور على الكنز ، فوضعا أدواتهما فوق كتفيهما ، وانطلقا إلى المنزل المهجور ، وهما يشعان بأنهما لم يقصّرا في العمل .

وعندما وصلا إلى المنزل المهجور ، لاحظا أن الجو المحيط به يبعث على الفزع ، وأن شيئاً ما فيه - عدا الصمت والعزلة - يبعث على الانقباض . فتماكهما الخوف لحظة ، وتهيبا الإقدام على دخول المنزل ، ثم لم يلبثا أن زحفا نحو الباب واختلسا النظر إلى الداخل وهما ينتفضان . فرأيا غرفة الأرضية لها ، نبتت فيها حشائش طويلة ، وبها مدفأة عتيقة ، أما النوافذ فكانت مجردة من الزجاج والخشب ، بينما انشرت خيوط العنكبوت في كل ركن من أركانها . . . وبعد قليل تقدما إلى الداخل ، بحذر شديد وهما يتحدثان همساً ، وقلباهما بطرقان بعنف ، وأذناهما مرهفتان لالتقاط أي صوت ، وعضلاتهما متوترة استعداداً للتراجع السريع .

وما أن مضت فترة أخرى حتى بدأت مخاوفهما تهجم ، فالتقيا نظرة فاحصة على ماحولهما ، وهما فخوران بشجاعتهما ويعجبان لها أيضاً . وبعدئذ أراد الصعود إلى الطابق العلوى ، وكان ذلك بمثابة قطع طريق النجاة على نفسيهما ، إلا أنهما راحا يتحديان أحدهما الآخر ، وأخيراً وضعا أدواتهما فى ركن من الغرفة ، وشرعا يرتقيان الدرج العتيق . وعندما وصلا إلى الطابق العلوى لم يصادفا الا آثار الخراب التى أحدثها الزمن فى المنزل كله — وعثر فى أحد الأركان على صندوق عتيق فانتعش أملهما ، ولكن ذلك الأمل لم يلبث أن تبدد حينما تبين لهما أنه صندوق فارغ وكان قد استجمعاً ما تشئت من شجاعتهما عندما سمعاً صوتاً خافتاً !

همس « توم » : صه !

فهمس « هاك » وقد اصفر لونه : ماذا حدث ؟

— صه . . . هناك ! هل تسمع ؟

— يا إلهى انعم . . . هلم بنا نغادر هذا المكان !

— الزم مكانك إياك والحركة . فإنهم قادمون نحو الباب .

— وانبطح الغلامان فوق الأرض ، وراحا يتطلعان من خلال الفجوات التى خلفتها عتبة الألواح الخشبية ، وقد تملكهما الفرع تماماً .
قال توم :

— لقد وقفوا . . . لا . . . إنهم قادمون . . . هاهم . إياك أن تهمس بكلمة أخرى يا « هاك » . . . يا إلهى ليتنى لم أزجّ بنفسي فى هذا المأزق !

ودخل رجلان إلى الغرفة السفلى . فقال كل غلام الآخر : إنه الأسباني المعجوز الأصم الأبكم الذى رأيناه يتجول فى المدينة أخيراً — اما الرجل الآخر فلم تسبق لنا رؤيته .

كان الرجل الثانى مهلهل الشياب ، أشعث الشعر ، مخيف المنظر . وكان

الإسباني يلف روجه بقطعة من القماش، وقد دب المشيب في سالفه غزيري الشعر، بينما تدلى شعر رأسه الطويل إلى أسفل حافة قبعته، وكان يخفي بعينيه خلف عوينات خضراء اللون. وعندما دخلا إلى المنزل كانا يتكلمان معاً بصوت منخفض، ثم لم يلبثا أن جلسا فوق الأرض ووجهاهما إلى الباب، وظهرهما إلى الجدار. واستمر المتكلم منهما في لغوه، ولم يلبث أن تخلى عن صدره، فاستطاع الغلامان سماع كلامه.. قال:

— كلا.. لقد فكرت في الأمر ملياً. وأصدقك القول إنني غير مرتاح إليه لخطورته.

فقال الإسباني، «الأصم الأبكم»، وهو أمر أدهش الغلامين أشد دهشة:

— خطر الحديث خرافة!

وذعر الغلامان حينما سمعا صوت «الأبكم»، الذي يتكلم.. لقد كان «انجان جو»، وصاد الصمت لحظات. وبعد ثم قال «جو»:

— هل هناك شيء أكثر خطورة من المهمة الأخرى؟ — ومع ذلك فإنها انتهت بسلام.

— إن الأمر مختلف.. فإن المكان هناك منعزل تماماً.. ولا يوجد حوله أو بالقرب منه أي منزل — مهما يكن، فإن أحداً لن يعلم أننا حاولنا شيئاً، طالما أننا لم ننجح!

— حسناً، أن المجيء إلى هنا في وضوح النهار على جانب عظيم من الخطورة! — فأى إنسان يرانا سوف يرتاب في أمرنا.

— أعرف ذلك. بيد أنه لم يكن هناك مكان نلوذ به أقرب من هذا بعد أن فشلت مهمتنا.. إنني أريد مغادرة هذه المنطقة.. لقد أردت أن أفعل ذلك أمس، إلا أنه كان من الحماقة أن أفعل ذلك، بينما هذان الغلامان اللعينان يلعبان فوق التل ويستطيعان أن يرياني بسهولة.

... هذان الغلامان الشقيان ! وأحس الغلامان بالخطر يقترب .
منهما ١١

وأخرج الرجلان طعاما تناولا . . . وبعد فترة طويلة من الصمت قال
« انجان جو » ،

— أصغ الىّ يا فتى — عد أدراجك الىّ النهر حيث مستقرك ، وانتظر
حتى تسمع مني . أما أنا فسأجازف بالذهاب الى المدينة مرة أخرى لألقى
نظرة . وسوف ننفذ المهمة « الخطرة » ، بعد أن أتجسس قليلا ، وأتبين
أن فرصة نجاحنا مضمونة . . . وبعدئذ سوف نذهب الى تكساس اسنذهب معا ،
الى هناك .

ولزم الرجلان الصمت مرة أخرى .. وبدأ النعاس يدب في جفونهما . . .
وما لبث « جو » ، أن قال .

— إننى شديد الرغبة فى النوم ! لقد حانت نوبتك للمراقبة .

وتمدد « انجان جو » ، فوق الحشائش ، وإن هى إلا لحظات حتى ارتفع
شخيره ، فمزه زميله مرة أو مرتين ، ولكنه لم يستيقظ . . . وبعد قليل
سقط رأس المراقب فوق صدره ، وارتفع شخيره بدوره .

وتنفس الغلامان الصعداء . . . وهمس « توم » ، :

— لقد حانت فرصتنا — تعال !

فقال « هاك » ، لا أستطيع . . . فسوف أموت خوفا إذا استيقظا .

وحثه « توم » ، — ولكن « هاك » ، جمدا فى مكانه ، وأخيرا نهض
« توم » ، وتهيأ لهبوط الدرج الخشبي بمفرده ، ولكنه ما كاد يخطو الخطوة
الأولى حتى أحدث سيره على خشب الدرج صوتا مزعجا جعل « توم » ،
يتهاك فوق الأرض وهو ينتفض من فرط الرعب . . . ولم يحاول النهوض
مرة أخرى ، وبقي الغلامان ممددين فوق الأرض ، بينما الدقائق تمر بتماقل .

مخيف، حتى خيل إليهما أن الوقت لا يمر ، ولكنهما لم يلبثا أن شعرا بالارتياح ، حينما لاحظا أن الشمس أخذت تنحدر نحو المغرب .

وتوقف شخير أحد الرجلين بغتة . واستوى « انجان جو ، جالساً ، ثم حلق فيما حوله - وابتسم باكتئاب حينما وقعت عيناه على زميله الذي كان رأسه قد استقر فوق ركبتيه - وهزه بقدمه قائلاً :

- استيقظ ! ألسنت مراقباً ؟ حسناً - الحمد لله ، فإن شيئاً ما لم يحدث .

- يا إلهي : هل كنت نائماً ؟

- بعض الشيء . . . لقد حان وقت الإنصراف . لكن ماذا سنفعل بالثروة التي بقيت لنا ؟

لست أدري - نتركها هنا مثلما فعل دائماً . . لا جدوى من أخذها معنا قبل أن يحين موعد هروبنا غرباً إلى تكساس ، فإن ستمائة وخمسين دولاراً فضياً ليست مما يسهل حمله .

- حسناً . . حسناً . . لا أظن أن هناك ما يحول دون مجيئنا هنا مرة أخرى .

- كلا - ولكنني أفضل المجيء ليلاً كما اعتدنا - إن ذلك أفضل .

- نعم . . لكن اصغ إلى : ربما انقضى وقت طويل قبل أن تتاح لي الفرصة المناسبة لأداء المهمة . وقد تقع حوادث في تلك الأثناء ، فإن هذا المكان ليس مأموناً تماماً . . فيحسن أن ندفن الثروة - على عمق كبير .

فقال زميله : إنها فكرة حسنة .

وأخذ الرجل الآخر يتمشى في أرجاء الغرفة . ثم توقف أمام المدفأة ، وانحنى ، ورفع حجراً من أحجارها ، التقط من أسفله كيساً أحدث رنيناً

يسر الأذن . . وأخذ من هذا الكيس عشرين أو ثلاثين دولاراً احتفظ بها لنفسه ، وقدم مثلها لجو ، الذي كان راكعاً فوق ركبتيه في ركن الغرفة وهو يحفر الأرض بسكينته .

ونسى الغلامان كل مخاوفهما وخرج مركزهما في تلك اللحظة . وراحا يراقبان كل حركة تحدث في الغرفة السفلى باهتمام . . إنه الحظ ا -- لقد واثما الحظ أخيراً بقدر لم يكونا يتوقعانه ا إن ستائة دولار تكفى لإسباغ نعمة الثراء على ستة فتیان ا لم يعد هناك ما يدعوها للبحث عن كنز . وراح كل منهما يلكز صاحبه بمرفقه -- لكزات ذات مغزى مفهوم إذ كان معناها ، أوه ا ألسنت مسروراً الآن لأننا بقينا هنا ؟ ،

وارتطم سكين ، جو ، بشيء ما ، فهتف : ما هذا ؟

فقال صاحبه : ماذا ؟

-- لقد اصطدم السكين بقطعة من الخشب على ما أظن . . كلا . . إنه صندوق -- أنظر -- هلم عاونى لنعرف لماذا وضع هذا الصندوق هنا . . فقد حفرت حفرة كبيرة كافية .

ومد ا انجان جو ، يده ، وجذب غطاء الصندوق . ولم يلبث أن

هتف :

-- إنها نقود ا

وراح الرجلان يتأملان حفنتى النقود اللتين أخذاهما من الصندوق . . كانت النقود من الذهب !! . ولم يكن الغلامان الخائفان أقل انفعالا وسروراً من الرجلين .

قال زميل جو :

سوف نُخرج الصندوق بسرعة ، فقد رأيت فأساً ومجرفة قديمين بين الأعشاب في ركن الغرفة المجاورة للدفأة -- لقد رأيتهما منذ لحظات

فقط ا

وتقدم « جو » نحو ركن الغرفة ، وأحضر الفأس والمجرفة اللذين تركهما الغلامان هناك . وأخذ المجرفة وتأملها فاحصاً . ثم هز رأسه ، وتمتم بكلمات غير واضحة ، وراح يحفر بجوار الصندوق ، وسرعان ما أخرج الصندوق . . . لم يكن الصندوق كبيراً ، وكان مشدوداً بأحزمة من الحديد ، ولكن الزمن كان قد أثر فيه أسوأ تأثير . . . وراح الرجلان يتأملان الكنز في صمت وهناء .

وأخيراً قال « انجان جو » : إن في هذا الصندوق آلاف الدولارات أيها الزميل .

— لقد سمعت أن عصابة « موريل » اعتادت أن تأتي إلى هذه المنطقة في صيف أحد الأعوام .

— أعرف ذلك . ويبدو أنها هي التي دفنت هذا الكنز .

— والآن . لم تعد ثمة حاجة بك إلى أداء المهمة الأخرى .

فقطب « انجان جو » ، حاجبيه ، وقال :

— إنك لا تعرفي . . ولا تعرف كل شيء عن هذه المهمة الأخرى . .

لأنني لا أريد أداءها للسرقة فقط . . إنما للثأر !

وتألفت عيناه بريق جهنمي . ثم أردف :

— سأحتاج إلى معونتك في هذه المهمة . . وعندما نفرغ منها ، سنمضي

إلى تكساس . . ستعود إلى وطنك حيث توجد زوجتك « نانسي » ،

وأطفالك . . فالزم الصمت حتى تسمع مني .

— سمعاً وطاعة . . ليكن لك ما تريد . . لكن ماذا سنفعل بهذا —

هل ندفنه ثانية ؟

— نعم (كاد الغلامان يطيران من فرط الفرح في تلك اللحظة) .

لا . . لا . . بحق الشيطان (استولى الجزع الشديد على الغلامين) . . لقد

كدت أنسى . . أن هذه المجرفة استعملت حديثاً (هنا أحس الغلامان بأن قلوبهما يوشكان أن يكفيا عن الحركة) . . ما السبب في وجود الفأس والمجرفة هنا ؟ وما هو السبب في وجود آثار حفر حديثة عليهما ؟ ومن الذى أحضرهما إلى هنا - وأين ذهب هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ؟ هل سمعت صوتاً ؟ - هل رأيت أحداً ؟ ماذا - أندفته ثانية وندعهم يجثون ويرون آثار الحفر في أرض هذه الغرفة ؟ لا . . لا . . سنذهب به إلى عربى .

- بالطبع .. كان ينبغي أن أفكر في ذلك من قبل .. أتعنى رقم ١ ؟

- لا ، بل رقم ٢ ، تحت الصليب .. إن المكان الآخر ردىء للغاية -

إنه وضع جداً !

- إفعل ما تريد . . لقد أقبل الليل ، وأظن هذا هو أنسب وقت

للانصراف .

ونهمض « إنجان جو » واقفاً ، وأخذ ينقل بصره من نافذة إلى أخرى ،

وهو ينظر إلى الخارج . وأخيراً قال :

- مَنْ الذى أحضر هذه الأدوات هنا ؟ هل تظن أنهم مخبثون في

الطابق العلوى ؟

وغاص قلبا الغلامين بين جنبيهما . ووضع « إنجان جو » يده فوق

سكينة ، وتردد لحظة ، ثم تحول إلى الدرج . . وفكر الغلامان في

الالتجاء إلى (المطبخ) ولكن قواهما خذلتها . وبدأ الدرج يُحدث صوتاً

تحت أقدام « إنجان جو » وهو يرتقيه - وفجأة دبت القوة في جسمى

الغلامين واستعدا للاندفاع نحو (المطبخ) ، عندما سمعا صوت ارتطام شديد؛

فقد سقط « إنجان جو » والدرج معه إلى الطابق الأرضى . . ونهمض « إنجان »

متعثراً وهو يسب ويلعن ، فقال زميله :

- ما جدوى ذلك كله ؟ إذا كان بالطابق العلوى أحد - فليبق

حيث هو — فإن ذلك لا يهمنا ! إذا أراد الوثوب من الطابق العلوى وإيذاء نفسه ، فنذا الذى يأبه له ؟ إن الدنيا لن تلبث أن تظلم بعد ربع ساعة — فليحاول من يريد أن يتبعنا إذا شاء ، فإننى على استعداد لملاقاته . وعندى أن الشخص الذى أحضر هذه الأدوات إلى هذا المكان اعتقد أننا من الأشباح أو الشياطين أو المشعوذين . . وأقسم أنه لاذ بالفرار !

وظل « جو » يتدمر لحظات . . ثم وافق على ضرورة الاستعانة بما تبقى من ضوء النهار فى الاستعداد للانصراف . . وبعد قليل ، تسلل الرجلان من المنزل ، وانطلقا نحو النهر وهما يحملان الصندوق الثمين .

ونهض «توم» و «هاك» .. كانا يحسان بضعف شديد ولكن شعورهما كان منظوياً على راحة أشد . وراحا يرقبان الرجلين من خلال الشقوق الموجودة فى جدار الغرفة . . ويتساءلان : أيتبعانها ؟ لا . . إطلاقاً ! وقنعنا بالوصول إلى الأرض سالمين ، بغير أن يدق عنقاهما أو تصاب أقدامهما بسوء . وانطلقا فى الطريق المؤدى إلى المدينة . ولكنهما لم يكـثرا من الحديث . فقد كانا منمكين فى الحقد على نفسيهما — الحقد على حظهما التمس الذى جعلهما يأخذان أدوات الحفر معهما . فلولاها لما ساورت الريبة « إنجان جو » على الإطلاق ، ولخبياً الفضة مع الذهب ، إلى أن يحقق « ثاره » ، وعندئذ سوف يكتشف أن الكنز قد اختفى . . بالسوء الحظ الذى دفعهما إلى إحضار تلك الأدوات معهما .

وقررا البحث عن « جو » ومراقبته عندما يحىء إلى المدينة مترقباً الفرصة للقيام بعمله الانتقامى ، فيتبعانه إلى « رقم ٢ » أينما كان . وعندئذ خطرت لتوم فكرة أفزعته !

هتف : « ثار ؟ ألا يكون الثار منا يا «هاك» ؟

فقال «هاك» وقد أوشك على الإغماء : لست أتصور ذلك !

وأخذنا يقلبنا الأمر على مختلف وجوهه ، وبينما كنا نيهمان بدخول
المدينة ، اتفقا على أنه من الجائز أن الرجل يقصد شخصا آخر - أو على الأقل
لعله يقصد «توم» ، وحده لأنه الوحيد الذي أدلى بشهادته في المحكمة .
واستشعر «توم» القلق ؟ حينما تبين له أنه يقف في دائرة
الخطر بمفرده !

الفصل السابع والعشرون

إقتفاء الأثر

أفسدت مغامرة النهار أحلام «توم»، أيما إفساد أثناء الليل . . فقد رأى يديه تلمسان الكنز العظيم أربع مرات، ولكن حلمه كان لا يلبث أن يتبخر كلها استيقظ فزعاً، فيدرك مدى سوء حظه . . وبينما كان ممدداً فوق الفراش في صباح اليوم التالي، وهو يسترجع في ذهنه تفاصيل مغامرته الكبرى، لاحظ أنها تبدو له سحيقة بشكل عجيب . . كما لو كانت قد وقعت في عالم آخر، أو منذ أحقاب طويلة من الزمن . . ثم خطر له أن المغامرة الكبرى نفسها قد تكون حلماً، وكانت هناك حجة قوية تدعم هذه الفكرة، ألا وهي أن كمية النقود التي رآها كانت أضخم من أن تكون حقيقية، إذ لم يسبق له أن رأى أكثر من خمسين دولاراً مرة واحدة، ولما كان كجميع الفتيان الذين في مثل سنه وظروفه الاجتماعية من حيث توهمهم أن الإشارة إلى «مئات»، و«آلاف»، الدولارات، ليست إلا أشكالاً خيالية من أشكال التصور، فإنه لم يستطع أن يصدق أن في الدنيا أموالاً كهذه . . لم يكن يدور بخله البتة أن مبلغاً كبيراً مثل مائة دولار، يمكن أن يتوفر لأي شخصاً

ولكن تفاصيل مغامرته كانت لا تلبث أن تبدو له أكثر وضوحاً وعمقاً. كلما تعمق في التفكير، ومن ثم فسرعان ما تبلبل تفكيره، ولم يستطع أن يقطع في الأمر برأى . . ولهذا تناول إفطاره على عجل، وانطلق يبحث عن «هاك»، ليقطع الشك باليقين .

وكان «هاك»، يجلس فوق حافة النهر، وهو يهز ساقيه المتدليتين في الماء، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاكتئاب . . وقرر «توم»، أن يترك

لهاك مهمة البدء بالحديث ؛ فإذا لم يشر إلى موضوع الكنز ، كان ذلك معناه
أن المغامرة كلها لم تكن إلا حلمًا !

وبعد أن تبادل الغلامان التحية لزمما الصمت . وأخيراً قال هاك ، :
— لو أننا تركنا هاتين الأدوات اللعينتين عند الشجرة ، لحصلنا على
الكنز يا د توم ، أليس ذلك من فكك الدنيا ؟

— إذن لم يكن الأمر حلمًا !

— أى حلم تعنى ؟

— ما مر بنا أمس . . لقد ساورنى الشك فى أنه كان حلمًا !

— كان حلمًا ! لولا انهيار الدرج لكنت تشاهد أحلاماً كثيرة الآن !
لقد حلمت بما فيه الكفاية أثناء الليل — حلمت أن ذلك الشيطان الإسبانى
اللعين يطاردنى ليقطنى . . عليه اللعنة !

— دعنا من اللعنة -- إنما يجب علينا أن نعر عليه . علينا أن نبحث

عز الكنز !

— د توم ، إننا لن نعر عليه . . إن الإنسان لا تتاح له إلا فرصة واحدة
للحصول على مثل هذا الكنز . وقد ضاعت هذه الفرصة . . مهما يكن ،
لا شك فى أنى سوف أموت فزعاً إذا رأته ثانية .

— وأنا أيضاً ، ولكنى أريد أن أراه على كل حال -- وأن أتعبه —

إلى رقم ٢

— رقم ٢ . . نعم . . نعم . . لقد كنت أفكر فيه ، ولكنى لم أستطع
أن أفهم شيئاً . . ماذا تظنه ؟

— لست أدرى . . فإن المعنى أعمق من أن أدركه بسهولة . . اصغ إلى
يا هاك ، — ألا يكون هذا رقم أحد المنازل ؟

-- كلا يا د توم ، . . إن الأمر ليس كذلك ، فليس للمنازل أرقام

فى هذه المدينة .

- آه ! إنك على حق . . إذن دعنى أفكر قليلا - آه ! لعله رقم
غرفة فى فندق !
- أعتقد أنها خدعة ! فإن بالمدينة فندقين فقط ، وفى استطاعتنا أن نجلو
الحقيقة سريعا .
- ابق هنا يا « هاك » ريثما أعود .

وانصرف « توم » على الفور ، فإنه لم يكن يرتاح إلى وجود « هاك »
معه فى الأماكن العامة ١١ . وغاب نصف ساعة ، اكتشف بعدها أن حماميا
يشغل الغرفة رقم ٢ من الفندق الأول منذ وقت طويل ، وما زال يشغلها
حتى الآن . أما فى الفندق الآخر ، فكان الغموض يحيط بالغرفة رقم ٢ :
فقد قال ابن حارس هذا الفندق لتوم أن تلك الغرفة مغلقة دائما ، وأنه لم
يرأى أحدا يدخلها أو يخرج منها إلا أثناء الليل ، ولكنه لا يعلم السبب فى ذلك
وكل ما استطاع أن يقوله هو أنه يعتقد أن هذه الغرفة « مسكونة بالأشباح »
ثم أوقف قائلا أنه رأى ضوءا فى هذه الغرفة فى الليلة السابقة ١١

قال لهاك : هذا ما اكتشفته يا هاك . . وأكبر ظنى أن ذلك هو رقم ٢
الذى نريده .

- أعتقد ذلك يا « توم » . . ماذا ستفعل الآن ؟

- دعنى أفكر

وفكر « توم » طويلا . . ثم قال :

- سأخبرك . : إن الباب الخلفى لرقم ٢ ، هو الباب الذى يطل على
الممر الضيق الواقع بين الفندق وذلك المخزن العتيق . . فمليك أن تحضر جميع
مفاتيح الأبواب التى تستطيع العثور عليها ، وسأسرق أنا مفاتيح عمى . وفى
أول ليلة معتمة ، سنجرب فتح باب الغرفة بهذه المفاتيح . . لكن يجب أن
تفتح عينيك جيدا ، لأن « انجان جو » ، قال إنه سيأتى إلى المدينة مرة أخرى

اعل فرصة تتاح له للثأر . فإذا رأيتَه اتبعه . فإذا لم يذهب إلى رقم ٢ هذا
فمعنى ذلك أنه ليس المكان المنشود .

— يا إلهي ! انى أود أن أتبعه بنفسى !

— تستطيع ذلك ، لأن الوقت سيكون ليلاً بكل تأكيد . ومن ثم فقد
لا يراك — وحتى إذا رآك فإنه لن يرتاب في أمرك .

— هذا حق . . . إذا كان الظلام دامساً ، فسأتبعه — لست
أدرى . . . سأحاول !!

— أوكد لك أنى لن أتردد في تعقبه إذا كان الظلام دامساً
يا د هاك ، . . فقد يتحقق من أنه لن يستطيع الثأر بسبب الظلام ، فنذهب
في طلب الكنز .

-- إن الأمر كذلك يا د توم ، فإنه كذلك اسوف أتبعه . نعم ، سأتبعه!
— إن هذا عين العقل يا د هاك ، إياك أن تضعف . وأنا أيضاً أن أضعف

الفصل الثامن والعشرون

في عرين « إنجان جو » !

استعد « توم » و « هاك » للقيام بمغامرتهما في تلك الليلة . وراحا يتسكعان على مقربة من الفندق إلى ما بعد الساعة التاسعة ، فكان أحدهما يراقب الممر عن كئيب ، بينما كان الثاني يراقب باب الفندق . . . ولم يدخل أحد من الممر أو يخرج منه ، كما أن أحداً شبيهاً بالأسباني لم يدخل من باب الفندق أو يخرج منه . . . وبدأ كأن الليلة ستكون صافية ، ومن ثم فقد عاد « توم » إلى المنزل بعد أن اتفق مع « هاك » على أنه إذا أظلمت السماء بدرجة كافية ، فإن عليه أن يبادر بالحضور إلى منزله ، فينضم إليه « توم » ، ثم يذهب إلى الفندق لتجربة المفاتيح . . . ولكن السماء ظلت صافية ، فتخلى « هاك » عن المراقبة حوالى منتصف الليل ، وقضى ليلته نائماً فى برميل كبير فارغ !

لم يكن حظ الغلامين فى يوم الثلاثاء أسعد منه فى يوم الاثنين . . . كما ظل الحظ متناكراً لهما فى يوم الأربعاء . ولكن ليل الخميس كان يبشر بتحسن الظروف الملائمة لتنفيذ خطتهما . . . فتسأل « توم » من منزل عمته فى الوقت المناسب ، وقد حمل معه مصباحها المصنوع من الصفيح ومشفة كبيرة ليحجب ضوء المصباح بها . . . وأخفى « توم » المصباح فى البرميل الكبير الفارغ الذى قضى « هاك » ليلته فيه ، ثم بدأت المراقبة . . . وقبل أن ينتصف الليل بساعة ، أغلق الفندق أبوابه ، وأطفئت أنواره ، دون أن يظهر للأسباني أثر ، ودون أن يدخل أحد إلى الممر أو يخرج منه . . . وكان الهدوء مستتباً والظلام دامساً ، ولم يعكر صفو هذا السكون إلا قرعة الرعد من بعيد .

وأحضر ، توم ، المصباح وأوقده بداخل البرميل ، ثم لفّه جيداً بالمنشفة ، وتسلسل المغامر ان نحو الفندق في الظلام . ووقف « هاك » ، يراقب المدخل ، بينما تحسس « توم » طريقه بداخل الممر . . . ومضى وقت طويل و« هاك » ، في الانتظار . وأخيراً ثقلت وطأة الانتظار على « هاك » ، وانتابه القلق . فبدأ يتمنى لو أنه استطاع أن يرى شعاعاً من نور المصباح - صحيح أنه سيثير الفزع في نفسه ، ولكنه سيؤكد له من ناحية أخرى أن « توم » لا يزال على قيد الحياة ؛ وخيل إليه أن ساعات طويلة انقضت منذ ذهب « توم » ، لأداء مهمته . . . وبدأ يخشى أن يكون « توم » قد أغشى عليه ، أو لقي حتفه ، من شدة الفزع وقوة الأفعال . . . وبينما هو يضرب أخماساً في أسداس ، ألقى نفسه يقرب رويداً رويداً من مدخل الممر ، وقد سيطرت عليه الهواجس والظنون . . . وكان يتوقع أن تقع كارثة في أية لحظة فتقضى عليه بدوره . . . وفجأة سطع شعاع من الضوء في كبد الظلام ، وأقبل « توم » ، يركض بجنون .

ثم صاح « توم » ، بادر بالفرار ! اركض بأقصى ما تستطيع من قوة ! .

ولم يجد « توم » ، ما يدعو إلى تحذير صديقه مرة أخرى ، فقد انطلق « هاك » ، يعدو بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين ميلاً في الساعة . ولم يتوقف الغلامان عن العدو ، إلا حينما وصلا إلى حظيرة مجزر مهجور في الجانب المنخفض من المدينة . وما أن دخلا الحظيرة . حتى هبت العاصفة وهطل المطر غزيراً .

وعندما هدأت نائرة « توم » ، قال :

- لقد كان الموقف مخيفاً يا « هاك » ، حاولت أن أفتح الباب باستعمال مفتاحين مما أحمل ، ولزمت أشد الحذر وأنا أجربهما . ولكنني فشلت ، ولست أدري أكان ذلك مرجعه اضطرابي ، أو عدم ملاءمتهما لفتح القفل . وبغير أن أدري ماذا كنت أفعل ، وضعت يدي على مقبض الباب وأدرته ،

«وفي التو فُتِحَ البابُ ! فإنه لم يكن مغلقاً! ودخلت الغرفة ، ورفعت المنشفة من فوق المصباح ... ثم ... يا إلهي !»

— ماذا ... ؟ ماذا رأيت يا د توم ،

-- لقد كدت أطايد ، انجان جو ، بقدمي يا د هاك ، ! .

— أحقا ؟ .

— نعم ... كان ممدداً فوق الأرض وهو مستغرق في النوم ، وقد غطى عينيه بخرقه ، وبسط ذراعه فوق الأرض .

— يا إلهي ! وماذا فعلت ؟ هل استيقظ ؟ .

-- لا ... إنه لم يتحرك .. أظنه كان مخموراً ... وعلى الفور اختطفت

المنشفة ثم بادرت بالفرار !

— أوكد لك أنني ما كنت لأفكر في المنشفة ، لو أنني تعرضت لمثل

هذا الموقف !

-- أما أنا فقد فكرت فيها ، إذ لا ريب في أن عمتي كانت تسيء إلى

أبلغ إساءة لو أنني فقدتها .

— أخبرني يا د توم ، ... هل رأيت الصندوق ؟

— لا ... لم أتريث حتى أتأمل ما في الغرفة ... ومن ثم فإنني لم أر

الصندوق ، كما أنني لم أر الصليب ... بيد أنني لمحت زجاجة ، وفنجانا

من الصفيح موضوعين فوق الأرض بجوار ، انجان جو ، ... آه ورأيت

تأيضاً برميلين ومزيداً من الزجاجات في الغرفة ألم تدرك بعد ما هو شأن هذه

الغرفة « المسكونة » ؟

— ماذا ؟

— إنها « مسكونة » بالخمر ! من الجائز أن بجميع الفنادق غرفاً

مسكونة كهذه !

— أعتقد أن الأمر كما تقول إذ مَنْ كان يفكر فى مثل ذلك ؟ لكن
أخبرنى يا «توم» ، أليس الوقت ملائماً الآن للاستيلاء على الصندوق .
مادام «إنجان» ، مخموراً .

— أحقاً ! إذن حاول !

فارتعش «هاك» ، .. وقال : لا .. أظن أننى لن أفعل ذلك .

— وأنا أيضاً يا «هاك» .. إن زجاجة واحدة لا تكفى لإفقاد «إنجان»
جو ، صوابه . ولو أننى رأيت بجانبه ثلاث زجاجات فارغة لأدركت أنه
مخمور إلى درجة كافية ، ولحاولت البحث عن الصندوق .

ومضى الغلامان يفكران لحظات وأخيراً قال «توم» :

إصغ إلىّ يا «هاك» .. يجب أن نتخلى عن تلك المحاولة إلى أن نعلم أن
«إنجان» جو ، غير موجود بالغرفة . فإن وجوده فيها يشيع الفزع فى القلب ..
فإذا راقبنا الغرفة كل ليلة ، فمن المحقق أننا سنراه وهو يغادرها ، إن عاجلاً أو
آجلاً . وعندئذ نخطف الصندوق فى سرعة البرق ،

— إننى موافق على هذا رأى .. سأراقب الفندق طوال الليل ، إذا
قبلت أن تقوم ببقية المهمة .

— حسناً ، سأفعل .. وكل ما ينبغى عليك أن تفعله حينما ترى «إنجان»
جو ، يغادر الفندق ، هو أن تأتى إلى «شارع هوبر» ، وتموء ، فإذا لم أستقيظ
فلا بأس من أن تلقى حصاة على النافذة فأستقيظ ! !

— اتفقنا !

— لقد انتهت العاصفة يا «هاك» ، ومأعود الآن إلى المنزل ، فإنه لم
يبق على طلوع النهار سوى ساعتين ، أما أنت فعند مراقبة الفندق حتى يطلع
النهار .. هل تفعل ذلك ؟

قلتُ لأننى سأفعل .. يا «توم» ، وسأفعل .. سأظل أراقب هذا الفندق

ولو استمرت المراقبة عاماً كاملاً سأنام بالنهار وأراقب طوال الليل .

ولكن أين ستنام ؟

— في مخزن (الدريس) بمنزل « بن روجرز » فكثيراً ما يسمح لي بقضاء الليل هناك ، كما يسمح لي أيضاً بذلك أبوه الزنجي « العم جاك » ، فإنني أجلب الماء للعم « جاك » كلما طلب مني ذلك ، ولهذا فإنه يسمح لي بالنوم في المخزن ويعطيني ما أطعم به ، إذا توفر لديه شيء يؤكل . إنه زنجي طيب القلب يا « توم » . . . فهو يحبني لأنني لا أتصرف مطلقاً كما لو كنت أعلى منه مرتبة ، فكم من مرة شاركته طعامه !! لكن لا داعي لأن تذكر ذلك لأجد ، فإن الإنسان يضطر إلى ارتكاب أخطاء جسيمة حينما يعرضه الجوع بنابه ، رغم أنها أخطاء يشمئز المرء من ارتكابها في الأحوال العادية !!

— إسمع يا « هاك » .. إذا لم أكن بحاجة إليك نهاراً فسأدعك نائماً ..
ولن آتي لإزعاجك . أما إذا رأيت شيئاً في الليل ، فبادر بالهجوم إلى المنزل ولن تنس أن تموء تحت النافذة كما تفعل القطط !!

الفصل التاسع والعشرون

« هاك » ينقذ الأرملة

كان أول شيء سمعه « توم » في صباح يوم الجمعة نبأ طيباً - لقد عاذ القاضى « تاتشر » وأسرته إلى المدينة في الليلة السابقة .. وفي النو أصبحت قصة « انجان جو » والكنز في المرتبة الثانية من الأهمية . واحتلت « بيكى » المركز الأول من اهتمام « توم » وتقابل الفتى والفتاة ، وقضيا وقتاً طويلاً في لعب « عسكر وحرامية » و « استغماية » مع جمع كبير من زملائهم وزميلاتهم في المدرسة .. وانتهى اليوم بطريقة تبعث على الرضاء التام ، فقد أقنعت « بيكى » أمها بتحديد اليوم التالى موعداً للنزهة التى وعدتها بها منذ أمد طويل قبل بدء العطلة المدرسية . وفرحت الفتاة فرحاً شديداً ولم يكن « توم » بأقل فرحاً منها . وسرعان ما سرت بين فتیان القرية وفتياتها نشوة الاستعداد للنزهة . وكان « توم » شديد الانفعال ، حتى لقد ظل مستيقظاً إلى ساعة متأخرة من الليل ، وهو يأمل أن يسمع الإشارة المتفق عليها بينه وبين « هاك » ، ويتمكن من الحصول على الكنز ليفاجى به . « بيكى » وزملائه في اليوم التالى .. ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة ، إذ لم تأت الإشارة في تلك الليلة .

وأقبل الصباح أخيراً ، وحوالى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة التأم شمل جماعة كبيرة من فتيات وفتیان القرية في منزل القاضى « تاتشر » ،

وكان كل شيء قد أعدّ للبدء بالرحلة .. ولم يكن من عادة المتقدمين في السن أن يفسدوا مثل هذه الرحلات باشتراكهم فيها ، إذ كانوا يعتبرون الأطفال في أمان تام ، ماداموا تحت إشراف عدد من الفتيات اللاتى لا تقل أعمارهن عن الثامنة عشرة ، والشبان الذين لا تقل أعمارهم عن الثالثة والعشرين ...

واستوجرت الناقلة البخارية العتيقة لهذه المناسبة ، وسرعان ما بدأت جموع الأطفال المرحية تتدفق في صف طويل في شارع المدينة الرئيسي وكل منهم يحمل سلة طعامه . وكان « سيدنى ، مريضاً في تلك الأثناء فتخلف عن الاشتراك في الرحلة ، بينما بقيت « ماري ، في المنزل لتسليته . وكان آخر شيء قالته مسز « تاتشر ، لبيكى هو :

— إنكم لن تعودوا إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ولعله من الأفضل أن تقضى الليلة مع بعض البنات اللاتي يقطن قريباً من مرسى الباخرة يا بفتى .

— إذن فسأقضى الليلة مع « سوزى هاربر ، يا أماه

— الرأي ماترين . . . ولكن احرصى على التزام آداب السلوك ، ولا تثيرى أية متاعب .

وبينما كانوا يسرون في الشارع قال «توم، لبيكى :

إصغى إلىّ ، فسأقول لك ماذا يحسن بنا أن نفعل . . سنرتقى التل ، ونقضى الليل في منزل الأرملة « دو جلاس ، بدلا من قضائه في منزل « جو هاربر ، ، فإن الأرملة تُعد دائما كميات كبيرة من (الأيس كريم) في منزلها كل يوم تقريبا . . ولا شك في أنها ستسر أبلغ السرور باستضافتنا — أوه الاشك في أن ذلك سيكون مدعاة لمرح كثير .

وفكرت « بيكى ، لحظة ، ثم قالت :

— لكن ماذا ستقول أمى ؟

فأجاب : ومن أين لها أن تعرف ؟

وقلبت الفتاة الفكرة في رأسها ، ثم قالت بتردد :

— أعتقد أن ذلك خطأ -- ولكن —

— لكن ماذا ؟ إن أمك لن تعلم ، فإذا تخشين إذن ؟ إن كل

ما تريده ، هو أن تكونى بمأمن من كل أذى ، وإني لوافق من أنها ما كانت لتتردد فى أن تطلب إليك الذهاب إلى هناك ، لو أن هذه الفكرة طرأت على بالها .

كان كرم الأرملة « دوجلاس » ، طعماً مغريباً . ومن ثم فإن هذا الكرم وحجج « توم » ، لم تلبث أن أحدثت أثرها فى نفس الفتاة . واتفق الاثنان على إخفاء كل شىء عن برناجهما الليلي عن الجميع . ولم يلبث « توم » ، أن تذكر أنه من الجائز أن يأتى « هاك » ، لإعطاء الإشارة فى هذه الليلة بالذات . وقد جعله هذا الخاطر يشعر بكثير من الضيق ، ولكنه لم يستطع أن يفكر فى التخلي عن المتعة المحققة التى كان يعلم أنه سيفوز بها فى قصر الأرملة « دوجلاس » ، ثم قال يعزى نفسه : — إن الإشارة لم تأت فى الليلة الماضية ، فما الذى يحتم مجيئها فى هذه الليلة ؟ ولقد جعله اعتقاده الجازم بأنه سيفوز بالمتعة ، بصرف النظر عن فكرة الحصول على كنز غير مضمون ، ولم يلبث تفكيره — كغلام — أن جعله يصرف النظر تماماً عن التفكير فى الكنز طوال النهار !!

ورست الناقلة على مبعدة ثلاثة أميال جنوب المدينة عند مدخل الغابة ، ونزل الجميع إلى البر ، وسرعان ما امتلأت الغابة بصياح الصغار المرحين وضحكهم ... وانصرف الجميع إلى اللعب واللهو ... وبعد مضى وقت طويل بدأ الجميع يعودون إلى المعسكر ، وقد نال الإعياء والجوع منهم كل منال . وفى التو انقضوا على الطعام كالذئاب الجامعة ففتكوا به فتكا ذريعاً ، وبعد انتهاء الوليمة ركن الجميع إلى الراحة والثثرة فى ظل أشجار البلوط ... وبقاة صاح أحد الفتيان :

— من منكم على استعداد للذهاب إلى الكهف ؟

وقوبل اقتراحه بموافقة اجماعية ، فأعدت الشموع ، وبعد لحظات كان جميع الفتيان والفتيات يتسلقون التل ، وكان مدخل الكهف فى القسم

الأعلى من جانب التل ، عبارة عن فتحة على شكل حرف A ، وكان بابها المتين المصنوع من خشب البلاوط مفتوحاً ، وبالداخل كانت توجد غرفة صغيرة شديدة البرودة كصنع الثلج ، بطنت الطبيعة جدرانها بطبقة من الحجر الجيري الصلب المزركش بقطرات من الماء البارد ... وكان الوقوف في هذا الكهف المظلم ، والتطلع إلى الوادي الأخضر الذي تغمره أشعة الشمس يثيران الخيال . ولكن أثر الموقف لم يلبث أن تلاشى سريعاً ، وساد الهرج مرة أخرى ، وما أن أضيئت أول شمعة ، حتى اندفع الجميع في تراحم شديد نحو حاملها لإشعال شموعهم ، فراح صاحب الشمعة المضاءة يحاول الدفاع عن شمعته . ولكن مهاجميه لم يلبثوا أن تغلبوا عليه ، فسقطت الشمعة من يده وانطفأت ، وعندئذ ارتفع صياح الجميع وضحكهم . وبعد قليل هدا الجميع ، وانخرطوا في صف طويل ، بدأ يهبط المنحدر العميق القائم في الدهليز الرئيسي ، والشموع الموقدة التي يحملونها ، لا تكاد تكشف عن سقف الكهف الذي كان يرتفع حوالى ستين قدماً فوق الرؤوس . ولم يكن عرض هذا الطريق الرئيسي يزيد على ثمانية أقدام أو عشرة .

ولقد كان « كهف دوجال » هذا ، عبارة عن متاهة بها مئات من الممرات الجانبية المتعرجة ، المتقاطعة ، التي لا يعلم أحد أين تبدأ وأين تنتهى ... وقد قيل إن المرء قد يقضى أياماً وليالي وهو يجوب في هذه الشبكة المعقدة من الممرات ، بغير أن يعثر على نهاية أحدها ، وأنه قد يهبط في باطن الأرض ، فلا يجد إلا متاهات لا نهاية لها . وكان من المحقق أنه ليس هناك إنسان في هذه المنطقة يعرف هذا الكهف معرفة تامة فقد كان ذلك أمراً مستحيلاً . ولكن أغلب شبان المنطقة كانوا يعرفون جزءاً منه فقط ، وكان من المعتاد ألا يجازف أحد بتخطى هذا الجزء المعروف الذى كان « نوم سوير » يعرفه أيضاً .

وتحرك الموكب إلى الأمام فى الدهليز الرئيسى ، حتى قطع ثلاثة أرباع الميل ، وبعدئذ بدأ القتيان والفتيات ينقسمون إلى جماعات وأزواج ، ثم

راحوا يخفون في الممرات الفرعية ، ليفاجىء كل منهم الآخر عند نقط التقاء الممرات ، وقد استطاعت كل جماعة أن تراوغ الجماعات الأخرى خلال نصف الساعة التالى ، ولكن الجميع كانوا يحرصون أشد الحرص على ألا يتجاوزوا المنطقة المعروفة ١١

وفى تلك الأثناء ، بدأت الجماعات تعود ، واحدة فى إثر الأخرى ، إلى مدخل الكهف ، وقد أضناها التعب والإعياء ، وتلطخت وجوه أفرادها و ثيابهم بالقذر الذى كان يتساقط مع قطرات الماء . ولكن الجميع كانوا مرحين لأنهم قضوا وقتاً رائعاً . وكما كانت دهشتهم عظيمة ، عندما تبين لهم أن النهار قد أشرف على الانتهاء ، وأن الليل يوشك أن يسدل أستاره . وكان ناقوس الناقلة البخارية يدق منذ نصف ساعة داعياً الجميع إلى التاهب للعودة . وعندئذ أحس الجميع بأنهم قضوا يوماً من أمتع الأيام وأجملها ... وعندما اكتظت «الباخرة» بركابها ، وبدأت رحلة العودة إلى القرية ، لم يكن أحد يأبه بالوقت الذى ضاع سوى ربان الناقلة ١١

وكان «هاك» يقوم بالمراقبة المعتادة ، عندما سطعت أضواء «الباخرة» ، وهى تمر بالميناء ، ولكنه لم يسمع صوتاً صادراً منها ، إذ كان الصغار صامتين هادئين بعد نزهتهم المضنية ... وعجب «هاك» لأمر هذه «الباخرة» ، وتساهل عن السر فى عدم وقوفها بالميناء — ثم لم يلبث أن انصرف عن التفكير فيها إلى التفكير فى المهمة المنوطة به . . . كان الليل مظلماً والسماء ملبدة بالغيوم . وحينما بلغت الساعة العاشرة ، وتلاشت ضوضاء المركبات ، بدأت الأضواء الباهتة تختفى من نوافذ منازل القرية واحداً إثر الآخر ، وأقفرت الطرقات من الناس . ثم تأهبت القرية للاستسلام للنوم ، تاركة المراقب الصغير وحيداً مع الصمت والأشباح . ثم دقت الساعة الحادية عشرة ، وأطفئت أنوار الفندق ، وساد الظلام فى كل مكان . . . وترىث «هاك» فترة خيل إليه أنها دهر طويل ، ولكن شيئاً لم يحدث ، فتزعزعت

ثقته وتساءل : هل هناك أية فائدة ترجى من الانتظار ؟ هل هناك فائدة ،
حقاً ؟ لماذا لا أتخلى عن هذا العمل ؟ . . ما أشد حاجتى إلى النوم !

وتناهت ضوضاء إلى أذنيه . . . وفى التودب النشاط فى بدنه . . .
وأغلق باب الفندق الخلفى بهدوء فى تلك اللحظة ، فوثب الغلام إلى أحد
الأركان . وفى اللحظة التالية ، مر به رجلان . كان أحدهما يحمل شيئاً تحت
إبطه .. لا شك أنه الصندوق ! إذن فقد قررا نقل الكنز . . ألم يحن
الوقت لاستدعاء « توم » ؟ ولكن ذلك قد يكون فكرة سخيفة - فقد
يهرب الرجلان بالصندوق ، ويستحيل العثور عليهما مرة أخرى . . . لا . . .
يجب عليه أن يتبعهما إلى حيث يذهبان ، متخذاً من الظلام ستاراً يحميه من
افتضاح أمره . . . بهذا حدث الغلام نفسه . ثم يلبث أن برز من مكانه مقتفياً
أثر الرجلين فى خفة الهرة ، بقدميه العاريتين ، ولكنه حرص على أن يجعلهما
يسبقاه بمسافة طويلة ، مثلما حرص على ألا يغيبا عن ناظره !

وقطع الرجلان شوطاً كبيراً فى شارع النهر ، ثم انعطفاً إلى اليسار فى
شارع جانبي ، وانطلقا فيه ، حتى وصلا إلى الممر المؤدى إلى « كارديف هيل » ،
فسلكاه ، ومرا بمنزل السكرل الأسكتلندى الذى يقع عند منتصف التل ،
واستمررا فى الصعود . . فسر « هاك » ، واعتقد أن الرجلان يعتزمان دفن
الكنز فى مكان ما عند المرسى ، ولكنهما لم يتوقفا عن السير ، وظلا يصعدان
التل حتى بلغا قمته ، واندفعا بداخل الممر الضيق المختفى بين الحشائش .
الطويلة ، ولم يلبثا أن اختفيا فى الظلام . فأسر « هاك » ، خطاه ليختزل
المسافة التى تفصله عنهما ، وهو واثق من أن الحشائش سوف تحجبه عن
عيونهما . ومضى فى سيره لحظة ، ثم أبطأ خطاه . ومالبت أن توقف تماماً
وأصاخ السمح ، ولكنه لم يسمع غير دقات قلبه . . ومزق السكون
صوت بومة ملأ الفضاء ، فانتفض الغلام ثم ساد الصمت تماماً ، فعجب .
« هاك » ، للأمر ، وتساءل : هل ضاع كل شيء ؟ وهم بالاندفاع إلى الأمام .
حينما سعل رجل لا تزيد المسافة بينه وبين الغلام على أربعة أقدام . وخيل .

لهالك أن قلبه يوشك أن يكف عن الحركة، ولكنه تجاد و صبر ، ولزم مكانه وهو ينتفض بشدة ، حتى كاد يسقط على الأرض من فرط الخوف .. ولم يلبث أن تبين موضعه بالضبط . كان على مبعده خمس خطوات من الممر المؤدى إلى حديقة قصر الأرملة « دوجلاس » . فقال يناجى نفسه : فليدفنا الكنز هنا إن شاء ، فإن يكون من الصعب العثور عليه !

وفي تلك اللحظة سمع « هاك » رجلا يتكلم .. كان الصوت صوت « انجان جو »

— لعنة الله عليها .. لاشك أن عندها زواراً ، وإلا لما أضيئت الأنوار في هذه الساعة المتأخرة من الليل !

فقال زميله : ولكنى لا أرى الأنوار !

كان هذا صوت الرجل الغريب — الغريب الذى رآه فى المنزل المهجور .. وأحس « هاك » ببرودة تسرى فى أوصاله - إذن فقد كان هذا هو « الثأر » وخطر له أن يبادر بالفرار ، ولكنه لم يلبث أن تذكر كيف أن الأرملة « دوجلاس » طالما عظفت عليه ، كما تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أن يكون هذان الشريران قد اعتزما قتل السيدة المسكينة .. وتمنى لو استطاع أن يحدّرها ، ولكنه كان يعلم أنه لا يجروء على ذلك — فقد يظفر به الشريران ويفتكان به .. طافت هذه الخواطر وغيرها بذهنه فى سرعة البرق الخاطف .

وفي اللحظة التالية سمع « انجان جو » يقول :

— إنك لا ترى الأنوار ، لأن الأعشاب تعترض طريقك — تحرك

قليلاً .. نعم .. هكذا .. هل ترى ؟

— نعم ... أعتقد أن عندها زواراً .. من الخير أن نتخلي عن هذه

المحاولة الليلية !

— أتخلي عنها وأنا على وشك مغادرة البلاد نهائياً ! أتخلي عنها وقد لا

تتاح لى أية فرصة أخرى ؟ ! .. أعود فأقول لك ، كما سبق أن قلت من

قبل ، لأننى لا آبه بثروة السيدة - ففى وسعك أن تحصل عليها . . ولكن زوجها أساء إلىّ مرات كثيرة - فقد كان قاضى المحكمة فى يوم من الأيام وحكم علىّ بالتشرد . . ولم يكن ذلك كل شىء ، بل إنه ليس سوى قطرة واحدة من محيط العذاب الذى ألحقه بى - لقد حكم بجلدى ا جلدى أمام السجن مثلما يُجلدُ الزوج ا - والمدينة كلها تتفرج على جلدى .

هل فهمت ؟ لقد عذبنى عذاباً ألماً ، ثم مات . . ولكنى سأثار لنفسى منها .

- أوه ا لا تقتلها لا . . لا تفعل ذلك

- أقتلها ؟ من قال إننى سأقتلها ؟ لاشك فى أننى كنت أقتله لو أنه كان لا يزال على قيد الحياة ، أما هى فلن أقتلها . . فعندما تريد الانتقام من امرأة لا تقتلها أفقاً عينيها ، أو شق أنفها ، أو اقطع أذنيها كالبقرة ا

- يا إلهى ا هذا ...

احتفظ برأيك لنفسك ، فإن ذلك أدهى لتحقيق السلامة لك . . سوف أشدها إلى الفراش وأفقاً عينيها وأقطع أذنيها ا لينزف دمها حتى الموت . . ثم إنك سوف تساعدنى فى تحقيق انتقامى يا صديق - لأجل خاطرى - فهذا هو سبب وجودك معى الآن - فتمدلا أستطيع الانتقام منها بمفردى . . أما إذا تراجعت أو تراخيت فسأقتلك . . هل فهمت ؟ وإذا قتلتك فسأقتلها وعندئذ لن يعرف أحد من الذى قتلها كما ا

- مادام الأمر كذلك . . . فميا نرتكب الجريمة ا

فكلما أسرعنا ، كان ذلك أفضل - إننى أنتفض كريشة فى مهب الريح ا

- نرتكب الجريمة الآن ، والمنزل غاص بالناس ؟ اصغ إلىّ - لقد

بدأت أرتاب فى أمرك - لا ، بل يجب أن ننتظر ريشاً تطفأ الأنوار - فليس هناك ما يدعو للعجلة .

وأيقن « هاك ، أن الصمت يبعقب هذا الحديث - وهو أمر يثير الخوف أكثر مما يثيره أى حديث عن القتل . ومن ثم فقد حبس أنفاسه وبدأ يتراجع إلى الوراء خطوة فخطوة ، وهو يحرص أشد الحرص على أن يستوثق من موضع قدمه قبل أن يحركها ، وفي إحدى الخطوات وطئت قدمه عوداً من الحشائش فتحطم مُخدّثاً صوتاً ! فكاد قلب الغلام يكف عن أداء وظيفته ، وأصاح السمع ولكن السكون ظل مطبقاً . . . واستأنف التقمقر حتى وثق من أنه أصبح بعيداً عن الرجلين بُعداً كافياً ، وعندئذ استدار على عقبه ، وأطلق الريح لساقيه ، منحدرأ من فوق التل إلى أن بلغ منزل الكهل الأستلندي ؟ فراح يطرق الباب بعنف شديد ، وبعد لحظات كان رأس الكهل ورأسا ولديه العملاقين تبرز من النوافذ .

— مَنْ الذى يحدثُ هذه الجلبة ؟ مَنْ الطارق ؟ وَمَنْ تريد ؟

— أفتحوا لى - سريعاً ! سأقول لكم كل شىء !

— مَنْ أنت ؟

— « هاكبرى فين » ، - أسرعوا - دعونى أدخل !

— « هاكبرى فين » ، . . . لأنه اسم لا يُفتح له أبواب كثيرة فيما أعتقد !

لكن أدخل يا ولدى . . . وقل كل ما تريد أن تقوله !

وما أن دخل « هاك » المنزل حتى صرخ قائلاً :

— أناشدكم ألا تقولوا إطلاقاً إننى أفضيت إليكم بهذه المعلومات -

أرجوكم .. وإلا فسألقى حتفى ... لقد كانت الأرملة تعطف علىّ فى بعض

الاحايين ، وأنا أريد أن أتكلم - بل سأتكلم إذا وعدتمونى بألا

تذكروا اسمى .

فصاح الكهل : يا إلهى ! إن لدى الغلام نبأ هاماً يريد الإفشاء به وإلا

لمسلك هذا المسلك الغريب ! تكلم يا فتى . وثق أن أحداً من الحاضرين

الن يذكر اسمك .

وبعد ثلاث دقائق، غادر الكهل وولداه المنزل وهم مسلحون، وانطلقوا صاعدين نحو التل . ثم لم يلبثوا أن غابوا وسط الحشائش وهم يسرون فوق أصابع أقدامهم ، وقد حملوا أسلحتهم في أيديهم . ورفض هاك ، أن يتقدم إلى أبعد من ذلك ، واختفى في دغل قريب ، أصاخ السمع .. وساد صمت مقبض ، وفجأة دوى صوت طلقات نارية أعقبها صرخة مدوية

ولم يتريث هاك ، أكثر من ذلك .. وإنما وثب مبتعدا وانطلق يهبط التل ، ثم لم يلبث أن اختفى عن الأنظار ا

الفصل الثلاثون

« توم » و « بيكي » في الكهف

عندما بدأت الخيوط الأولى لفجر يوم الاثنين تمتد في الأفق ، أخذ « هاك » يتسلق التل بحذر شديد إلى أن بلغ منزل الكهل الأيسر سكتلندي ، فطرق بابه باطف . . ومع أن جميع من بالدار كانوا نياماً ، إلا أنهم كانوا أشبه بالمستيقظين بعد الحوادث المثيرة التي وقعت في الليل .
وسأل الكهل وهو يطل برأسه من النافذة من هناك ؟
فأجاب « هاك » بصوت منخفض يكاد يشبه الهمس :

— اسمح لي بالدخول أنا ، هاك فين ، ا

— مرحباً بك ! أستطيع أن أفتح لك هذا الباب آنا الليل وأطراف
النهار يا غلام ا

كان وقع هذه الكلمات غريباً على أذني الغلام الضال ، ولكنها كانت أجمل كلمات سمعها . ولم يستطع أن يتذكر أن أحداً قال له : « مرحباً ، في يوم من الأيام .. وُفِتح الباب سريعاً ، فدخل .. وقدم الكهل مقعداً لهاك بينما انصرف الرجل وولده إلى ارتداء ثيابهم على عجل .

قال الكهل : أرجو أن تكون بخير ، وأن تكون جائعاً أيضاً ، لأن طعام الإفطار سيكون مُعدّاً بمجرد شروق الشمس .. وسيكون طعاماً ساخناً — فاطمئن بالآ من هذه الناحية لقد تمنيت ووالداي أن تأتي لتنام هنا ليلة أمس ا

فقال « هاك » : أصدقك القول إنني كنت مذعوراً أشد الذعر فهربت عندما انطلقت أصوات المسدسات ، ولم أتوقف عن الركض إلا بعد

أن قطعتُ ثلاثة أميال . . لقد جئتُ لأسأل عما حدث . وجئتُ قبل
طلوع النهار لأننى لا أريد أن ألتقى بهذين الشيطانين حتى ولو كانا قد لقيا
حتفهما !

— مسكين أنت أيها الشاب . . إن منظرِكَ يوحي بأنك قضيت ليلة
شاقة — لكن اطمئن ، فستجد هنا فراشا تنام فوقه عندما تنتهى من تناول
الطعام . . كلا . . إنهما لم يموتا يا بنى — إننا آسفون أشد الأسف لذلك . .
لقد عرفنا — من الوصف الذى ذكرته لنا — أين يمكننا أن نظفر بهما ،
ومن ثم فقد ظللنا نتقدم نحوهما بكل حذر حتى أصبحت المسافة التى تفصلنا
عنهما خمسة عشر قدماً — وعندئذ أحسست بأننى أوشك على (العطس) . .
لقد كان ذلك أسوأ حظ صادفنى فى حياتى ! حاولت أن أتغلب على (العطس)
ولكن بلا جدوى كان لا بد من أن أعطس ! وكنت أسير فى المقدمة
ومسدسى يدي، وعندما عطست بادر الشريران بالفرار ، وعندئذ صحت بولدى
، أطلقا النار عليهما ، وفى التو أطلقنا جميعاً النار ، ولكن الشريرين استطاعا
الإفلات وسط الحشائش ، فمضينا نطاردهما حتى دخلا الغابة واعتقد أنهما
لم يصابا بأذى . وعندما دخلا فى قلب الغابة ، أطلقا النار علينا ولكن
رصاصهم طاش ولم يصبنا بأى أذى . وعندما فقدنا كل أثر لهما ، تخلينا
عن المطاردة ، وذهبنا إلى المدينة ، حيث استدعينا رجال البوليس . فذهبت
قوة منهم لحراسة شاطئ النهر ، وعندما ينبلج الصباح ، سيتولى العمدة
ورجاله تفتيش الغابة ، وسينضم ولداى إليهم بعد قليل . . ليتنا نعرف
حقيقة أمر هذين الجرمين — فإن ذلك خليق بأن يساعدنا على القبض
عليهما . بالطبع لم تستطع أنت أن ترى ملاحهما فى الظلام !

— أوه ؟ لقد رأيتهما فى المدينة وتبعتهما

— هذا مدهش ! صفهما إذن — صفهما يا بنى !

— أحدهما الكهل الأسباني الأصم الأبكم الذى تجول فى المدينة مرة

(م ١٦ — نوم سوير)

أو اثنتين ، أما الآخر ، فرجل كرية المنظر مهلهل الثياب .

— كفى يا قتي . . لقد عرفناهما ! فقد رأيناها ذات يوم في الغابة على مقربة من منزل الأرملة . . هلم يا ولديّ إلى العمدة وأبلغاه الأمر — أما طعام إفطار كما فتنا ولاه صباح غد !

وتهياً ولدا الكهل للانصراف على الفور . . وعندما كانا يغادران الغرفة وثب « هاك » واقفاً وصاح :

— أوه ! أرجوكما ألا تقولوا لأي شخص أنني ذكرت لكما أو صاف الرجلين ! أرجوكما !

— ليكن لك ما تريد « يا هاك » ، رغم إنه من الواجب أن تنال جزاء العمل الرائع الذي أدبته

— أوه اكلا .. كلا .. أرجوكما . . لا نقولا شيئاً !

وعندما انصرف الشابان ، قال الكهل :

لأنهما لن يذكر اسمك ، كما إنني لن أذكره أيضاً . . لكن لماذا تريد أن يظل اسمك مجهولاً ؟

ورفض « هاك » ، أن يقول شيئاً أكثر من أنه كان يعرف الشيء الكثير عن أحد الرجلين ، وأنه لا يرغب في أن يعرف ذلك الرجل أنه اشترك في مطاردته ، مهما كان الثمن -- لأنه من المحقق أنه سوف يقتل إذا افترض أمره .

ومرة أخرى ، وعد الكهل الغلام بالتزام السرية التامة ، وقال :

— كيف اتفق أن اقتفيت أثر هذين الرجلين يا بني ؟ هل كان منظرهما يثير الريبة !

وصمت « هاك » قليلاً ريثما يعد الإجابة في حذر ، ثم قال :

— حسناً . . الواقع أن الناس جميعاً يزدروننى، ويعتقدون أننى غلام
ضال لا أصلح لشيء، ولست أكتفك أن ذلك يسبب لى ألماً شديداً،
ويجعلنى لا أذوق للنوم طعماً، إذ أننى كثيراً ما أطيل التفكير فيما ينبغى
على أن أفعله لأسترد تقدير الناس لى . . هكذا كان شأنى ليلة أمس . .
لم أستطع النوم، فخرجت لى الشارع عند منتصف الليل تقريباً لأفكر فى
أمر نفسى . وعندما وصلت لى المخزن العميق المجاور لفندق « تمبرنس »،
استندت لى الجدار لأفكر فى مصرى . . وفى تلك اللحظة . أقبل هذان
الرجلان، أحدهما يحمل شيئاً تحت إبطه، فظننت أنه يحمل شيئاً مسروقاً .
وكان الرجل الثانى يريد أن يشعل لفاقة تبغ، فتوقفنا أمامى مباشرة . وعندما
أشعلنا عود الثقاب، استطعت أن أرى وجهيهما، فعرفت فى أضخمهما،
الأسباني الأصم الأبكم، وقد عصب إحدى عينيه، أما الآخر فكان ذلك
الشیطان كريبه المنظر، مهلهل الثياب .

— وهل استطعت أن ترى الثياب المهلهلة على ضوء عود الثقاب ؟ وارتبك
« هاك ، لحظة ثم قال :

— لست أدرى — ولكن يبدو أننى استطعت ذلك .

— ثم استمر الرجلان فى سيرهما . . . و . . .

— وتبعتهما . . . نعم . . . هذا ما حدث . . . كنت أريد أن أعرف
حقيقة أمرهما، ورأيتهما يتلفتان حولهما بحذر، فزادت ريبتى فيهما . ولم
ألبث أن سمعتهما يتحدثنان فى الظلام، وأقسم الأسباني أن يفقأ عينيهما
بجئت . . .

— ماذا تقول ! . هل قال الرجل الأبكم الأصم كل هذا !

وأيقن « هاك » أنه ترك لسانه يزل مرة أخرى اكان يحاول جهد طاقته
ألا يجعل الكهل يعرف شيئاً عن شخصية الأسباني، ولكن يبدو أن لسانه
كان مصمماً على إثارة المتاعبله، رغم كل الجهود التى بذلها . . . وبدأ الغلام

يحاول إصلاح خطاه ، ولكن عيني الكهل كانتا تراقبانه عن كثب ، ومن ثم
كثرت زلات لسان هاك ، ... وأخيراً قال الكهل :

— لا تخف مني يا بني ، فإنني ان أسىء إلى شعرة واحدة من شعر
رأسك ولو منحتُ العالم كله .. ان أخذلك .. سوف أحملك — سأحميك
إن هذا الأسبابى ليس أصم ولا أبكم .. لقد زل لسانك رغماً عنك .. إنك
تعرف شيئاً عن هذا الأسبابى ولكنك تريد كتمانها — لكن ثق بي يا بني —
وأفض إلى بذات نفسك — وتأكد أنتى ان أخونك .

وتطلع هاك ، إلى عيني الرجل الأميذتين لحظة ، ثم مال إلى الأمام
وهمس في أذنه :

— إنه ليس أسبابيا ... إنه د إنجان جو ، ا

وكاد الكهل يثب من فوق مقعده ... وسرعان ما قال :

— لقد وضح كل شيء الآن ... عندما سمعتك تتكلم عن فقأ العيون ،
وجدع الأنف ، حسبت هذا القول من بنات أفكارك ، لأن الرجال البيض
لا يثأرون على هذا المنوال ... ولكن د جو ، ليس من الجنس الأبيض ..
وهذا يخلع على الموقف طابعاً آخر .

واستمر الكهل والغلام يتحدثان أثناء تناوولهما الطعام . وقال الكهل
في مجرى الحديث إنه وولديه لم يأويا إلى فراشهم إلا بعد أن أحضروا
مصباحاً من المنز ، وخصوا المنطقة على ضوءه ، بحشاً عن بقع من الدم ،
ولكنهم لم يعثروا على شيء منها ، بيد أنهم عثروا على حزمة من ...

— من ماذا ؟

انطلقت هاتان الكلمتان من بين شفقي هاك ، كالقنبلة ، بينما اتسعت ،
حدقتا عينيه ، وبدأ عليه الاهتمام الشديد ، وهو يترقب رد الكهل على
سؤاله وحدث الكهل بدوره في وجه الغلام مهوتاً ، ومضت ثلاث

ثوان ، فخمس ، فعشر ... وأخيراً أجاب الكهل :

— من أدوات اللصوص ... لكن ماذا دهاك يا قتي ؟

وغاص دهاك ، في مقعده وهو يلهث بهدوء ، ولكن بعمق ، وقد بدأ عليه الارتياح الشديد ... فتأمل الكهل بنظرة جدية — وباهتمام ، ولم يلبث أن قال :

— نعم . أدوات مما يستعملها اللصوص .. يبدو أن ذلك بث الراحة في نفسك ... لكن لماذا كانت هذه الدهشة البالغة ! وما الذي كنت تتوقع أن نعثر عليه !

وأيقن دهاك ، أن أمره سيفتضح حتما ، فقد كان الكهل يراقبه بعينين كعيني الصقر — كان مستعداً أن يدفع أى ثمن مقابل الحصول على إجابة ترضى الكهل وتبعد الريبة عنه — ولكنه لم يستطع العثور على مثل هذه الإجابة وظلت العينان الغامضتان تحدقان فيه . وفي تلك اللحظة خطرت له إجابة غير معقولة ، ولكن الوقت لم يتسع لوزنها ، ومن ثم فقد قال بإعياء :

— ربما كانت اللقافة تحوى بعض كتب مدارس الأحاد !

ولم يستطع دهاك ، المسكين أن يبتسم ، ولكن الكهل انفجر ضاحكاً بقوة ومرح ، حتى لقد أخذ جسمه يهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وختم ضحكه قائلاً إن هذا الضحك المرح لا يقل فائدة عن النقود التي يحتفظ بها الإنسان في جيبه ، لأنها تخفض من نفقات الأطباء والدواء !! ... ثم أضاف :

... يالك من شاب مسكين . إن وجهك مصفر جداً .. لا شك أنك لست على ما يرام — فلا عجب إذن في أنك مضطرب غير متزن ، ولكمك سوف تتغلب على هذه الأزمة ... إن الراحة والنوم سوف يجعلانك تسترد قواك .. أرجو ذلك .

ولعن « هاك » نفسه ، لأنه أبدي مثل هذا الضعف والانفعال اللذين
أثارا ريبة الرجل ، يسرعان ما أيقن أنه كان ينبغي عليه أن يتخلى عن
الاعتقاد بأن « الحزمة » التي أحضرها الشربران من الفندق كانت تحتوى
على الكنز ، وبخاصة بعد أن سمع « جو » يهدد بالتأر من الأرملة الصحيح ،
إن هذا الخاطر جال برأسه - ولكنه لم يكن واثقاً منه ، ومن ثم فإنه لم
يستطع أن يتمالك نفسه من الانفعال ، حينما سمع بعثور الكهل وولديه على
« الحزمة » ومع ذلك فقد شعر بفرح شديد حينما انتهت الأزمة ، فقد أصبح
واثقاً من أن هذه « الحزمة » لم تكن « الحزمة » التي يعرفها ، فاستراح ضميره
... بل إنه بدأ يعتقد أن الأمور تجري حسبما يريد أن تجري ، وأن
الكنز لا بد أن يكون موجوداً في رقم ٢ ، ومن ثم فإنه ما أن يُقبَض على
المجرمين ويُزج بهما في السجن ، حتى يمضى هو و « توم » للاستقلاء على
الكنز في الليلة التالية بغير أى عناء أو خوف من المتاعب !!

وما كاد الكهل « وهاك » يفرغان من تناول طعام الإفطار ، حتى سمع
طرقاً على الباب ، فوثب « هاك » وراح يبحث عن مكان يختبئ فيه إذ كان
مُصتراً على ألا تكون له بالحادث أية علاقة مهما كانت بعيدة . وفتح الكهل
الباب ، فدخلت جماعة من السيدات والرجال ، من بينهم الأرملة « دو جلاس »
ولاحظ الكهل أن جماعات من الموظفين كانت ترتقى التل في تلك اللحظة
لمشاهدة (ميدان المعركة) فأيقن أن النبأ ذاع وانتشر في كل مكان .

واضطر الكهل إلى سرد قصة ما دار أثناء الليل على زأريه . وكان شكر
الأرملة على إنقاذها عميقاً بالغاً .

قال الكهل : لا تشكرينى يا سيدتى ، فإنك مدينه بنجاحك إلى شخص
آخر ، أكثر مما أنت مدينه بهالى ولولدى . ولكن هذا الشخص يرفض أن
يسمح لنا بذكر اسمه .. فلولاه لما استطعنا منع وقوع الجريمة .
ولقد أثار هذا القول رغبة الزارين في معرفة شخصية هذا المنقذ ،

ولكن الكهل رفض أن يبوح باسمه ، أو حتى يلمح إلى شخصيته ، خشية أن يذاع السر في طول المدينة وعرضها ...

ولما ألمّ الزائرون بجميع التفاصيل ، قالت الأرملة :

- لقد صعدت إلى فراشي ، وقرأت قليلا ، ثم لم ألبث أن استسلمت للنعاس ، رغم الضجة الشديدة التي كانت تنبعث من الخارج . فلماذا لم تحاولوا إيقاظي ؟

- قدّرنا أن الموقف لا يستلزم ذلك ، إذ كان من غير المحتمل أن يعاود الشريران الكرة ، إذ لم تبق في حوزتهم أية أدوات يستخدمونها في التسلل إلى القصر .. ثم ماذا كنا سنفيد من إيقاظك وإشاعة الرعب في قلبك ؟ لقد ظل رجالى الزوج الثلاثة يحرسون منزلك طوال الليل ، ولم يعودوا إلا منذ لحظات .

وأقبل مزيد من الزائرين ، وكان على الكهل أن يعيد سرد القصة المرة بعد الأخرى خلال ساعتين متعاقبتين .

* * *

لم تكن مدرسة الأحد تفتح أبوابها خلال عطلة المدرسة السنوية ، ومع ذلك ، فقد بكر جميع سكان القرية في الذهاب إلى الكنيسة ، بعد أن ذاع نبأ الحادث المثير ، وانتشر انتشار النار في الهشيم . ووصلت أنباء تقول إن أحداً لم يستطع أن يقع على أي أثر للمجرمين حتى تلك اللحظة . . وعندما انتهت الصلاة ، انضمت زوجة القاضي « تاتشر » إلى « مسز هاربر » وهي تسير مع الجمهور في الطريق المفضى إلى الباب ، وقالت لها :

هل ستقضى ابنتي « بيكي » اليوم كله عندكم نائمة ؟ الواقع أننى أعتقد أنها شديدة التعب .

- ابنتك « بيكي » ؟

فبدأ الفزع على وجه زوجة القاضي وأجابت : نعم ... ألم تقض «بيكى»
الليلة الماضية في منزلك ؟ .

— كلا ، بالطبع .

وامتقع وجه «مسز تاتشر» وتهاككت فوق أحد المقاعد ... وفي تلك
اللحظة ، كانت العمدة «بولى» تتحدث مع إحدى صديقاتها . فلما مرت
بزوجة القاضي و«مسز هاربر» قالت :

— طاب صباحك يا مسز «تاتشر» ... طاب صباحك يا مسز
«هاربر» ... لقد اختفى الولد مرة أخرى . وأكبر الظن أنه قضى ليلته في
منزل إحداكما ، ولكنه خشى أن يجرى إلى الكنيسة ... سوف أحاسبه على
ذلك ... هل قضى «توم» الليلة عندك يا مسز «تاتشر» ؟

وهزت مسز «تاتشر» رأسها سلباً بإعياء ، وازداد امتقاع وجهها .
وبدا القلق على وجه «مسز هاربر» ، وقالت : إنه لم يقض الليل
بمنزلنا .

وارتسمت علامات الفزع المشوب بالقلق على وجه العمدة «بولى»
وغمغمت .

— هل رأيت «توم» هذا الصباح يا «جو هاربر» ؟

— لا يا سيدتى .

— متى رأيته آخر مرة ؟

وحاول «جو» أن يتذكر ، ولكنه لم يكن واثقاً مما يريد أن يقوله ..
وتوقف المصلون عن الخروج من الكنيسة ... وسرى بينهم الهمس ،
وارتسمت علامات القلق على جميع الوجوه ... وبدأت عملية استجواب
طويلة للأطفال وصغار المدرسين الذين كانوا يرافقون الطفلين المفقودين ،
ولكنهم أجمعوا على أنهم لم يلاحظوا ما إذا كانت «بيكى» و«توم» قد ركبا

«الباخرة» ، في رحلة العودة أم لا ، لأن الظلام كان دامسا ولهذا فإن أحدا لم يحاول أن يعرف ما إذا كان أحد الرفاق قد تخلف عن اللحاق بالباخرة ، وأخيرا أعرب أحد الشبان عن خوفه من أن يكون الصغيران لا يزالان في الكهف ، وفي التوسقط مسر « تاتشر » مغشياً عليها . أما العمدة « بولى » ، فقد انفجرت باكياً وراحت تضرب كيفا بكف !

وانتقل النبأ المفرع من منزل إلى منزل ومن جماعة إلى أخرى ، ومن شارع إلى شارع . ولم تكذب تنقضى خمس دقائق ، حتى بدأت الأجراس تدق بعنف ، فاستيقظ جميع من في القرية ونسى الجميع حوادث الليل المثيرة ، وأعدت الجياد ، والقوارب ، و «الباخرة» . وقبل أن تنقضى نصف ساعة على ذبوع النبأ ، كان مائتا رجل يتدفقون في الطرقات في طريقهم إلى النهر ليذهبوا إلى الكهف

وبدت القرية شبه مهجورة تماماً طوال النهار . . . وزارت نساء كثيرات العمدة « بولى » ، ومسز « تاتشر » ، ومحاولات أن يهدن روعها . ولكنهن اشتركن معهما في البكاء أيضاً ، ولا شك في أن ذلك كان أفضل من الكلام . ومضى الليل الممل كله ، والمدينة ساهرة تترقب الأنباء ، ولكن ما كاد الفجر يطلع أخيراً ، حتى كانت الكلمة التي وصلت إلى المدينة هي : « أرسلوا مزيداً من الشموع - وأرسلوا طعاماً ، . . . وكانت مسز « تاتشر » قد أو شكت على الجنون في تلك الأثناء ، وكذلك كان شأن العمدة « بولى » . . . وكان القاضي « تاتشر » يبعث برسائل من الكهف عامرة بالأمل والتشجيع ولكنهم لم تكن تنطوى على شعور حقيقى بالأمل !

وعاد الكهل الأيسكتلندى إلى منزله عند طلوع النهار ، وقد تلمخ وجهه ووثابه بشحم الشموع والطمى الجاف ، وهو يكاد ينهار من فرط الأعياء . ووجد « هاك » ملازماً الفراش الذى أعد له ، وهو يهدى من الحمى . . . وإذا كان جميع أطباء القرية موجودين في الكهف في ذلك الحين ، فقد جاءت

الأرملة ، دو جلاس ، وتولت العناية بأمر الغلام المحموم ، وقالت إنها سنبذل قصارى جهدها من أجله ، سواء أكان غلاما شريرا أم طيبا ، لأنه مخلوق من مخلوقات الله ، وعلى الإنسان ألا يهمل أى مخلوق من مخلوقات الله . فقال الكهل إن للغلام محاسنه ، وعندئذ قالت الأرملة :

يمكنك أن تتأكد من أن له محاسنه كأى إنسان ، فإن الله لا يخلق إنسانا بلا محاسن ...

وفى ساعة مبكرة من بعد الظهر ، بدأت جماعات من الرجال منهوكى القوى تتدفق على المدينة ، بينما استمر أقوى الرجال بنيتة فى منازلهم . ولكن كل ما أمكن الحصول عليه من معلومات ، لم يزد على أن الباحثين تجاوزوا المناطق المعروفة فى الكهف ، وبحثوا فى المناطق المجهولة ، وأن كل ركن فيه يُفتش بعناية ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يؤكد ما إذا كان فى الإمكان ارتياد هذه الشبكة المعقدة ، من الدهاليز والممرات ، لاستحالة حصرها أو التفرقة بين بدايتها ونهايتها . إذ كثيراً ما كان الباحثون يرون ضوءاً ينبعث من بعيد ، كما يسمعون صياحاً أو طلقات مسدس ، ما أن يبلغوا مصدرها حتى يجدوا زملاء لهم . ولكنهم رأوا الاسمى « بيكى وتوم » مسجلين بدخان الشمع فوق جدار الكهف فى مواضع مختلفة . كما عثروا بجوار الإسمين فى أحد الدهاليز على قصاصة شريط مغطاة بطبقة من الدهن . وعرفت مسز « تاتشر » قطعة الشريط على الفور ، فأخذتها ، وانخرطت فى البكاء . . . قالت إنها آخر أثر سوف تعثر عليه لطفلها ، وأنها ستكون أعز ذكرى لديها ، لأنها كانت آخر شئ لمس الجسم الحى قبل أن يختطفه الموت .

ومرت الأيام والليالى البغيضة متعاقلة ، وبدأ اليأس يستولى على قلوب سكان القرية . . . ومع أن نبأ اكتشاف مخزن للخمر الممنوعة عند صاحب فندق تمبرنس ، ذاع فى ذلك الوقت ، فإنه لم يلق بالآ من الجمهور رغم أنه

نبأ مشير جداً . . . وفي لحظة من لحظات اليقظة ، أدار « هاك » دفة الحديث إلى الفنادق ، ثم سأل في النهاية - وهو يتوقع سماع أسوأ الأنباء - عما إذا كان ثمة شيء قد اكتشف في فندق « تمبرنس » أثناء مرضه .

قالت الأرملة : نعم .

فأجفل « هاك » ، وبدأت اللفظة مجسمة في عينيه وسأل :

- ماذا ؟ ما الذي عثروا عليه ؟

- نمر ! لقد أغلق الفندق . . . ماذا دهاك - لقد أفرغتني !

- فقط أخبريني . . . أخبريني عن شيء واحد ، أرجوك . هل كان « توم سوير » هو الذي اكتشف الأمر ؟ وانفجرت الأرملة باكياً . . . وهمست : صه أيها الغلام ! قلت لك من قبل إنه يجب عليك ألا تتكلم . . . فإنك مريض جداً . . . جداً ! .

إذن ، معنى ذلك أنهم لم يعثروا على شيء غير الخمر . . . لا شك أن موجه من الدهشة كانت سوف تطغى على القرية ، لو أنهم عثروا على ذهب في « الفندق » . . . ومعنى ذلك أن الذهب ضاع إلى الأبد - ضاع إلى الأبد ! لكن لماذا تبكي السيدة ؟ من العجيب حقاً أن تبكي .

جالت هذه الأفكار بذهن « هاك » المتعب ، ولكنه لم يلبث أن أحس بالنعاس ، فاستسلم للنوم .

وقالت الأرملة لنفسها :

- ها قيد نام ذلك الحطام التعس . . . « توم سوير » عثر عليها ! من المؤلم أن أحداً لم يستطع أن يعثر على « توم سوير » نفسه ! يا إلهي ! لم يعد هناك رجال يتمتعون بقوة كافية أو أمل كاف يدفعهم إلى المضي في البحث .

الفصل الخامس والثلاثون

وجدنا . . . ثم فقدنا ثانية !

والآن ، يجدر بنا أن نذكر ما حدث لنوم وبيكي . . . لقد سارا مع الجماعة خلال ممرات الكهف ، وزارا الأماكن المألوفة فيه . ولاحظ أن أماكن كثيرة في الكهف كانت تحمل كلمات كتبها مجبولون مثل « غرفة الجلوس ، و « المكتدرائية ، و « قصر علاء الدين ، وما شابه ذلك وسرعان ما بدأ الجميع يلعبون (الاستغماية) فاشترك « نوم ، و « بيكي ، في اللعب بحماس شديد ، إلى أن بدأ التعب يدب في أوصالهما . وبعدئذ أخذنا يضربان على غير هدى في دهليز متعرج ، وهما يرفدان شمعتيهما فوق رأسيهما ليتمكننا من قراءة المجموعة الكبيرة من الأسماء والتواريخ والوظائف والشعارات التي سجلها من رأوا الكهف فوق الجدران الصخرية بالدخان المنبعث من لهب الشموع . . . ومضيا في سيرهما وهما يتحدثان ، بغير أن يفظنا إلى أنهما بلغا في تلك اللحظة منطقة في الكهف لا يوجد لدخان الشمع أثر فيها ، وعندئذ سجل اثنتان اسميهما فوق الجدران أسفل رف معلق ، واستمرا في سيرهما ، وسرعان ما بلغا مكاناً يتدفق فيه مجرى ماء صغير ، وكان هذا المجرى ينحدر من فوق حافة صخرية ، فأنشأ على مر العصور شلالاً صغيراً في قلب الصخور . . . وأدخل « نوم ، جسمه خلال الصخور لإرضاء « بيكي ، وسرعان ما وجد أن هذه الفتحة تؤدي إلى درج طبيعي شديد الانحدار بين جدارين من الصخر . وفي التو ، تغلبت عليه طبيعته الاستكشافية . . . واستجابت « بيكي ، لندائه ، وانضمت إليه بعد أن رسما علامة بالدخان لهدايتهما عند العودة . ثم انطلقا في رحلتهما ، فراحا يتعطفان هنا وهناك ، ويهبطان إلى أسفل في أعماق الكهف السرية ،

م رسماً علامة أخرى ، وانطلقا في فروع الكهف باحثين عن شيء جديد
يستكشفانه ويتفاجران به في المستقبل !! وفي مكان ما ، عثرا على كهف
رحب ، تتدلى عن سقفه مجموعة كبيرة من الصخور المرمرية شديدة اللمعان
كل صخرة منها في حجم ساق الرجل . فراحا يتأملانها باهتمام ، ويدوران
حولها ، وهما يعجبان . ثم لم يلبثا أن غادراه ومضيا في دهليز من الدهاليز
العديدة التي تتصل به . وسرعان ما انتهى بهما هذا الدهليز إلى نبع ماء
ساحر ، كان حوضه منحوتاً في صخر متآلق . وكان هذا النبع في قلب
مغارة حمل سقفها فوق عدد كبير من الأعمدة خلافة المنظر ، تكونت
نتيجة لتجمع بعض الصخور المرمرية ، ولنشوء بعض الصخور الهشة التي
أثرت فيها تساقط قطرات الماء خلال قرون طويلة . وتحت هذا السقف ،
تجمعت أسراب كبيرة من الخفافيش ، يبلغ عددها عدة آلاف . وقد أزعج
ضوء الشمعتين هذه المخلوقات ، فهبطت من مكانها بالمشات وهي ترفرف
بأجنحتها ، وتصرخ صراخاً مفرعاً ، ثم تندفع نحو الشمعتين المضاءتين . وكان
« توم » يعرف طبيعة الخفاش والخطر الذي ينجم عن سلوكه هذا ، فأسرع
بمسك بيكي من ذراعها ، وقادها إلى أقرب دهليز إليهما ، وفي تلك اللحظة
انقض خفاش بالقرب من الفتاة ورفرف بجناحيه ، فأطفأ شمعتها ، ولكن
الطفلين استطاعا دخول الدهليز ، وانطلقا يعدوان بداخله ، حتى كفت
الخفافيش عن مطاردتهما ... و« توم » على بحيرة تحت الأرض ، لم يكن
لهما شمة نهاية ، فأراد أن يستكشف حدودها ، ولكنه رأى أخيراً أنه من
الأفضل أن يستريحاً أولاً بعض الوقت .. ولأول مرة منذ بدأت مغامرتهما
الجريئة ، شعرا بالصمت يثقل على روجيهما !!

قالت « بيكي » : يا إلهي إني لم ألاحظ ذلك من قبل ... يبدو أن وقتاً
طويلاً قد مضى منذ أن سمعت أصوات زملائنا .

— آه ... أعتقد أننا بعيدان جداً عنهم يا « بيكي » — ولست أدري
ما مدى العمق الذي بلغناه ، أو المسافة التي قطعناها ، وهل هي إلى الشمال

أم إلى الجنوب أو الشرق أو الغرب ... إننا لا نستطيع أن نسمع صوتهم
من هنا .

وبدا القلق على وجه « بيكى » ، ... وقالت :

— شد ما أعجب كم مضى علينا من الوقت ، ونحن هنا يا « توم » ، ...
يحسن بنا أن نعود أدراجنا .

— نعم ... أظن أنه يحسن بنا أن نعود .

هــل تستطيع معرفة الطريق يا « توم » ، إن الدهاليز شديدة التعرج
والتداخل ، على ما أعتقد .

— أعتقد أنني أستطيع أن أتبين معالم الطريق . لكن كيف نهرب من
الخفافيش ؟ لو أنها أطفأت شمعتينا ، فسنهلك ... فلنجرب إذن طريقاً آخر
حتى لا نضطر إلى مواجهة الخفافيش مرة أخرى .

— لفعل ما تشاء ، ولكن حذار أن تضل الطريق ... إنه لأمر فظيع !

وارتعدت الفتاة وهي تسير وراء « توم » ،

وسارا في دهليز ، قطعاً فيه شوطاً بعيداً وهما صامتتان : وكانا يتطلعان
إلى كل فتحة جديدة تصادفهما ، ليتأكدا مما إذا كان بها أى شيء مألوف
لهما ، ولكنها كانت جميعاً غريبة عليهما ، وكانت الفتاة ، تتأمل وجه « توم » ،
لعلها ترى في أساريره علامة مشجعة كلما راح يفحص طريقاً جديداً ،
ولكنه كان لا يفتأ يقول بمرح .

— أوه : لا بأس ... إنها ليست هذه الفتحة ، ولكننا لن نلبث أن

ننهتدي إلى الطريق الصحيح !

ولكن الأمل مالبث أن أخذ يضمحل شيئاً فشيئاً ورويداً ورويداً .
وأخيراً بدأ « توم » يضرب في الدهاليز على غير هدى ، يراوده أمل يائس في
العثور على الدهليز المنشود ... وكان يتظاهر بالشجاعة رغم الخوف الذى

بدأ يعصر قلبه . وسرعان ما فقد صوته رنة الأمل التي كانت له ، وخيل كأنه
«لقد انتهى كل شيء ، ، . وتعلقت بيكي ، بذراعه ، وقد استولى عليها خوف
قاتل ، وراحت تغالب دموعها ، ولكن الدموع لم تلبث أن انهمرت من
عينها ... وأخيراً قالت الفتاة :

« أواه يا د توم ، ... لا بأس من مواجهة الخفافيش . فلنعد من
الطريق الذي جئنا منه ، إذ يبدو أن الموقف يسوء من لحظة لأخرى ا

فتوقف د توم ، عن السير . . وقال : هل تسمعين صوتاً ؟

ولكن الصمت كان عميقاً ... وصاح د توم ، ، فترددت صيحته في
الممرات الخالية ، وماتت على البعد ، مثلما يموت صوت الضحك الساخر .
فقالت د بيكي ، . أوه ا لا تفعل ثانية يا د توم ، ، فإن للصوت
صدى مفزعاً ا

« صحيح أنه مفزع ؛ لكن يحسن بي أن أصبح يا د بيكي ، ، فقد
يسمعنا الآخرون .

وانطلق يصيح ... ولكن صياحه كان لا يُجدي إلا صدى مفزعاً ...
وجد الطفلان في مكانهما ، وأصاها السمع ، ولكن بدون جدوى ... وفي
التو ، عاد د توم ، إلى الطريق الذي جاء منه بخطى سريعة . ولكن ما أن
انقضت دقائق ، حتى بدا عايه التردد ، وأفصحت تصرفاته لبيكي عن حقيقة
أخرى مخيفة - ذلك إنه لم يستطع أن يعثر أيضاً على الطريق
الذي جاء منه ا

هتفت الفتاة بجزع : أواه يا د توم ، ... إنك لم تترك أية علامة ا

« لقد كنتُ أحق يا د بيكي ، ا لم يخطر ببالنا أننا قد نضطر إلى
العودة الإنى لا أستطيع العثور على الطريق ، فإن الدهاليز شديدة التشابك .
- « توم ، .. توم ، . لقد هلكتنا . ؟ لقد هلكتنا . ا إننا لا نستطيع

الخروج من هذا المكان المخيف أو اه أو اه . . لماذا لم نبق مع
الآخرين !

وخارت قواها ، قهالكت على الأرض ، وانفجرت تبكي بحماسة
جعلت « توم » يجزع حينما خطر بباله أنها قد تموت أو تفقد عقابها . وجلس
بجوارها ، وأحاطها بذراعيه ، فدفنت وجهها في صدره ، وتعلقت به ،
وراحت تفضي إليه بمخاوفها وأسفها . وكانت أصداه حديثهما أشبه بصدى
ضحك ساخر ! . فراح « توم » يتوسل إليها أن تستجمع أطراف شجاعتهما ،
ولكنها قالت إنها لا تستطيع ذلك . فانطلق يلوم نفسه لأنه هو الذى
زجَّ بها في هذا الموقف الحرج . وكان لذلك أثره الفعال ، إذ ما لبثت
« بيكى » أن قالت إنها ستحاول أن تتمسك بأهداب الأمل مرة أخرى ،
وأن تنهض وتمضى معه إلى حيث يريد ، على شريطة ألا يعود إلى هذا اللون
من الحديث مرة أخرى ، لأنها تستحق نفس القدر من اللوم الذى يستحقه !

واستأنفا السير ، بلا غاية وعلى غير هدى - فكل ما كان فى
استطاعتها أن يفعلاه ، هو أن يتحركا ويستمررا فى الحركة . . . وبعد فترة
قصيرة ، بدأ أملهما ينتعش . ولم يكن هناك ثمة سبب لذلك ، ولكن طبيعة
الأمل نفسه تأبى إلا أن تنتعش . طالما أن نبع الأمل لم ينضب .

وبعد قليل ، أخذ « توم » شمعة « بيكى » وأطفأها . . . وكان لهذا
الاقتصاد معناه الواضح ولم تكن هناك حاجة إلى الإيضاح ، فقد فهمت
« بيكى » الموقف ، فمات أملها مرة أخرى ! . كانت تعلم أن مع « توم »
شمعة كاملة وثلاث أو أربع بقايا شموع فى جيبه - ومع ذلك ، فقد رأى
أنه من الخير الاقتصاد فى استهلاك الشموع !

وبدأ التعب يحدث أثره فى قواهما ، ولكنهما حاولا ألا يلقيا إليه بالآ
فقد كانا يعلمان أن مجرد التفكير فى الجلوس فى مثل هذه الظروف ، حيث
للو وقت قيمة لا تقدر بثمن ، أمر خطير للغاية . . فقد كان التقدم فى نفس

الاتجاه ، أو في أى اتجاه آخر ، تقدماً على كل حال ، كما أنه قد يشمر في أية لحظة .. أما الجلوس فمعناه الموت السريع المحقق .

وأخيراً ، رفض ساقا بيكى ، المنهوكان أن يحملها ، فجلست . واستراح « توم ، معها ، وطفقا يتحدثان عن البيت والأصدقاء الذين تركوهما والفراش الوثير وجهال الطبيعة والنور ، وبكت بيكى ، فحاول « توم ، أن يفكر في وسيلة تهدئة روعها ، ولكنه فشل . . واشتدت وطأة التعب على الفتاة ، فنقل جفناها ، ونامت ا فتنفس « توم ، الصعداء ، وراح يتأمل وجهها الممتقع ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن وجهها بدأ يشرق ، فأيقن أنها كانت تعيش في حلم سارا ثم انفرجت شفاتها عن ابتسامة حلوة . . وكأنا انتقلت عدوى الابتهاج من وجه الفتاة إلى روح « توم ، فسبحت أفكاره في الماضي القريب والذكريات الحاملة . وبينما كان مستغرقاً في التفكير استيقظت « بيكى ، وهى تضحك ضحكة رقيقة — ولكن الضحكة لم تلبث أن ماتت على شفيتها ، ثم أفلتت منها صرخة خافتة .

وهتفت الفتاة : : أواه ا كيف جرؤت على النوم ا ليقنى لم أستيقظ أبداً ... أبداً الا .. لا .. لست أقصد ذلك يا « توم ، ا فلا تنظر إلى غاضباً هكذا ا ان أقول ذلك مرة أخرى .

— إني مسرور لأنك نمت ، يا بيكى ، ... ويبدو أنك استرحت الآن ولسوف نجد طريقنا إلى الخارج .

— نستطيع أن نحاول يا « توم ، ، ولكنه رأيت بلدا ساحرا في الحلم وأكبر ظنى أننا سنذهب إلى هناك .

— ربما ... ربما . . تهللى يا « بيكى ، ودعينا نستمر في المحاولة ونهضا . وانطلقا هائمين في يأس وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . . وحاولا تقدير الوقت الذى انقضى عليهما فى الكهف ، ولكن كل ما كانا

يعرفانه ، هو أن هذا الوقت ربما كان أسابيع ، ومع ذلك كان من الواضح أن تقديرهما بعيد عن الصواب ، لأن الشمعة لم تستهلك بعد . . . وقبل انقضاء وقت طويل على ذلك ، لم يعد في استطاعتها أن يحددها بالطبع - قال «توم» إنه ينبغي عليها أن يسيرا ويصغيا لتقطرات الماء المتساقطة - إذ يجب أن يعثرا على نبع ماء . . . وقد عثرا على النبع بعد قليل ، فقال «توم» إن الوقت قد حاز ليستريحا . . . كان كلاهما يشعر بإعياء شديد ، إلا أن «بيكى» قالت إنها تعتقد أن في استطاعتها أن تمضى شوطا أطول ، وكم كانت دهشتها عظيمة حينما رفض «توم» ذلك ولم تستطع أن تفهم السر في سلوك «توم» ، ووثبت «توم» الشمعة في الجدار المواجه لهما بقطعة من الطمي اللزج . . . ومضت فترة لم ينطق أحدهما بكلمة خلالها ، ثم تكلمت «بيكى» فقالت :

«توم» ، إننى أشعر بجوع شديد !

فأخرج «توم» شيئا من جيبيه . . . وسألها : هل تذكرين هذه ؟

ولم تتمالك «بيكى» من الابتسام وقالت : نعم . . . نعم . . . إنها كعكة

زفافنا يا «توم» !!

- نعم - ليتها كانت كبيرة كبرميل ، فإنها أكل ما تبقى لنا .

قالت : لقد احتفظتُ ، بالكعكة يا «توم» ، لنجعلها مصدر أحلامنا مثلما

يفعل الكبار بكعكة الزفاف - ولكنها ستكون

وأمسكت عن إنعام عبارتها . . . أما «توم» فقد شطر الكعكة إلى جزئين ،

أعطى أحدهما لبيكى فأكلته بشهية ، ولكن الغلام تظاهر بأنه يأكل . . . وكان

ماء النبع بارداً ، فرويا ظمأهما منه . . . وبعد قليل اقترحت «بيكى» أن

يستأنفا السير ، فلاذ «توم» بالصمت قليلا . قال :

- «بيكى» . هل تستطيعين احتمال نأب سأفضى إليك به ؟

فاصفر لون «بيكى» ، ولكنها قالت إنها تستطيع ذلك .

-- حسناً يا «بيكى» . . . ينبغي أن نبقى هنا حيث يوجد ماء نرتوى

منه ، فإن قطعة الشمع هذه ، هى آخر ما لدينا !

وانفجرت الفتاة باكية مولولة ، وبذل « توم » ، قصارى جهده للتخفيف عنها ، ولكن بغير جدوى . وأخيراً قالت « بيكى » .

— « توم » !

— ماذا دهاك يا « بيكى » :

— لا شك فى أنهم سيفتقدوننا ، فيبحثون عنا !

— نعم . . لا شك فى أنهم سيفعلون ذلك !

— لعلمهم يبحثون عنا الآن يا « توم » .

— أظن ذلك .. بل آمل أن يفعلوا ذلك !

— متى سيفتقدوننا يا « توم » ؟

— أظن أنهم سيفعلون ذلك ، عندما يعودون إلى « الباخرة » ،

— قد تكون الدنيا ظلاماً وقتذاك — هل سيلاحظون أننا لم نعد ؟

— لست أدرى . لكن مهما يكن ، سوف تفتقدك أمك بمجرد عودة

الجميع إلى منازلهم .

فارتسمت علامات الفزع على وجه الفتاة ، فأدرك « توم » ، أنه أخطأ ،

فقد كان المفروض أن « بيكى » ، لن تعود إلى المنزل فى تلك الليلة ! فساد

الاصمت بين الفتى والفتاة ؛ واستغرقا فى التفكير ، وبعد لحظة غمرت « بيكى » ،

موجة جديدة من الحزن ، جعلت « توم » يدرك أن ما دار بخاطره دار

بخاطرها أيضاً — ذلك أن أمها لن تفتن إلى أن « بيكى » ، تقضى ليلتها فى

منزل « مسز هاربر » ، إلا بعد انتهاء صلاة صباح يوم الأحد .

وركّز الاثنان عينيهما فى الشمعة الصغيرة التى بقيت لهما ، وراحا

يراقبانها وهى تدوب ببطء ، وبلا شفقة . . ثم رأيا نصف البوصة الأخير

من الذبالة وهو يتجرد بما حوله من شحم ، ثم أخذ اللهب يلعب ويخبو المرة بعد

الأخرى — وأخيراً ساد الظلام المفزع !

وأخذت « بيكى » ، تبكى وهى بين ذراعى « توم » ، ولم يستطع أحدهما

أن يعرف كم من الوقت مضى عليهما وهما على هذه الحال . . كل ما عرفاه

هو أنهما - بعد انقضاء فترة خالاهما دهرأ - استيقظا من إغفاءة قصيرة ، فاستأنفا تعاستهما مرة أخرى . . قال « توم » إنه من المحتمل أن يكون اليوم يوم الأحد - وربما يوم الإثنين . وحاول أن يستدرج « بيكى » إلى الكلام ، ولكن حزنهما كان شديداً بعد أن فقدت كل أمل في النجاة . . . وعاد « توم » يقول أن أسرتهم لا بد قد افتقدتاها منذ وقت طويل ، أن ليس ثمة شك في أن البحث عنهما جارٍ على قدم وساق . . وأنه إذا صاح ، فسوف يقبيل من ينقذهما . . وانطلق بصيح ، ولكن الظلام وصدى الصوت أفرعاهما أشد الفرع ، فاضطرا إلى الكف عن هذه المحاولة .

ومضت الساعات ثقالا ، وبدأ الجوع يعرضهما بنابه . وكان « توم » قد احتفظ بقطعة من نصيبه من الكعكة ، فاقسماها وأكلاها ، ولكن يبدو أن ذلك زادهما جوعاً عن ذى قبل .

وبعد قليل قال « توم » : صه هل سمعتِ ؟

وحبس الإثنين أنفاسهما ، واصاخا السمع . . خيل إليهما أنهما يسمعان صوتاً أشبه بصياح قادمٍ من بعيد ، وأجاب « توم » على الصياح ، وقاد « بيكى » من يدها ، ثم راحا يتحسسان طريقهما في الممر في اتجاه الصوت . . وأصاخ « توم » السمع مرة أخرى ، فسمع الصوت ثانية ، وكان أقرب قليلاً هذه المرة .

قال « توم » : لانهم هم . لانهم قادمون اهلى بنا يا « بيكى » لاننا فى أمان الآن ا

كان فرح السجينين شاملاً ، ولكن تقديمهما كان بطيئاً لأنهما كانا يتعثران هنا وهناك . وبعد فترة وجيزة ، بلغا فجوة ، اضطرا إلى التعثر عندها ، فتوقفوا عن السير . . كان من المحتمل أن يكون عمقها ثلاثة أقدام . وربما مائة - ولكنها كانت على كل حال عميقة لا يمكن تخطيها . وانبطح « توم » على وجهه ومد ذراعيه إلى أبعد ما يستطيع ، ولكنه لم يصل إلى قاع الفجوة . ومن ثم أصبح لزاماً عليهما أن يبقيا في مكانهما

حتى يدركهما الباحثون عنهما . وعادا بصيخان السمع ، ولكن الصياح البعيد لم يلبث أن أصبح أكثر بعدا ، وبعد لحظة أو اثنتين تلاشى تماما .. وانفطر قلبا الصغيرين عندما تلاشى الصوت ، وانطلق « توم » ، يصيح حتى يُبجَّ صوته ، ولكن بدون جدوى .. وعندئذ شرع يتحدث إلى « بيكي » محاولاً إدخال الطمأنينة إلى قلبها ، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، لأن أصوات القادمين تلاشت تماما

وتحسس الصغيران طريقهما عائدين إلى نبع الماء ، وأخذ الوقت يمضي متاقلاً .. واستسلما للنعاس ، ثم استيقظا وهما يشعران بجوع مؤلم ، ويكابدان حزناً عميقاً .. وكان « توم » يعتقد أن اليوم لابد أن يكون يوم الثلاثاء .

وخطرت له فكرة .. كانت هناك دهايز جانبية قريبة ، ومن ثم فقد عول على استكشافها بدلا من الاستسلام لليأس القاتل .. وأخرج من جيبه الخيط الذي يربط به طائرته الورقية ، وعقد طرفيه في نتوء ، ثم بدأ « بيكي » عملية الاستكشاف . وكان « توم » يسير في المقدمة ، وسارا عشرين خطوة ، ثم لم يلبث الغلام أن وجد فجوة في الأرض ، فركع فوق ركبتيه وتحسسها ، ثم زحف نحوها ، ولم يلبث أن عثر على فجوة أخرى إلى اليمين . وفي تلك اللحظة ، رأى يدا آدمية تحمل شمعة تبرز من خلف الصخرة المواجهة . ولم يتمالك الغلام نفسه ، فأطلق صيحة ابتهاج عالية ، وفي التو برز صاحب اليد .. كان « انجان جو » ، وجمد « توم » في مكانه مسمراً ، ولكنه تنفس الصعداء حينما رأى « الأسباني » يبادر بالاختفاء في اللحظة التالية .. وعجب « توم » ، لأن « جو » لم يعرف صوته ، ولم يبادر إلى قتله بعد أن أدلى بشهادته ضده في المحكمة ، ولكنه سرعان ما أيقن أن الفراغ الهائل المحيط به جعل لصوته رنة غير عادية .. وكان الفرع الذي استولى على « توم » قد شل حركته تماما ، فقال لنفسه أنه لو استطاع أن يستجمع قواه ، لعاد إلى النبع حيث يبقى هناك ، ولما استسلم لأية قوة تدفعه إلى

المجازفة بمقابلة « انجان جو » مرة أخرى . . وحرص الغلام على إخفاء ما رآه عن « بيكي » ، وقال لها إنه صاح « ليغلب الحظ » . ا .

ولكن الجوع والشقاء تغلبا على المخاوف في آخر الشوط ، فقد قضى الصغيران وقتاً طويلاً وهما ينتظران عند النبع ، ثم ناما وقتاً طويلاً استردا خلاله بعض قوتهما . وعندما استيقظا كانا يكابدان عذاب الجوع الأليم ، وأيقن « توم » أن اليوم إما أن يكون يوم الأربعاء أو الخميس وربما يوم الجمعة أو يوم السبت ، وأن من المحقق أن أهل القرية قد كفوا تماماً عن البحث عنهما . ومن ثم عوّل على استكشاف ممر آخر . بل لقد شعر بأنه على استعداد للمجازفة بمقابلة « انجان جو » ، وشقى ضروب الفرع الأخرى ، ولكن « بيكي » كانت لا تقوى على السير وقد سيطرت عليها حالة من الذهول الشديد ، فلم يستطع الغلام إقناعها بالسير معه . . قالت إنها تفضل أن تظل حيث هي حتى تموت - وإن يكون ذلك بعد وقت طويل . . وقالت أيضاً للغلام ألا بأس عليه من أن يذهب للاستكشاف مستعيناً بخيط الطائرة . ولكنها توسلت إليه أن يعود بين حين وآخر ليتحدث إليها ؛ وحملة على أن يعدها بأن يبقى معها ويمسك بيدها عندما تحين اللحظة الرهيبة ، لحظة موتها ، وألا يتركها حتى ينتهي كل شيء .

وقبلها « توم » وقد أحس بغصة في حلقه ، ولكنه تجلد وصبر وقال لها إنه واثق من أنه سيعثر على الباحثين عنهم ، أو يجد مخرجاً من الكهف ، ثم التقط خيط الطائرة ، وزحف في أحد الممرات فوق ركبته ويديه ، وقد عضه الجوع بنابه ، وأضناه التفكير في الموت المرتقب .

الفصل الثاني والثلاثون

هلموا ! لقد وجدنا !

أقبل مساء يوم الثلاثاء ، ولكنه لم يلبث أن تراجع أمام الغسق وكانت قرية ه سانت بترسبورج ، لا تزال حزينة ، لأن الصغيرين المفقودين لم يُعثرا لهما على أثر . . وأقيمت أصوات العمامة من أجلهما ، كما راح عشرات الناس من سكان القرية يبتهلون إلى الله أن ينقذهما ، ومع ذلك فإن نبأ واحداً طيباً لم يأت من الكهف الرهيب . . وكان السواد الأعظم من الباحثين قد تخلى عن البحث ، وعاد إلى أعماله اليومية ، قائلاً إنه أصبح من الواضح استحالة العثور على الصغيرين . وكانت « مسز تاتشر » قد سقطت فريسة للمرض ، وانخرطت في الهذيان . . ولقد قال الناس أنه بما يفطر القلوب حزناً أن يروا هذه السيدة التعسة وهي تنادى طفلتها ، ثم ترفع رأسها ، وتصبح السمع دقيقة كاملة ، وبعدئذ تنهالك في إعياء فوق الوسادة وهي تتأوه . . أما العمدة « بولى » ، فقد استولت عليها حالة من الحزن العميق الصامت ، وتحول شعرها كله إلى المشيب .

وأوى سكان القرية إلى فراشهم في ليلة الثلاثاء ، وهم أشد ما يكونون حزناً وعند منتصف الليل ، أصيبت أجراس القرية بالجنون فجأة ، فراحت تقرع بشدة ، وفي لحظات كانت الشوارع تنص بالناس ، وقد ارتدوا نصف ملابسهم ، بينما كان بعض الأشخاص يصيحون « هلموا ! هلموا ! لقد وجدنا ! لقد وجدنا ! » ، واستخدمت الأطباق النحاسية والأبواق لزيادة الجلبة . وتجمع السكان ، وأخذوا يتقدمون نحو النهر . وفجأة رأوا الصغيرين قادمين في عربة مكشوفة يجرها المواطنون ، وهم يصيحون صيحات الفرح والابتهاج ، في طريقهم إلى منزل القاضي . وأضيئت الأنوار في كل مكان بالقرية : ولم يأو أحد إلى فراشه في

تلك الليلة ، فقد كانت أعظم ليلة شهدتها القرية الصغيرة . وفي خلال نصف الساعة الأولى تألف موكب كبير من أهل القرية ، قصد إلى منزل القاضي « تاتشر » ، حيث انهل الناس بالقبيل على الصغيرين العائدين ، كما قدموا التهنية الصادقة إلى « مسز تاتشر » وكانوا يشدون على يدها بحرارة ، ويحاولون الكلام فيرتج عليهم ، وتنهمر الدموع من عيونهم .

واكتملت سعادة العمدة « بولي » و« مسز تاتشر » وام يبق إلا أن يُبلِّغ النبأ لمستر « تاتشر » في الكهف . وكان « توم » ممدداً فوق إحدى الأرائك في تلك الأثناء ، ومن حوله عشرات الأشخاص يصغون إليه باهتمام ، وهو يصف لهم تفاصيل المغامرة المثيرة . وكان الغلام يضيف إلى القصة بعض الروش ! وختم حديثه بوصف المرحلة النهائية للمغامرة ، حين ترك « بيكي » وقام برحلته الاستكشافية . وكيف أنه سار في ممرين من الممرات حتى نهاية جبل الطائرة ، وكيف أنه سار في دهليز ثالث حتى نهاية طرف الجبل الآخر ، وكاد يهيم بالعودة من حيث أتى ، حينما لاحظ نقطة بيضاء بعيدة ، كانت تبدو كضوء النهار . ومن ثم ألقى بالحبل ، وراح يتحسس طريقه نحو هذه النقطة ، فعر على فجوة ، أدخل رأسه وكتفيه فيها ، وعندئذ رأى أمامه نهر المسيسيبي !

ومضى « توم » في حديثه قائلاً ، إنه ما كان ليستطيع أن يرى هذه الفجوة ولما مضى في الدهليز إلى أبعد من النقطة التي انتهى عندها جبل الطائرة ، لو أن الوقت كان ليلاً حينذاك ! وأضاف الغلام إنه على أثر وقوعه على هذا الكشف ، كر عائداً إلى حيث ترك « بيكي » ، وأفضى إليها بالنبأ العظيم فلم تصدقه في بادئ الأمر ، وقالت له إنها متعبة ، ومن ثم يجدر به ألا يعذبها بمثل هذه الخيالات الخرقاء ! ولكنه راح يقنعها بصدق قوله ، وما أن تحققت من وجود الفجوة ، حتى كادت تطير من شدة الفرح . ثم وصف الغلام كيف استطاع أن ينفذ من خلال الفجوة بصعوبة ، وكيف أنه عاون « بيكي » على الخروج منها ، وكيف أنهما جلسا خارج الكهف وانفجرا

بيكيان من فرط الفرح ، ثم رأيا رجالا قادمين في قارب ، فزادهم « توم » ، وشرح لهما موقفهما ، وكيف أنهما يوشكان على الموت جوعاً ، فلم يصدقوا قصته المثيرة في بادئ الأمر ، قائلين له إنها قصة خرافية لأنكما على مبعدة خمسة أميال من فتحة الكهف ، — ولكنهم أخذوهما معهم ، وقدموا لهما طعام العشاء ، ونقلوهما إلى منزل أحدهم ليستريحا ، وبعد أن قضيا أكثر من ست ساعات وهما نائمان ، جاء بهما الرجال إلى المدينة .

وقبل طلوع الفجر أمكن الاتصال بالقاضي « تاشر » والجماعة التي كانت تعاونه في البحث بداخل الكهف ، وزف إليهم البناء العظيم .

لم يكن من السهل التخلص من آثار الجهد العصبي والجوع التي خلفتها ثلاثة أيام وليال في الصغيرين . وقد اكتشف « توم » ، و « بيكي » ، ذلك ، فاضطرا إلى ملازمة الفراش طوال يومى الأربعاء والخميس . وكان يخيل لهما كلما مر الوقت أنهما يزدادان إعياء . ولكن « توم » استطاع أن يسترد بعض قواه في يوم الخميس ، وغادر المنزل يوم الجمعة . وفي يوم السبت ، استرد الغلام جميع قواه ، أما « بيكي » ، فإنها لم تغادر غرفتها إلا يوم الأحد . ولسكنها كانت تبدو هزيلة شاحبة الوجه مثل الناقه من مرض طويل !

وسمع « توم » ، بمرض « هاك » ، فذهب لزيارته يوم الجمعة . ولكنهم لم يسمحوا له بمقابلته ، لا في ذلك اليوم ، ولا في يومى السبت والأحد . غير أنهم سمحوا له بعد ذلك بمقابلته ، يومياً ، بعد أن حذروه من الإشارة إلى مغامرته أو الإفشاء إليه بأية ملاحظة مثيرة ... وكانت الأرملة دو جلاس ، تحرص على حضور هذه المقابلات ، لتستوثق من استجابة « توم » ، لهذا الرجاء ... ولقد سمع « توم » ، بالحادث الذى وقع في « كارديف هيل » ، كما سمع أن جثة شريك « إنجان جو » ، عثر عليها في النهر بالقرب من مرسى العائمة ، وأن الرأى السائد هو أن الرجل غرق وهو يحاول الهرب ا

وبعد انقضاء حوالى أسبوعين على نجاة « توم » ، من الكهف ، ذهب الغلام لزيارة « هاك » ، وكان هذا قد استرد كثيراً من قواه في تلك الأثناء

وأصبح في استطاعته أن يتحمل كل المؤثرات المثيرة وكانت لدى « توم » بعض أبناء مثيرة فعلا يريد الإفشاء بها هناك . وفي الطريق إلى منزل الأرملة دو جلاس ، عرج « توم » على منزل القاضي « تاتشر » لرؤية « بيكي » مرة أخرى طلب القاضي « تاتشر » وبعض أصدقائه إلى الغلام أن يحدثهم عن مغامرته في الكهف ، ثم سأله أحدهم بسخرية إن كان يرغب في العودة إلى الكهف ، فقال « توم » إنه يعتقد أن ذلك لم يعد يخيفه . وعندئذ قال القاضي :
- أعتقد أن هناك من يشاطرونك هذه الرغبة يا « توم » ، ولكننا لن نمكنهم من ذلك ، فمذ اليوم ، ان يضل أحد طريقه في الكهف فسأل « توم » لماذا ؟

- لقد وضعنا بابا سميكا مقوى بأحزمة من الحديد في فتحة الكهف . ولهذا الباب ثلاثة أقفال ضخمة مفاتيحها كلها معي .
فاصفر لون « توم » . وعندئذ صاح القاضي :

- ماذا دهاك يا قتي ؟ هيا اسرعوا ! فليحضر أحدكم كوباً من الماء !

وجيء بالماء وسكب على وجه « توم » . . ثم قال القاضي :

إنك الآن أحسن حالا يا « توم » ، لكن أخبرني ماذا دهاك ؟

- أواه يا سيدي القاضي . . إن « انجان جو » موجود في الكهف !

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية « إنجان جو » !

بعد خمس عشرة دقيقة ، كان النبا قد ذاع وانتشر ، فخرج أكثر من اثني عشر قارباً محملاً بالرجال ، في طريقهم إلى كهف « ماكدوجال » كما أصبحت العائمة بعد قليل ، وقد ازدحمت بالركاب ، وكان « توم » في القارب الذي ركبته القاضي « تاتشر » .

وعندما فتح باب الكهف ، وقع بصر الجميع على منظر مؤلم ... كان « إنجان جو » ممدداً فوق الأرض ، وقد فارقت الحياة ، ووجهه ملاصق لشق رفيع بين الباب وعتبة الكهف . وكأنما كانت عيناه مركزتين ، إلى آخر لحظة في ضوء العالم الرحب وبهجته ، خارج الكهف .. وتأثر « توم » كثيراً لأنه أدرك من تجاربه المؤلمة ، مدى ما عاناه هذا التعس من آلام وعذاب . ولكنه لم يلبث أن نفض عنه هذا الأسف ، وشعر براحة لا مزيد عليها عندما تبين له أن الخطر الداهم الذي كان يحلق فوق رأسه منذ أدلى بشهادته ضد هذا الشرير ، قد ذهب إلى غير رجعة .

كانت سكين « إنجان جو » ملقاة على مقربة منه ، وقد تحطم نصلها إلى جزئين ... ولاحظ الجميع أن عارضة الباب الكبرى قد تشققت خدشت نتيجة لجهد كثير بذل ، ولكنه كان جهداً ضائعاً ، لأن الصخرة التي كانت تلاصق طرف الباب الأسفل كانت تعترض نصل السكين ، ومن ثم لم يستطع النصل أن يؤثر فيها ، فتحطم في النهاية — وبفرض أن هذه الصخرة لم تكن موجودة ، فقد كان من المستحيل تحطيم العارضة لأنها مصنوعة من خشب صلب سميك ، ولا يمكن إحداث ثغرة كافية أسفل الباب يستطيع « إنجان جو » الخروج منها . ولا شك في أن الرجل كان يعلم ذلك ، ومن

شم فقد بذل هذا الجهد ، لكي يشغل وقته الضائع ، ويصرف ذهنه عن التفكير في نهايته المؤلمة ... وكان أوامك الذين زاروا الكهف ، قد رأوا من قبل وعدة أجزاء من شموع مثبتة بالجدران ، تركها السائحون هناك على سبيل الذكرى ، ولكن هذه القطع لم يعد لها أثر الآن ، فأدرك القاضى ومن معه أن السجين اضطر إلى انتزاعها وأكلها ، كما استطاع أن يقتنص عددا من الخفافيش أكلها أيضاً ، ولم يترك سوى مخالبها ... ولكن الرجل التمس اتى حنقه جوعاً آخر الأمر ... وفي مسكان قريب ، كانت الصخور المرمرية تتسكون ببطء فوق أرض الكهف خلال العصور الطويلة ، نتيجة لتساقط قطرات الماء من صخور الكهف الهشة المحطمة . وكان واضحاً أن « جو » حاول جمع قطرات الماء التي كانت تسقط من السقف ، بمعدل قطرة واحدة كل ثلاث دقائق بنظام دقيق كدقات الساعة — وكانت كمية الماء التي تتجمع من هذه القطرات تعادل ملعقة متوسطة كل أربع وعشرين ساعة !! لقد كانت هذه القطرات ، تتساقط منذ أجيال وأجيال ... بل لعلمنا كانت تتساقط منذ عصر بناء الأهرام ، أو منذ حروب طروادة ، أو منذ شيدت روما . أو منذ صلب المسيح ، أو منذ غزا النورمانديون الإمبراطورية البريطانية ، أو منذ أبحر كولومبس إلى أمريكا !! . وهي ما زالت تتساقط إلى اليوم ، وستظل تتساقط إلى أن ينتهى هذا العالم ... ترى هل اكل شيء غاية ورسالة ؟ هل ظلت هذه القطرات تتساقط بصبر خلال خمسة آلاف عام ، لتكون على استعداد لإرضاء الحاجة الطارئة لهذه الحشرة البشرية ؟ وهل لها غاية أخرى هامة سوف تحققها بعد عشرة آلاف سنة ! مهما يكن لقد مضت سنوات عديدة منذ لقي « انجان جو » مصرعه في الكهف ، ولكن (الكأس) الصناعية التي أعدها ليجمع فيها قطرات الماء ما زالت موجودة حتى اليوم ، يراها السائحون الذين يفتدون على كهف « ماكدوجال » ويعتبرونها من أعاجيب الكهف التي لا يباريها شيء حتى ولا قصر علاء الدين ، ! .

ودفن « إنجان جو » على مقربة من باب الكهف .. وجاء كثيرون من المدن القريبة ، ومن جميع المزارع الواقعة في دائرة نصف قطرها سبعة أميال لحضور جنازة « إنجان جو » .. جاءوا بالقوارب والعربات ، وقد أحضروا أطفالهم وطعامهم معهم خصيصاً لهذه المناسبة ، واعترفوا بأنهم قضوا وقتاً طيباً في الجنازة ، لا يقل متعة عما كانوا سيقضونه ، ولو أن هذا الشرير أعدم شنقاً ...

ولقد أفسدت هذه الجنازة إجراء كان بعض الناس يستعدون له هو عريضة تقدم للمحافظة للعفو عن « إنجان جو » .. وكان كثيرون قد وقعوا على هذه العريضة ، كما عقدت عدة اجتماعات لهذا الغرض ، وشكلت لجنة من السيدات الساذجات ، يرتدين السواد ويذهبن إلى المحافظ مؤنولات ويناشدنه أن يدون « رحماً » يطاً واجبه بتقديمه .. كان المعتقد أن « إنجان جو » قتل خمسة مواطنين من سكان القرية ، لكن ماذا في ذلك ؟ لو أنه كان الشيطان بلحمه ودمه ، لوجد كثيرين من المستضعفين على استعداد لأن يوقعوا بأسمائهم على عريضة العفو !

وفي صباح اليوم التالي للجنازة ، انفرد « توم » بهاك في مكان منعزل ، وتحدث معه حديثاً هاماً .. كان « هاك » قد عرف كل شيء عن مغامرة « توم » من الكهمل الاسكتلندي والأرملة « دو جلاس » ، ولكن « توم » قال له إن هناك شيئاً يعتقد أنهما لم يحدثاه عنه ، وأن هذا الشيء هو ما يريد أن يحدثه عنه الآن ، فبدأ الحزن على وجه « هاك » ، وقال :

- لاني أعرف ما هو .. لقد استطعت دخول رقم ٢ ، ولكنك لم تجد شيئاً غير زجاجات الخمر .. إن أحداً لم يقل لي إنك أنت الذي اقتحمت الغرقة ، ولكنني أيقنت أن ذلك كان من صنع يديك ، بمجرد أن سمعت نبأ العثور على الخمر !! وقد أيقنت أنك لم تحصل على الكنز ، وإلا لاتصلت بي بطريقة أو أخرى ، وأبلغتني ذلك مهما التزمت الكتمان مع الآخرين .. أصدقك القول يا « توم » ، أن هاتفاً ما ، كان يحدثني دائماً بأننا

لكن نفوز بهذا الكنز !

ولكنى لم أذكر شيئاً على الإطلاق عن ذلك الفندق ، إنك تعرف أن
الفندق كان فى خير حال ، عندما حاولنا اقتحامه يوم السبت .. ألا تذكر أنه
كان عليك أن تقوم بمراقبته أثناء الليل ؟
— أوه نعم ... ولو أنه يخيل لى أن عاماً قد انقضى منذ تلك الليلة ...
لقد تبعت د إنجان جو ، إلى منزل الأرملة فى تلك الليلة بالذات .

— تبعته ا

— نعم ، لكن يجب ألا تذكر ذلك لأحد ، فإننى أعتقد أن د إنجان
جو ، خلف أصدقاؤه وراهه ... ولست أريد أن ينقموا علىّ ويحاولوا التآمر
منى ... فلولاى لكان د انجان جو ، فى تكساس الآن !
ومضى د هاك ، يسرد تفاصيل مغامراته لتوم الذى كان قد سمع جزءاً
منها من الكهل الاسكتلندى .

وأخيراً عاد د هاك ، إلى الموضوع الأساسى .. قال :

— مهما يكن أمر الشخص الذى أفشى سر وجود الخنز فى رقم ٢ ، فلا
بد أن يكون هذا الشخص هو الذى اغتصب الكنز لنفسه .. ومعنى ذلك
أننا فقدناه إلى الأبد يا د توم ، .

— د هاك ، إن هذا الكنز لم يكن فى رقم ٢ فى يوم من الأيام فخدق
د هاك ، بقوة فى وجه صديقه وصاح :

— ماذا تقول ؟ هل استطعت أن تعثر على أثر لهذا الكنز مرة ثانية

يا د توم ، ا

— د هاك ، .. إن الكنز فى الكهف ا

فتألفت عيناً د هاك ، وهتف : قل ذلك مرة أخرى يا د توم ، ا

— إن الكنز موجود فى الكهف ؟

— إنه لأمر عجيب — هل تهزل أم تجحد ؟

— بل أجد يا د هاك ، — إننى جاد الآن أكثر منى فى أى يوم مضى ...

هل تذهب معى إلى الكهف ، وتساعدنى فى إخراج الكنز منه ؟
— لا شك لأننى على استعداد لأن أفعل ذلك ! بل سأفعل ذلك ، إذا
استطعنا أن نجد طريقنا بداخل الكهف دون أن نضل الطريق .
— إن فى استطاعتنا أن نفعل ذلك يا « هاك » ، بغير أن نضل
الطريق .

— هذا بديع ! لكن ما الذى يجعلك تظن أن الكنز . . .
— تريث يا « هاك » ، حتى ندخل الكهف . فإذا لم نعثر على الكنز
هناك ، فإنى أعذك بأن أعطيك (طبلى) وكل ما أملك فى هذا العالم . .
سأفعل ذلك بحق السماء !

— هذا حسن . . ومتى سنذهب ؟

— الآن . . فهل أنت على قدر من القوة يسمح لك بذلك ؟
— هل الكنز فى مكان سحيق داخل الكهف ؟ لقد كنت غير قادر
على الحركة منذ ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكننى أستطيع الآن أن أمشى أكثر
من ميل — على الأقل هذا ما أعتقد يا « توم » .

— إن المسافة خمسة أميال بالنسبة لجميع الناس إلاسى . . . فإن هناك
طريقاً مختصراً جداً ، لا يعلم أحد غيرى شيئاً عنه . وسأذهب بك إليه فى
قارب . . سأجىء « بالقارب إلى هنا ، ثم أعيده إلى مكانه وحدى ، دون أن
أكلفك أى جهد .

— إذن ، فلنذهب الآن يا « توم » !

— تريث قليلاً يا « هاك » ، إننا بحاجة إلى شىء من الخبز واللحم ،
وغليون وحقيبة أو اثنتين صغيرتين ، وخيطين أو ثلاثة خيوط من خيوط
الطائرات وكمية من أعواد الثقاب الجديدة التى يطلقون عليها اسم « ثقاب
لو سيفر » ، التى كثيراً ما تمنيت لو إننى أملك كمية منها ، عندما كنت سجيناً
فى الكهف .

وبعد الظهر بقليل ، « استعمار » الغلامان قاربا صغيراً من مواطن كان

غائباً ! وانطلقا به بلا إبطاء . وعندما أصبحا على مبعدة بضعة أميال من تجويف الكهف ، قال « توم » :

— إن هذا النتوء يبدو متجانساً من كل مكان ، فهو مغطى بالأعشاب المتماثلة ، ولا منازل أو مستودعات للخشب به — ولكن هل ترى ذلك المكان الأبيض البعيد ، حيث حدث انزلاق أرضي ؟ حسناً ، إنه إحدى العلامات التي استرشد بها . سنهبط إلى البر الآن . وهبطا من القارب ويمما وجهيهما شطر الكهف .

قال « توم » : إنك تستطيع أن ترى من هنا الفجوة التي خرجت منها يا « هاك » . . . فأول أن تعثر عليها .

وفحص « هاك » المنطقة التي حوله ، ولكنه لم يعثر على شيء . وفي التوسار « توم » بخيلاء وسط دغل من الأعشاب الطويلة الكثيفة وقال : — ها هي ! أنظر إليها يا « هاك » . . . إنها أعظم فجوة في البلاد كلها ، فلا تقل شيئاً عنها لأحد . فمذ أمد طويل وأنا أتمنى أن أصبح لصاً ، ولكنني كنت أعلم أنه يجب أن يتوفر لي مخبأ كهذا ، يضل فيه من يفكر في مطادرتي . حسناً ، لقد توفر لي المخبأ الآن ، فعلينا أن نحرض على إبقاء أمره طي الكتمان ، فلن يعرف أحد غير « بن روجرز » و « جو هاربر » شيئاً عنه ، وذلك لأنها سيكونان عضوين في العصابة — سيكون اسمها « عصابة توم سوير » — أليس وقع هذا الاسم جميلاً على الأذني يا « هاك » ؟

— نعم يا « توم » . . . ولكن من الذي سنسرقه ؟
— أوه . . . أي شخص . . . سوف تكون معظم حوادثنا قطع الطريق على الناس !

— وهل سنقتلهم ؟

— لا . . . ليس دائماً . . . سنخفيهم في الكهف حتى يدفعوا فدية .

— وما هي الفدية ؟

— مال . . إنك بذلك ترغهم على دفع أقصى ما يستطيعون دفعه من المال ، وفي الغالب يدفع أصدقاؤهم الفدية المطلوبة ، فإذا لم يدفعوا الفدية بعد أن تستبقيهم عاماً ، فإنك تقتلهم ، فتلك هي الطريقة المتبعة . ولكنك لا تقتل النساء ، وإنما تأسرهن لأنهن جميلات وثريات دائماً ، كما أنهن يكن شديداً الفزع . . إنك تستولى على ساعاتهن وما معهن ، ولكنك تخضع قبعتهن لهن وتخاطبهن بأدب . . إنك لن تجد أشخاصاً أكثر أدباً من اللصوص . وفي وسعك أن تقرأ ذلك في أى كتاب . . ثم ، إن النساء لا يلبثن أن يجيبنك ، وبعد أن يقضين أسبوعاً أو أسبوعين في الكهف ، يتوقفن عن البكاء ، وبعدئذ لن تستطيع أن ترغمن على الرحيل . أما إذا أجبرتهن على ذلك ، فإنهن لا يلبثن أن يعدن إليك . . هكذا قالت جميع الكنتب !!

— يا إلهى . . . أعتقد أنه من الأفضل أن أكون لصاً !
— نعم ، إن ذلك أفضل من بعض الوجوه ، لأنه يجعلك قريباً من الوطن و « السيرك » ، وما شاكل ذلك .
وفي هذه الأثناء كان كل شيء قد أُعد ، ودخل الغلامان من الفجوة ، وكان « توم » في المقدمة ، ثم راحا يشقان طريقهما إلى الجانب البعيد من النفق ، وبعدئذ ربطا طرف أحد خيوط الطائفة في نتوء ، واستمرا في السير . وبعد أن تقدا عدة خطوات ، وصلا إلى النبع ، فاشعر جسم « توم » ، وأشار لهاك موجهاً نظرة إلى بقية ذبالة الشمعة التي ذابت وانطفأت أثناء وجوده و « بيكي » ، يجيذين في الكهف ؛ ووصف له كيف أنهما — « بيكي » وهو ظلا يراقبان اللهب ، وهو يتراقص ، قبل أن ينطفى ، وقد ركبهما فزع عظيم !

وبدأ الغلامان يتحدثان بصوت هامس ، فقد أحدث سكون المكان وظلمته أثرهما في نفسيهما . . ومضياً في السير ، ثم لم يلبثا أن دخلا الممر (م ١٨ - توم سوير)

الثاني وظلا يسيران فيه ، حتى وصلا إلى الصخرة العالية . . . وهناك تبين للغلامين — على ضوء الشمعتين — أن الصخرة لم تكن شديدة الانحدار ، فقد كانت عبارة عن تل منحدر يبلغ ارتفاعه عشرين أو ثلاثين قدما فحسب . .

وهمس د توم ، . والآن ، سأريك شيئاً يا د هاك ،
ورفع شمعته عالياً وأردف :

— أنظر إلى أبعد ما تستطيع حول الركن . . هل فعلت ؟ هناك —
على الصخرة الضخمة حيث يوجد أثر دخان الشمع .

— يا إلهي ! أرى صليباً د يا توم ، ا

— أين يوجد رقم ٢ ؟ . . . تحت الصليب . . . أليس كذلك ؟ هناك

رأيت د إنجان جو ، يرفع شمعته يا د هاك ، ا

فخملق د هاك ، في العلامة الغامضة ، ثم قال بصوت مرتعش :

— د توم ، ، هلم بنا نهرب من هذا المكان ا

— ماذا ؟ ونترك الكينز ؟

— نعم . . . تتركه . . إن شبح د انجان جو ، موجود هنا بكل

تأكيد!

-- كلا يا د هاك ، . . كلا . . إنه ليس موجودا هنا . . إنه يوجد حيث

مات د جو ، — هناك عند مدخل الكهف — أي على بعد خمسة أميال
من هنا .

— كلا يا د توم ، ، إنه ليس هناك . . إنه يتسكع حول الكينز . . .

لأنني أعرف الأعيب الأشباح ، وأنت أيضاً تعرفها ا ا

وبدأ د توم ، يخشى أن يكون د هاك ، على حق . وتجمعت الظنون

والأوهام في عقله . ولكن سرعان ما طرأت على باله فكرة فقال :

— يا لنا من غيبين يا د هاك ، ا إن شبح د انجان جو ، لا يمكن أن

يحوم حول مكان فيه صليب ا وكانت حجة قوية أحدثت أثرها . .

قال « هاك » : إننى لم أفكر فى ذلك يا « توم » . . إن ذلك من حسن
حظنا . . أعتقد أنه يجب علينا أن نهبط من فوق هذا التل ، ونبحث عن
الصندوق المذشود .

وهبط « توم » أولاً ، وهو يفرس قدميه بعنف فى الطـفل ليحفر
فيه ما يشبه درجات السلم . وتبعه « هاك » ، ورأى الإثنين أربعة ممرات
تُظِل على كهف صغير تتوسطه الصخرة الهائلة . وخص الغلامان ثلاثة
من هذه الممرات ، دون أن يصلا إلى غايتها . . . وأخيراً ، عثرا على فجوة
صغيرة فى أقرب ممر إلى قاعدة الصخرة ، به ثلاثة ألواح خشبية نُظمت
على هيئة سرير فوقه عدد من (البطاطين) ، كما عثرا على مشجب ، وبعض
الأطعمة ، وعظام دجاجتين أو ثلاث دجاجات مجردة من كل أثر للحم ،
ولكنهما لم يجدا أثراً للصندوق الذى يضم الكنز الثمين ! !

— تقول يا توم إن الكنز مخبوء تحت الصليب . . هذا المكان يكاد
يكون أسفل الصليب . . ولا شك أنه من المستحيل أن يكون الصندوق
تحت الصخرة نفسها لأن الصخرة مستقرة تماماً على الأرض ، ولا يتسنى
لأحد أن يزحزحها من مكانها !

واستأنفاً بحثهما فى كل مكان ، حتى إذا ما اتناهما الإعياء جلسا فوق
الأرض ساخطين ! . وبعد فترة من الصمت قال « توم » :

— اصغ إلى يا « هاك » ، إننى أرى آثار أقدام وشمع على الطفل عند
أحد جوانب هذه الصخرة ، ولكنى لا أرى أية آثار منها على الجوانب
الأخرى . فما معنى ذلك ؟ أو كد لك أن الكنز تحت الصخرة . ولهذا
سوف أحفر فى الطفل .

فقال « هاك » بانتعاش : إنها ليست فكرة خرقاء يا « توم » !
وفى التو أخرج « توم » المدية التى أهدتها مارى له ، وما كاد يحفر
أربع بوصات ، حتى اصطدمت المدية بخشب .
فهتف : اصغ يا « هاك » هل سمعت ؟

وبدا « هاك » يحفر وينبش ، وسرعان ما عثرا على بعض الألواح الخشبية فأزالاها من مكانها . وكانت هذه الألواح تخفي خندقا طبيعيا يمر من أسفل الصخرة - ونزل «توم» في الخندق ، وأدخل شمعته تحت الصخرة بقدر ما استطاع ، ولكنه قال إنه لا يستطيع أن يرى نهاية الخندق ، ثم أعلن أنه يعتزم الاستكشاف .

ثم انحنى إلى الأمام، وزحف تحت الصخرة في طريق ضيق قليل الانحدار ينحطف يمينا ثم يسارا . . .

وكان «هاك» يسير في أثره ، وبعد قليل انثنيا ، في الطريق ، ولم يلبث «توم» أن صاح :

- يا إلهي . . أنظر يا «هاك» !

كان صندوق الكنز موضوعا بداخل فجوة صغيرة ، بجوار مجموعة من رصاص المسدسات ، وفوقه بندقيتان بداخل كيسين من الجلد و «حزام» جلدي ، وبعض التفاهات المبللة بالماء !

وقال «هاك» وهو يفحص بأصابعه قطع النقود :

- وأخيرا عثرنا على الكنز ! يا إلهي ! لقد أصبحنا من الأثرياء .
يا «توم» !

- طالما جال بذهني أننا سنعثر عليه يا «هاك» . ولكني لا أكاد أصدق عيني الآن . مهما يكن ، لقد أصبح الكنز «ملكنا بكل تأكيد» !
والآن ، يجب ألا ننلكأ هنا ، فلنمض بالصندوق . . دعني أجرب إن كان في استطاعتي أن أرفعه !

كان وزن الصندوق حوالى خمسين رطلا . ولقد استطاع «توم» رفعه بصعوبة ، ولكنه لم يستطع حمله بسهولة .

قال : هذا ماجال بخاطري ، فقد كان يبدو ثقيلًا عندما حمله الرجلان في ذلك اليوم ، ونحن مختبئان في المنزل المهجور . . لقد لاحظت ذلك ، ولهذا

فاننى أعتقد أننى كنت على صواب ، عندما قررت إحضار الحقيبتين الصغيرتين معنا !

وسرعان ما أفرغنا النمود فى الحقيبتين ، وحملاهما !

قال « هاك » بعد أن خرجا من الخندق : دعنا نحضر البندقيتين والأشياء الأخرى التى عثرنا عليها .

— كلا ، يا هاك ، — دعها هناك ... فستكون أدواتنا السرية عندما نصبح لصوصا .. سوف نبقىها حيث هى طوال الوقت ، كما سنحتفظ هنا بخمور أيضا .. إنه مكان جميل للعريضة !

— ما هى العريضة ؟

— لا أعلم .. ولكن اللصوص يعربدون دائما، وهم على حق فيما أظن ! .
هلم بنا ، يا هاك ، فقد قضينا هنا وقتاً طويلاً ، وقد تأخر الوقت فيما أظن .
ثم إننى جائع .. سوف نطعم وندخن فى القارب .

وبعد قليل كانا يخرجان من فتحة الكهف السرية، وتلفنا حولهما بتحفظ ولما اطمانا إلى أنه لا يوجد ثمة مخلوق فى المنطقة كلها، انطلقا إلى القارب فركباه ثم تناولوا الغذاء وراحا يدخنان .. وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الأفق ، أطلق الغلامان القارب ، فوصلا إلى غايتهما ، بعد أن أظلمت الدنيا بفترة قصيرة وكانا يثرثران بمرح !

قال « توم » : سنخفي هذه النقود فى (الحلق) العلوى لنافذة حظيرة الأرملة، وسوف نعود فى صباح الغد لنعد النقود ونقتسمها . وبعدئذ نبحث عن مكان آمن فى الغابة ، ندفن فيه هذه الثروة . فعليك أن تبقى هنا وتراقب النقود ريثما أذهب وآتى بعربة صديقنا الفلاح « بنى تايلور » ، الصغيرة ... لن أغيب أكثر من دقيقة ..

ولم تطل غيبته ، إذ سرعان ما عاد ، وهو يجر العربة الصغيرة ، ووضع الحقيبتين فوقها ، وغطاهما ببعض الخرق القديمة . ثم بدأ السير ، وهو يجر العربة خلفه .. وعندما وصل الغلامان إلى منزل الكهل الاسكتلندى

يوقفا ليستريحا . وبينما كان يستعدان لاستئناف سيرهما ، برز الكهل من المنزل وهتف :

هالو .. من هناك ؟

— « هاك ، و « توم سوير ، ا

— حسناً .. هيا معى يا غلامان . فقد أطلتما انتظار الجميع .. هيا .. أسرعا .. بل اركضا ، وسألحق بكما ومعى العربة .. لكن يا إلهى ! إنها ليست خفيفة كما ظننت ، هل أثقلتماها بالأحجار . ؟ أم بالمعادن القديمة ؟

فقال « توم ، : بالمعادن القديمة :

— هذا ما ظننته .. إن غلمان هذا البلد يبذلون جهدا كبيرا وينفقون وقتاً طويلاً فى البحث عن ست قطع قديمة من المعادن يبيعونها للسبك ، ليحصلوا على قدر من المال لا يكاد يبلغ نصف ما عساهم يستطيعون الحصول عليه ، لو أنهم أنفقوا ذلك الوقت كله فى عمل منتظم .. ولكن هذه هى الطبيعة البشرية .. هلم .. أسرعا .. هلم .. أسرعا ! واستفسر الغلامان عن سر هذه العجلة ، فقال الكهل :

— دعونا من ذلك الآن ، فستعرفان كل شىء ، عندما تذهبان إلى قصر الأرملة « دو جلاس ، ا

وساورت الريبة « هاك ، ، فقد كان يخشى أن تكون الأرملة قد ظنت بهما سوءاً ... قال :

— مستر « جونز ، .. أعتقد أننا لم نفعل ما يستحق المؤاخذة ؟ فضحك الكهل .. وقال :

— لست أدرى يا بنى .. لست أدرى شيئاً عن ذلك .. ألسنت والأرملة صديقتين حميمتين ؟

— نعم .. لقد كانت صديقة رحيمة بى على كل حال .

— إذن ما الذى يجعلك تخشاها ؟

ولم يستطع عقل «هاك» بطنى التفكير أن يجيب على هذا السؤال بسرعة وفي تلك الأثناء كان السكمل يدفعه و«توم» إلى غرفة الجلوس بقصر «مسز دو جلاس». وترك «مستر «جونز» المركبة عند الباب، ثم لحق بالغلامين .

كانت الغرفة ساطعة الضوء . وكانت مكتظة بكل شخص له (حيثية) فى القرية ، فقد كان من بين الحاضرين الزوجان «تاتشر» والزوجان «هاربر» والزوجان «روجرز» والعمه «بولى» و «سيدنى» و «مارى» والواعظ ، ومحرر الصحيفة المحلية، وعدد آخر كبير، وجميعهم يرتدون أفخر مالدتهم من ثياب.. وقد استقبلت الأرملة الغلامين استقبالا حاراً، رغم أنهما كانا ملطخين بدهن الشمع والطفل.. وما كاد بصر العمه «بولى» يقع على «توم» حتى احمر وجهها من الخجل، وقطبت حاجبيها، وهزت رأسها بضيق . فأحس الغلامان بالارتباك الشديد .

قال «مستر «جونز» : لاني لم أدع «توم» يذهب إلى المنزل ، فقد صادفته و «هاك» عند باب منزلى ، فأحضرتهما على عجل .
فقالت الأرملة : لقد أصبت حينما فعلت ذلك . . هيا معى أيها الغلامان ! وأخذتهما إلى غرفة النوم ، وقالت :

— هلمنا اغتسلا واستبدلا ثيابكما .. إليكما بذلتان جديدتان وقمصان ، وجوربان .. إنهما لهاك — كلا .. لا أريد شكراً يا فتى .. لقد اشترى «مستر «جونز» إحداهما ، واشتريت ، أنا الأخرى ، ولكنهما يناسبانكما معاً . . .
فهلما ارتدياهما سريعاً .. أما نحن فسننتظركما — فليكما بالانضمام إلينا ، حينما تفتيان من ارتداء ثيابكما .

الفصل الرابع والثلاثون

قيض من الذهب !

قال «هاك»: اصغ إلى يا «توم». إن في استطاعتنا أن نهرب من النافذة، إذا عثرنا على حبل، لأن النافذة ليست مرتفعة عن الأرض.

— هذا سخف. . لماذا تريد الهرب؟

— لست معتاداً على مثل هذه المجتمعات، وليس في استطاعتي أن أطيقها. ومن ثم فلن أذهب معك إلى غرفة الجلوس يا «توم».

— كفى هذياناً! ليس في ذلك ما يخيف. . إنني لا أبالي البتة، وسأعنى بك.

وظهر «سيدنى» على باب الغرفة في تلك اللحظة.

قال: لقد ظلت عمى تلتظرك طوال بعد الظهر يا «توم»، وأعدت «مارى» ثياب المساء. وكان الجميع يشعرون بالقلق من أجلك. . أخبرنى، أليست هذه البقع التي تلوث ثيابك بقع دهن وطفل؟

— لا شأن لك بذلك يا «مستر» سيدنى، . وعلى كل حال، لماذا كل هذه

الجلبة؟

— إنها حفلة من الحفلات التي اعتادت الأرملة إقامتها. وقد أقامتها هذه المرة تكريماً للكهل الأسكتلندى وولديه، بمناسبة ما أبعدها من بسالة في تلك الليلة. . وبهذه المناسبة، إن في استطاعتي أن أفضى إليك بدياً هام إن كان يهمك أن تعرفه.

— حسناً. . ما هو؟

— إن «مستر» جونز، يحتفظ بمفاجأة للحاضرين الليلة، ولكنى سمعته يتحدث عمى بشأنها اليوم سراً، وإن كنت أظن أنها لم تعد الآن سراً، فإن كل شخص يعرف ماذا هناك — حتى الأرملة نفسها تعرفه، رغم أنها تتظاهر

بأنها لا تعلم شيئاً .. لقد أصر مستر « جونز » على أن يحضر « هاك » الحفلة
— وقال إنه لا يستطيع أن يفضى بسرّه الكبير بغير وجود « هاك » .

— وما صلة السر « بهاك » يا « سيدنى » ؟

— الصلة هي متابعة « هاك » للشريين حتى قصر الأرملة .. أعتقد
أن مستر « جونز » كان يريد أن يجعل من هذا النبأ مفاجأة عظيمة ، ولكنى
أعتقد أيضاً أن هذه المفاجأة لم تعد مفاجأة على أية حال !

ثم قهقهه « سيدنى » ضاحكاً بارتياح ..

— « سيدنى » هل كنت أنت الذى كشف السر ؟

— ليس لشخصية من كشفه أية أهمية ، ويكفى أن شخصاً

ما كشفه .

— « سيدنى » .. يوجد في هذه المدينة شخص واحد وضيع ، وهذا

الشخص هو أنت ؛ فلو أنك كنت في مكان « هاك » لتسللت مبتعداً بغير
أن تكشف أمر اللصين لأحد ، فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً غير
وضيع ، كما أنك لا تستطيع أن تطيق الثناء على أى شخص يأتي
عملاً طيباً ..

وأمسك « توم » بأذن « سيدنى » وجذبه نحو الباب وهو يركله بقدمه ..

ثم أردف :

— والآن اذهب شاكياً لعمتى إذا جرؤت — وغداً أفتك بك ؛ وبعد

عدة دقائق ، كان ضيوف الأرملة يجلسون حول مائدة العشاء ، بينما جلس

حوالى اثني عشر غلاماً حول منضدة صغيرة في نفس الغرفة جرياً على العادة

المألوفة في تلك البلاد في ذلك الحين . وفي الوقت المناسب ألقى مستر « جونز »

خطابه الذى شكر فيه الأرملة على الشرف الذى أسبغته عليه وعلى ولديه ،

ثم قال إن هناك شخصاً آخر جعله تواضعه ..

وهلم جرا .. ثم ألقى بقنبيلته ، فكشف السر عن مغامرة « هاك » في

كلمات حماسية كان يجيد استعمالها : ولكن السر لم يكن سراً كما قلنا ، ولذلك

لم يُقابل بعاصفة من التصفيق الحاد، كما كان خليقاً أن يحدث لو أنه ظل سراً ، ومع ذلك ، فقد أبدت الأرملة قدراً كبيراً من التظاهر بالدهشة ، وغمرت « هاك » بعبارات الشكر والتقدير ، حتى كاد الغلام ينسى الضيق الذي كان يشعر به ، من جراء الثياب الجديدة التي أرغم على ارتدائها . . وقد ازداد ارتباكاً ، حينما لاحظ أنه أصبح محط أنظار جميع من في الغرفة ! وقالت الأرملة أنها تعزم أن تأوى « هاك » في منزلها ، وأن تلحقه بالمدرسة ليتعلم ، وحينما يتاح لها المال ، فإنها سوف تهيب له عملاً متواضعاً . وعندئذ ألقى « توم » فرصته سانحة ، فقال :

— إن « هاك » ليس بحاجة للعمل ، لأنه غنى !

وبُهِت الحاضرون وحسبوا « نكتة » ، فراحوا يضحكون ، ثم شملهم صمت عميق بدّده « توم » بقوله :

— إن « هاك » يملك مالا كثيراً . . لعلمكم لا تصدقون ذلك ، ولكنه الواقع . . لا حاجة بكم للابتسام — فإن في استطاعتي أن أثبت لكم ذلك ، فانتظروا اللحظة .

وهرول « توم » خارجاً من الباب ، فتطلع الحاضرون إلى بعضهم البعض ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الحيرة الممزوجة بالاهتمام ، ثم تطلّعوا إلى « هاك » ، ولكن الغلام لا ذبالصمت .

قالت العمّة « بولى » ، ماذا دها « توم » ، يا « سيدنى » ، يا إلهى ! إننى لا أستطيع أن أفهم هذا الغلام و . .

وأقبل « توم » في تلك اللحظة وهو يحمل الحقيبتين بصعوبة ، وسكب كومة الذهب الأصفر فوق المنضدة .

ثم قال : ها هي الثروة التي حدثتكم عنها . . إن نصفها ملك لـ« هاك » ، والنصف الآخر ملك لى !

وشهق الحاضرون . وحدثوا جميعاً فى المال ، وقد سيطر عليهم صمت عميق . وبعدئذ انفجروا جميعاً يظالبون بالإيضاح ، فقال « توم » ، إن فى

استطاعته أن يقدم لهم إيضاحاً .. وفعل ا . ومع أن القصة كانت طويلة إلا أنها كانت مثيرة وغريبة . ولم يحاول أحد أن يقاطع الغلام ، وهو يسرد تفاصيل المغامرة الرائعة . وعندما انتهى « توم » من الحديث قال مستر « جونز » :
- كنت أظن أنني احتفظت لكم بمفاجأة صغيرة لهذه المناسبة ، ولكنها لم تعد تذكر حياء هذه المفاجأة الضخمة .
وأحصيت النقود ، فإذا بها أكثر قليلاً من اثني عشر ألف دولار . . .
وكانت أكثر مما استطاع أن يراه أحد من الحاضرين دفعة واحدة ، ولو أن كثيرين منهم كانوا يملكون أكثر من ذلك على شكل أملاك .

الفصل الخامس والثلاثون

« هاك » المحترم ينضم للعصابة !

يستطيع القارىء أن يتصور أن أبناء الثراء العريض الذى هبط على « توم » و « هاك » أحدثت ضجة عظيمة فى قرية « سانت بيتر سبورج » الصغيرة ، فإن الكثيرين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن إنساناً ما ، يملك مثل هذا المبلغ الكبير نقداً وعداً . . . وراح الجميع يناقشون الموضوع بحسد وغيره ، بل إن كثيراً من المواطنين انتابهم حمى البحث عن كنز فلم يدعوا منزلاً خرباً فى القرية والقرى المجاورة لها ، إلا قلبوه رأساً على عقب ، وهدموه من أساسه بحثاً عن كنز مخبوء - ولم تكن هذه الحمى مقصورة على الصغار ، وإنما امتدت إلى رجال من المشهورين بالرزانة والهدوء والبعد عن الخيال .. وكان الناس كلما ظهر « توم » و « هاك » فى مكان ما يلتفون حولهما ويصغون إلى حديثهما بإعجاب شديد ، ولم يستطع الغلامان أن يتذكرا ملاحظاتها كانت تلقى مثل هذا الاهتمام من قبل ، أما اليوم ، فقد أصبح الجميع يتلففون على سماع هذه الملاحظات وتكرارها ، والتعمق فى تأملها . وهكذا كان كل ما يفعله يعتبر شيئاً هاماً مدهشاً ، واعتقد الجميع أن الغلامين فقدوا القدرة على فعل أو قول الأشياء والأقوال العادية ، زد على ذلك ، أن الكثيرين انصرفوا إلى دراسة تاريخ حياة الغلامين وأجهدوا أنفسهم فى اكتشاف علامات تبشر بالنبوغ والعظمة وقوة الابتكار ، كما نشرت صحيفة القرية مقتطفات عن حياتهما !

وأقرضت الأرملة « دو جلاس » نصيب « هاك » من الثروة لبعض الأشخاص ، مقابل فائدة قدرها ستة فى المائة ، وفعل القاضى « تاتشر » الشيء نفسه بنصيب « توم » تلبية لرغبة العمه « بولى » . وهكذا أصبح لكل غلام منهما دخل مستقل الآن - دولار كامل فى كل يوم من أيام

السنة .. وكان هذا الدخل مساوياً لما يحصل عليه الواعظ ، بل كان ذلك هو الأجر الذي وعدوه بالحصول ، عليه وإن كان لم يستطع الحصول عليه أبداً .

وارتفع شأن « توم » ، في نظر القاضى « تاتشر » . وكان القاضى لا يفتأ يصرح بأنه كان يستحيل على غلام عادى انقاذ ابنته من الكمف ، وعندما أبلغته « بيكى » - بمنتهى السرية - كيف أن « توم » تلقى طائعاً مختاراً عقوبة الضرب التى كان من المقرر أن تنزل بها ، تأثر القاضى ، ولكنها ما كادت تفضى إليه نبأ الأ كذوبة الكبرى التى لجأ الغلام إليها ، ليعبد الضرب عنها ، حتى صاح مستر « تاتشر » ، قائلاً إن هذه أنبل وأكرم أ كذوبة - أ كذوبة تستحق أن ترفع رأسها وتسير عبر التاريخ ! ! وخيل لبيكى أن أباه لم يبد فى يوم من الأيام على هذا الطول وتلك العظمة ، عندما أخذ يروح ويجيىء فى الغرفة وهو يضرب الأرض بقدمه وينطق بهذه الكلمات . ومن ثم ، فقد غادرت المنزل على الفور ، وأفضت إلى « توم » بكل ما قاله أبوها !

وأعرت القاضى « تاتشر » ، عن أمه فى أن يصبح « توم » ، فى المستقبل محامياً عظيماً ، أو جندياً عظيماً يشار إليه بالبنان . ثم أردف قائلاً إنه قرر أن يساعد الغلام على الالتحاق بالأ كاديمية العسكرية الأهلية ، على أن يتلقى دراسته فى القانون بعد ذلك فى أحسن مدرسة حقوق بالبلاد ، وبذلك يمكنه أن يمارس إحدى المهنتين أو يمارسهما معاً .

وأما « هاكبرى فىن » ، فإن ثراهه ، وتعهد الأرملة « دو جلاس » ، أشأنه أدخلاه إلى اجتماع - لابل - لهما جذباه إليه جذبا ، وربما قذفاه إليه قذفاً - ولهذا كانت متاعبه أكثر مما يطيق احتمالها . فقد دأب خدم الأرملة على المحافظة على نظافته وأناقته ، وتسريح شعره وتصفيفه ، وكانوا يغطونه أثناء الليل بأغطية ثقيلة ، لا توجد بها بقعة واحدة ، كما كان عليه أن يستعمل السكين و « الشوكية » عند تناول الطعام ، وأن يستعمل المنشفة والقديح ذى الطبق وكان عليه أيضاً أن يتعلم فى المدرسة : وأن يذهب إلى الكنييسة .

وأن يتكلم بلغة مهذبة ، وهكذا كان كلما أدار وجهه ، ألقى نفسه مكبلاً بأغلال المدينة التي تثقل يديه وقدميه !!

ولقد احتمل الغلام هذه المضايقات ، مدة ثلاثة أسابيع ، ثم اختفى ذات يوم . وقضت الأرملة ثمانى وأربعين ساعة ، وهي تبحث عنه في كل مكان وقد تولاهما جزع شديد ، واهتم الجمهور بالأمر أيما اهتمام ، وراح الجميع يبحثون عنه ، حتى في النهر ، بغير جدوى . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث خرج «توم» يبحث عن صديقه في البراميل الكبيرة الفارغة الملقاة خلف المجزر ، وإن هي إلا لحظات حتى عثر على الهارب مختبأً بداخل أحدها . كان «هاك» قد قضى ليلته بداخل البرميل ، وكان قد انتهى في تلك اللحظة من تناول طعام إفطاره ، الذي كان مكوناً من بعض ألوان تناول الطعام البسيطة ، التي سرقتها من أماكن مختلفة . وحينما عثر «توم» عليه ، ألقاه بمدداً ، وهو يدخن غايونه بارتياح شديد . وكان الغلام أشعث أغبر ، يستر جسده بأسمال بالية مما تخلف لديه من حياته السابقة الحرة السعيدة !! وأخرجه «توم» من البرميل ، وأفضى إليه بما أثاره سلوكه من متاعب ، ثم حثه على العودة إلى المنزل . وفي التو انحسرت عن وجه «هاك» علامات الرضا والارتياح ، وحلت محلها علامات الكآبة والضيق وقال :

- لا تحدثني عن حياة الترف يا «توم» فقد سئمتها ، لأنني لست معتاداً عليها . . صحيح أن الأرملة رفيقة بي ، ولكنني لا أستطيع احتمال هذه الحياة . إنها تجعلني أستيقظ في نفس الوقت كل صباح ، وتذهب بي للاغتسال ثم يصففون شعري ، ولا تسمح لي بالنوم في الحظيرة الخشبية ، وتضطرني إلى ارتداء تلك الثياب البغيضة التي تكاد تكتم أنفاسي لأنها لا تسمح بتسرب الهواء منها ... إنها ثياب جد جميلة ، حتى أنني لا أستطيع الجلوس أو الرقاد أو التقلب بها في أي مكان ، كما أن هذه الأرملة ترغمني على الذهاب إلى الكنيسة ، فينسال عرقى ، ثم ينسال ، - فإنني أكره تلك المراسيم من كل قلبي ، وليس في استطاعتي أن أقتنص ذبابة ، وأنا جالس في الكنيسة ،

وهي تضطرنى إلى ارتداء الحذاء طوال يوم الأحد .. إن هذه الأرملة تأكل على دقات الجرس ، وتأوى إلى الفراش بجرس ، وتستيقظ بجرس - كل شيء بنظام دقيق لا يستطيع الإنسان احتماله .

-- إن كل إنسان يفعل ذلك يا د هاك ، .

- « توم ، إن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً . . فأنا لست مثل كل إنسان ، ولا يمكننى أن أطيق هذه الحياة .. وأنه لمن المزعج أن يقيد الإنسان بهذه الأغلال الخفيفة .. إننى أحب الحياة الطليقة ، ولكنى فى قصر الأرملة ، لا أستطيع أن أذهب لصيد السمك إلا بإذن ، ولا أستطيع أن أذهب للسباحة إلا بإذن ، وإذا فعلت أى شيء بغير إذن ، قامت الدنيا وقعدت . كذلك صرت مضطراً إلى الكلام بلغة مهذبة وإن لم أسترح إلى هذه اللغة . وعدا ذلك ، فإن الأرملة لا تسمح لى بالتدخين ، أو الصباح ، أو التحدث فى أى شيء ، أو التمدد ، أو حك جلدى أمام الناس - (ثم بدت على الغلام علامات الانفعال والألم) وأردف - ثم يا إلهى ! إنها تقضى معظم وقتها فى الصلاة والعبادة ... إننى لم أر سيدة كهذه أو هكذا لم أجد مفراً من الرحيل يا « توم » ، ثم إن المدرسة على وشك الافتتاح ، ستلحقنى الأرملة بها ، وأنا لا أستطيع إطلاقاً احتمال قيود المدرسة . . . لإصغ إلى يا « توم » ، إننى لا أبالى بالثراء الذى هبط على ، لأنه أصبح مصدر قلق دائم لى ، كما أنه يجعل الناس تتمنى موتى فى كل لحظة . . . إن هذه الثياب تلائمى ، وهذا البرميل يرضينى ، ولن أتخلى عنهما مهما كانت الظروف . وفى الحق ، أتى ما كنت لأعرض لكل هذه المتاعب لولا تلك النقود ، فخذ حصتى وضمها إلى حصتك ، واعطنى عشرة بنسات بين حين وآخر - ولكن لبس بكثرة لأننى لا أدفع ثمناً إلا لما يصعب الحصول عليه - فإذهب الآن ودافع عنى عند الأرملة !

- أوه يا د هاك ، إنك تعرف أننى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه

ليس من العدل في شيء ، ثم إنك إذا احتملت هذا الأسلوب الجديد من الحياة فترة أطول ، فسوف تألفه !

— آلفه ! نعم — مثلها آلف الموقد الساخن إذا اضطرت إلى الجلوس فوقه فترة كافية اكلا يا د توم ، لن أكون ثريا ، وإن أقيم في هذه المنازل البغيضة التي تكتم الأنفاس .. إنني أحب الغابات والنهر والبراميل ، وسأظل أحبها .. أفي الوقت الذي تتاح لنا فيه البنادق ، والكهف ، ويصبح كل شيء معداً للسرقه ، تبرز هذه السخافات لتقضى على تلك الآمال العريضة !
ووجد د توم ، الفرصة سانحة فقال :

— إصنع لي يا د هاك ، .. إن الثروة التي هبطت علينا لا يمكن أن تجعلني أتخلى عن فكرة احترام اللصوصية .
— أحقاً ؟ هذا مدهش .. لكن هل أنت شديد اللهفة على ذلك يا د نوم ، ؟

— نعم ، إنني متلهف على ذلك كلهفتي على الجلوس معك الآن . ولكننا لن نستطيع أن نسمح لك بالانضمام إلى العصابة مسالم تكون شخصاً محترماً !

وتلاشى مرح د هاك ، .. وهنف :

— لا نستطيع أن نضمني إلى العصابة يا د توم ، ؟ ألم نسمح لي بأن أكون قرصاناً ؟

— نعم ، ولكن ذلك أمر مختلف ، فإن اللص أكثر تهذبا من القرصان — بصفة عامة . وفي أكثر البلاد يكون اللصوص من النبلاء والأشراف !

— ألم تكن صديقي دائماً يا د توم ، ؟ لا أظنك ستتنكر لي الآن . . .
أليس كذلك ؟ إنك لن تفعل ذلك يا د توم ، !

— إنني لا أريد أن أفعله يا د هاك ، ، لكن ماذا سيقول الناس ؟
سيقولون إن ، عصابة د توم سوير ، ليست سوى جماعة من الأذال .

الوضيعين . . . وهم بالطبع يقصدونك أنت يا د هاك ، ، ربما أحسبك تحب ذلك ، كما أننى لا أحب أن يقال ذلك عنك .

وصمت د هاك ، عدة لحظات ، كان خلالها فريسة لصراع نفسى حاد . .
وأخيراً قال :

— حسنا ، سأعود إلى الأرملة ، وأتحمل العذاب شهراً آخر ، لأرى إن كان فى استطاعتى أن أحتمله دواما أم لا ، لكن بشرط أن تسمح لى بالانضمام للعصابة !

— حسنا يا د هاك ، . . . اتفقنا . . . والآن هلم بنا أيها الغلام وسأطلب من الأرملة أن تمنحك قسطاً أوفر من الحرية .

-- أحقا ستفعل ذلك يا د توم ، ؟ هذا حسن . . . ليتها ترخى عنان الرقابة قليلا ، فسأحرص على أن أدخن سراً ، وآتى بعض الأعمال التى أصبحت جزءاً من حياتى فى الخفاء . . لكن متى ستكون العصابة وتصبح أصاباً ؟

— فى الحال . . . سوف نجمع الغلمان ، وربما نبدأ عملنا التمهيدى الليلة .

— وما هو هذا العمل التمهيدى ؟

-- أن نقسم على أن يشد كل منا أزر الآخرين ، وألا يفشى أسرار العصابة حتى ، ولو مزقوه إربا ، وأن نقتل أى شخص يسبى إلى أحد أفراد العصابة ونقضى على أسرته .

— هذا رائع . . . هذا رائع جداً يا د توم ،

— الحق ما تقول يا د هاك ، . . . يجب أن ننتهى الليلة من القسم على أن يكون ذلك فى مكان منعزل مخيف — ولقد كان يحسن بنا أن نفعل ذلك فى منزل «مسكون» ، ولكن سوء الطالع شاء أن تُتباد هذه المنازل عن بكرة أبيها .

- حسناً ، إن منتصف الليل هو أحسن وقت ملائمة على كل حال !
- نعم ، إنه كذلك . وسيتحدثم عليك أن تقسم وأنت تضع يدك
على تابوت ، وأن توقع القسم بالدم .
- أوه ! هذا شيء جميل جداً إن اللصوصية أفضل مليون مرة
من القرصنة . . . سأبقى مع الأرملة إلى أن يتعفن جسدي يا د توم ، .
وعندما أصبح لاصاً محترفا يتحدث الناس جميعاً عنه ، فإن الأرملة - على
ما أظن - سوف تفخر بأنها انتشلتني من المستنقع الآسن الذي كنت
أعيش فيه ! !

الخاتمة

وعند هذا الحد تنتهى هذه القصة . وإنه لمن الخير أن تنتهى هنا ، لأنها لا تعدو أن تكون ترجمة حياة غلام . . . ولو أن القصة مضت إلى ما هو أبعد من ذلك لكان حتما أن تصبح ترجمة حياة رجل . فعندما يكتب المرء عن قصة أحد الراشدين ، فإنه يدرك أين ينبغى عليه أن يتوقف . عند زواج مثلا . . . ولكنه حينما يكتب عن الأحداث ، فإنه يحرص على أن يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة .

إن معظم الأشخاص الذين لعبوا أدواراً في هذه القصة ما زالوا على قيد الحياة ، وهم ناجحون وسعداء وقد يأتى يوم ، يصبح من الأفضل فيه أن نستأنف زواجة قصص هؤلاء الصغار مرة أخرى ، لنرى أى طراز من الرجال والنساء صاروا . ومن ثم فإن الحكمة ، تقنضينا ألا نزيح الستر عن أى جزء من أجزاء حياتهم فى الوقت الحاضر .

. تمت القصة .

فهرس القصص

صفحة	
٥	مارك توين
٧	تقديم
	الفصل الأول :
٩	توم يلعب ويقاقل ويختفي
	الفصل الثاني :
٢٠	الطلاء البارع
	الفصل الثالث :
	مشغول بالحب والحرب
	الفصل الرابع :
٣٦	مسرحية في « مدرسة الأحد ،
	الفصل الخامس :
٤٩	الخنفساء الفريسة
	الفصل السادس :
٥٣	« توم ، يقابل « بيكي ،
	الفصل السابع :
٧١	مطاردة وفشل
	الفصل الثامن :
٨٠	القرصان الشجاع
	الفصل التاسع :
٨٧	مأساة في المقابر

صفحة

- الفصل العاشر :
- ٩٦ النبوة المخيفة لسكاب يعوى
- الفصل الحادى عشر :
- ١٠٤ « توم » يؤنبه ضميره
- الفصل الثانى عشر :
- ١١٠ القطة والدواء الذى يقتل الألم
- الفصل الثالث عشر :
- ١١٧ قراصنة البحار يبحرون
- الفصل الرابع عشر :
- ١٢٦ معسكر القراصنة السعيد
- الفصل الخامس عشر :
- ١٣٣ « توم » يزور المنزل خلصة :
- الفصل السادس عشر :
- ١٤٠ الصبية يدخنون
- الفصل السابع عشر :
- ١٥٢ القراصنة يشهدون جنازة أنفسهم
- الفصل الثامن عشر :
- ١٥٧ « توم » يذبح سر حليمه
- الفصل التاسع عشر :
- ١٦٩ (لم يخطر ببالى)
- الفصل العشرون :
- ١٧٣ « توم » يتلقى عقوبة « بيكى »
- الفصل : الحادى والعشرون :
- ١٨٠ يا للبلاغة

صفحة	
	الفصل الثاني والعشرون :
١٨٤	« هاك فين » يتلو آيات من الكتاب المقدس
	الفصل الثالث والعشرون :
١٨٨	« خلاص » « ماف بوتر »
	الفصل الرابع والعشرون :
١٩٧	أيام رائحة وليال مخيفة
	الفصل الخامس والعشرون :
١٩٩	البحث عن الكنز المدفون
	الفصل السادس والعشرون :
٢٠٩	للصوص الحقيقيون يستولون على صندوق الذهب
	الفصل السابع والعشرون .
٢٢١	اقتفاء الأثر
	الفصل الثامن والعشرون :
٢٢٥	في عرين « إنجان جو »
	الفصل التاسع والعشرون :
٢٣٠	« هاك » ينقذ الأرملة
	الفصل الثلاثون :
٢٤٠	« توم » و « بيكي » في الكهف
	الفصل الحادي والثلاثون :
٢٥٢	وجدوا . . ثم فقدوا ثانية
	الفصل الثاني والثلاثون :
٢٦٣	هلوا لقد وجدوا

صفحة

	الفصل الثالث والثلاثون :
٢٦٧	نهاية « إنجان جو ،
	الفصل الرابع والثلاثون :
٢٨١	قيض من الذهب
	الفصل الخامس والثلاثون :
٢٨٤	« هاك ، المحترم ينضم للعصابة »
٢٩١	الخاتمة

منتدی سور الأزربکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET